

# عذراء قریش

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الإسلامية

- ✽ تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة ✽
- ✽ الامام علي بن ابي طالب وما نجم عن ذلك من ✽
- ✽ الفتنة وواقعة الجمل وواقعة صفين الى ✽
- ✽ خروج الخلافة من اهل البيت ✽
- ✽ وبهاية معاوية بن ابي سفيان ✽



✽ تأليف ✽

عزيمى زيدان

(مشرف الملال)



نشرت الحلقة بالعدد السابع من الملال

« طبعت بمطبعة ( الملال ) بالنجاة بصرى ١٨٢٨ م »

## الفصل الأول

## ﴿ قباه ﴾

قباه قرية على ميلين من المدينة ( بئر )<sup>(١)</sup> اشتهرت بعد الحجرة بتزول صاحب الشريعة الاسلامية فيها اثناء هجرتها الى المدينة فبني فيها مسجداً هو اول مسجد بني في الاسلام<sup>(٢)</sup> وله كرامة خصوصية لانه اسس على التقوى واول من بني فيه حجراً صاحب الشريعة نفسه<sup>(٣)</sup> وكانت قباه في خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين قد اشتهر امرها وعرفت كرامة مسجدتها على اتراعشار الاسلام واتخاذ الخلفاء كرمي ملكهم في المدينة مع ما بذلوه من العناية في تحسين ذلك المسجد وخصوصاً الخليفة عثمان فانه وسعه وزاد فيه واقف عليه المصالح والمخارج . على ان ذلك لم يزد شيئاً كثيراً في سكان قباه نفسها

وكان لذلك المسجد في اواخر خلافة عثمان خادم طاهن في السن اسمه عامر شهيد بناه المسجد بنفسه ورأى صاحب الشريعة يوم زل هالك وامر ببناء المسجد فاوقف حياته لمخدمته فاقام في قباه هو وجماله يقضي نهاره في حراسة الجامع ويقوم بتنظيفه وسدائنه فاذا فرغ من ذلك خرج مع اولاده لرعاية اهل بعض الغنم في المدينة في بعض الاودية او المستنقعات التي تكثر في ذلك الجوار

ففي مساء يوم من ايام سنة ٣٥ للهجرة خرج الشيخ لرعاية الابل فاوغل في بعض الاودية فاقترب الغروب وهو لا يعلم فاسرع بالرجوع فركب ناقته وارتقى لها الحظام واستخرج مسلة كانت قد غرسها في شعر رأسه المتبلد ووخز بها اناقته بين جنبتيها استنشاقاً لها في المسير فطارت واولاده يتبعونه بقية النوق وقد ركب اصفرهم وهو حار على ناقته عارية وركب آخر على أخرى وامامه بعض الاخشاب او العيدان وقد جمعها من مسافعات الشجر ليقود نارهم بها . والجمال يحملها تحمل من الحظم امي ايها سانية بلا ارسان . وكان الشيخ اكثر الجميع عجلة بنتمس المسعد قبل ان تيبب الشمس فبنوت وقت الصلاة ورأى الشمس تمرع في المصوط فحمل له انها تسانية فحمل

(١) حم بانوت (٢) السيرة الحلبية (٣) ابن هشام

بمخت ناقة جهد طاقتو غير مال بحمال تلك الساعة وهي اجمل ما تكون في  
 الصحراء وقد استطالت الاظلال حتى اختلط بعضها ببعض فلم تعد تميز اظلال  
 الثبل من اظلال اللسان او السط وانزجت اظلال الاشجار باظلال آدميين  
 او النوق وقد غفل شئنا بهجتو ولمنعو عن شذاه الرجمان والقصعين وغيرها من نبات  
 الصحراء ولم يستوقف سمعة شمو اللابل ولا نطق الصنادع على انه لم يكذب بشرق على  
 قبا من آفة حتى سمع رغاء الجمال وصهيل الخيل يجوار المسجد فاسرع قرأى هناك  
 ركبة ومعهم الجمال والاحمال ولم يستغرب ذلك وقد تعود ان يرى كثيرا من امثالو  
 كل عام لان التوالم يدهاها الى المدينة كانت تمر بقاء تقف للراحة والاستقاء .  
 لعل له انها قافلة اسمى المساء طمها فارادت الميت هناك او الاستراحة فازداد  
 رغبة في الهلة ليوم بخدمة القادمين مخافة أن يسوقوا الى القصور وحول وجهه  
 الى الوراة فتأدى احد اولاديه وقال له اسرع يا ولدي الى الهيت فاحمل الماء جمع  
 الماء لعل هؤلاء الركب يحتاجون الى شرب



## الفصل الثاني

### على فراش الموت

وما زال الشيخ سرفا وهو كلما اقترب من المسجد وتوقع ان يبين الوجوه عارضا  
 فكانت الشفق حتى اقترب فانما هم ركب ومعهم الاقراس والحمال وبضعة رجال وفتاة  
 وقد تجتمعوا جميعا بحو ولقنة حول هودج عليه الاستار وفيه مريض شديد الدنف  
 يجادلون اخراجه الى مقعد في خيمة تصبوها بالقرب منه ففترس الشيخ في اولئك  
 الناس فعلم انهم قادمون من الشام الى المدينة فحسب لمروم بقاء وهي ليست في  
 طريقهم الهيا ونظر الى كهروم فانما هو كهل عليه لباس عرب الشام من الثياب والرداء  
 والعمامة ومجانيد شاب حسن البنة عليه عباءة من القصب وسهنة مرصع ووراءه خادم  
 يحمل له الرمح والنبال وعلى مقربة منها فتاة خضه الشباب قد اشرق وجهها صحة ونشاطا  
 على رأسها كوفية ممشودة بمقال وقد انسلت اطرافها الى ظمها حتى تقبل نور وجهها

بما اكتسبه من التورود على أثر التعب وركوب الجواد اباماً في طريق الصحراء . فلما رآها الشيخ اجنبت نظره واستلذت ابتهاجها لما آتته فيها من الاهتمام بامر ذلك المريض وتسلطها على اذهان رفقائها لآنها كانت ترشدهم في كيفية حملو ومداراته في علاو ووضعوه فترجل الشيخ عن ناقته وصاح يا هلا بوجوه العرب وتقدم لمساعدتهم ونفوس في المريض فاذا من امرأة في حدود الاربعين قد بلغت حد الثايف وتولاها الصعف حتى لا يجالها الناظر الا مبتة . فعرض عامر نفسه للخدمة فانارت اليه النناء ان لا يدس من المريضة لانهم انما يريدون حملها بانفسهم على اذرعهم ففتحوا وامر اولاده ان يساعدوا الخدم في نصب الخيم وانتزال الاحمال وسقاء الحمال والافراس وغير ذلك وسار هو الى المسجد للاذان والصلاة

فاستغل الركب في نقل المريضة واكثرهم عناية في ذلك النناء واسمها اسماء . فانها لم تغفل عن اعداد كل وسائل الراحة في نقلها حتى حملتها على ذراعها . ولا عجب فان المريضة والدتها وقد شمت على حبا . واما الكهل فهو زوج المريضة واسمها يزيد وكان قليل العناية في امرها الا بما توجوه اليه النناء . واما الشاب الحسن البركة فاسم مروان وكان الاعجاب ظاهراً على وحيوه لما بعلمه من تنوذه لفراسه من الخليفة عثمان بن عفان

### الفصل الثالث

— ﴿ عذراء قریش ﴾ —

فلما نقلت المريضة الى فراشها جلست اساء الى جاسب رأسها واخذت تمسح لها العرق عن وجهها بمديها والام غائبة عن الصواب واحا . شاخصة اليها والدموع مله عينها ولكنها كانت تجلج وتصبر نفسها فتغرق أسنانها ثللاً يغلب البكا . عليها تسع والدتها تحبها فيزداد تألمها . فكانت تمسح دموعها بالمديبل خلصة ونظرها لا يتحول عن وجه المريضة لحظة لا تلتفت بمة ولا بصر . وكان الليل قد سدل غابة فجاءم عامر بمصباح ادخلوه الخيمة والنساء لا يبهها الا النظر الى والدتها لعلها تنفخ عنها او تحرك شعيتها

أو تنس أمراً فتقدمه إليها لا نعباً وبالدها ولا بذلك الشاب الذي قطع البراري والفتار في خدمتها لعله يكتسب قلبها وهي تكرر أن تراه . وكان قد طلب الاقتران بها منذ كانوا في الشام فرضي الوالد ولم ترض الوالدة ولا النناء . والوالد انما رضي بذلك رغبة في الدنيا وطمعاً بمنصب بناله من الخليفة عثمان بواسطة مروان اذا صار صهراً له . ولم يكن فيه حق الوالد لأنه يعلم كما تعلم امرأته نفسها ان تلك النناء ليست ابنة ولكنها لم يكن يعرف والدها لأنه تزوج أمها سبية من سبابا مصر يوم فجعها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة واساء في السنة الثانية من عمرها . فلم يكن بهمة معرفة والدها وبعد فجع الاسكدرية عاد الى الشام فأقام فيها مع أقاربها من بني أمية فلم تلد له أولاداً

وكان يزيد كهلأ أشمط الشعر قصير القامة خفيف العضل متعبد الوجه غائر العينين طامعاً بحسب المال فوق كل شيء سبي الخلق لا ذمة له ولا ذمام . وكان أهل الشام يعتقدون ان اسما ابنة ولكن الناقد يرى لا أول وهلة انها تختلف عنه خلقاً وخلقاً فقد كانت من الهبة والجمال . على جانب عظيم جمعت لطف النساء وحزم الرجال وشجاعتهن لا يستطيع الناظر اليها الا ان يحترمها واذا خاطبها آس فيها رقة وانفة ودعة وعزة . وكانت ربيعة القوام ملائمة الجسم حنطية اللون سوداء العينين حادتها طويلة الاهداب مقننة الحاجبين صغيرة النم سهلة الجبين عظيمة الهبة لا يستطيع الناظر اليها أن يتفرد في ملامح وجهها لعظم هبتها فاشتهرت بين أهل الشام بكل خلق حسن فأحبها مروان وجعل يتقرب منها وهو يحسب تقربه منة وكرماً وكان يظنها لا تلبث ان تعلم يبيلو حتى تطير فرحاً لأن حالها من الدنيا يحبط عن حاله كثيراً فهي من عامة الناس وهو ابن عم الخليفة عثمان . وكان هذا الخليفة كمالاً يخفى بؤثر ذوي قرابته من بني أمية ويقدمهم في مناصب الدولة ويتخ لهم أبواب الرزق الا امر الذي آكل الى قيام المسلمين عليه حتى تحدثوا في عزله وكانت التنة المشهورة . وما زال مروان يتردد الى منزل يزيد وكلاهما من بني أمية فيجتمعا يزيدو ويودلو أنه يتزوج ابنة فيعطي لدى الخليفة بمنصب رفيع حتى حدثه مروان في ذلك فاجابه وأكد له انه نائل النناء لا محالة اعتياداً على عادة تلك الايام في أمر الزواج فقد كان الرأي راجعاً الى الوالد في كل شيء

ولكنه ما لبث ان خاطب امرأته في الامر حتى آس منها اعراضاً واباه ولكنها لم

تكن تعارضة دفعة واحدة بل كانت تدفعه وتماطله . وإدركت التناؤ ما بينها من أجلها فظهرت نورهان من مروان لأنها لم تكن تعتد بزخارف الدنيا ولكنها كانت مهوى الشهامة وكرم الأخلاق فلم يقع مروان من نفسها موقعاً مقبولاً فتمكنت الوالدة من الرفض ويزيد يزداد المحاحا . فخافت ان يستعمل العنف في تنفيذ ما ربه فوقعت في حيرة ولشدة ما قاسته من المقاومة أصيبت بالحس ووهنت قواها فخافت الموت فطلبت ان يحملوها الى المدينة فقببهم الى طلبهم هناك فجبوا لتقصدها أما مروان فسر لذلك السفر لأنه اذا جاء المدينة كان بالقرب من ابن عمه الخليفة عثمان فاذا عادت الوالدة الى التردد هدهدا بنضيو . فجاؤا في قافلة ومعهم الخدم من رجال مروان فكان ذلك السفر سهياً في اشتداد المرض وإسائه لا تعلم السر في ذلك الانتقال . فخلت ذات يوم بوالدها وعاتبتها على ما حملت نفسها من المشقة فأسرت اليها انها انما تنوي الالتجاء الى علي بن أبي طالب لعله ينقذها من أيدي الظالمين لما اشتهروا من غوث المظلومين وماله من المكانة عند الخليفة وغيره من المسلمين . وما زال المرض يشتد بها يوماً عن يوم وزوجها ومروان يودان ان تقضي نحبها قبل الوصول الى المدينة لأنها تتسأ شيئاً من حقيقة غرضها فكانا يطيلان مدة المسير ويودان القافلة في طرق طويلة وفي جملة ذلك مرورهم بقباء وهي في الجنوب الشرقي من المدينة (١)

فبعد وصولهم اليها اشتد المرض عليها حتى غابت عن الصواب وكان النهار قد انقضى فانزلوها هناك كما تقدم

## الفصل الرابع

— سرّ ذاهب الى القبر —

وكانت تلك المريضة كهلة في نحو الاربعين من عمرها يضاء اللون رومانية الملامح كبيرة العينين اسمها مريم وقد زادها الضعف مجوحاً وما انفكت منذ نقلوها الى الفراش وهي في سبات عميق وإسائه الى جانبها ويدها المتدبل تمسح به جبين والدها وتمسكت به دموعها لا تأذن لاحد ان يأتي بحركة لتلاذذ النائمة . ولكنها لم تكن

تستطيع التفرس في ذلك الوجه المنفع ونبتك العيين المجاحظنين والشفتين المكثرتين،  
والعنى المستدق وقد غطاءً من الجمانين شعر اسود بخالطة بعض النيب فلما بلاه  
عرق الحمى تجمع خصلًا متلاصقة . وما كان يجنيها بنوع خاص ذلك الصدر الذي  
يكاد يكون غائرًا لفرط الضعف وذلك الثم الذي اتسع واستطال حتى برز فكاد  
واستدق الانف وظهر بارزًا . فلم تكن اسما . شأمل ذلك حتى يخرج قلبها ويخاف  
الموت على والدتها في تلك البرية فكانت تعدد الى بعدها فتجسسها لتتخفق حرارتها فتزد،  
العرق البارد ينسكب عن اناملها فتزعمد فرائصها . وما زادها بلاه وشقاء ان والدها .  
برح منذ تزولم هناك مخليًا بمروان في خبئو لا يدخل خبئة امرأته الا قليلاً فاذا دخل  
نظاها بالاهتمام وسأل عنها والمكر والرياء ظاهران على وجهه . واما مروان فكاد،  
اذا دخل الخبئة دخل منجترًا لا يدنومن الفراش ولكنه ينظر الى اسما . وبينهم كأنه  
يداعها وهي لا تستطيع الاتسام ولا تطبق النظر اليه

فلما كان العشاء حركت النائمة رأسها ونفتت عينيها وحولت حدقتها نحو اسما .  
وقد بهتتا من شدة الضعف فهتت الفتاة واقفة وكلها آذان لتتلقى أوامرها وسألها اذا  
كانت تحتاج الى شيء فاشارت تطلب الماء . فاسرعت الى قده فيه ماء ادته من  
شفتيها فشربت منه قليلاً فانبط وجه اسما . وعاد أملها اليها واتصبت تنتظر ما تأمرها  
به فلما لم تقل شيئاً انحنت على جبينها فقبلته وامسكت يدها بلطف وقالت لها هل  
تريدين شيئاً يا أماء

فاجابها بصوت ضعيف وعيناها شاخصتان اليها قائلة « لا لا اريد شيئاً غير  
سلامتك ولكنني اراني لا استطيع الوصول الى المدينة ولا اظني اعيش الى الغد فقد  
شعرت بدنو الاجل » قالت ذلك والدموع تساقط من عينيها فتخلط بعرقها  
فلما سمعت اسما . كلامها ورأت دموعها اقمشراً جسمها وحقق قلبها ولكنها تجلجت  
وتظاهرت بالاتسام قائلة لا سمح الله بسوء بصيبيك يا أماء فانك ستصحين في خير  
فتركب معاً الى المدينة ياذن الله

فنسبت نسباً بمازجة بكاء وقالت « لا يا ولدي لا ارجو بقاءه الى الغد وما انا  
آسفة على هذه الدنيا ولكن في نفسي امرًا اود قضاءه قبل الوفاة »  
قالت اسما . وما هو ذلك الامر يا أماء

قالت هو ان النبي بعلي بن ابي طالب فاخطبه دقيقتين قبل الموت  
قالت غداً يلقي بـ في المدينة فخطبته

قالت « قلت لك اني لا ارجوان ارى صباح الغد باولادي »

فهمت اسماء بالدنيا لتدلها وهي تحاول حبس الدمع فضمها مريم الى صدرها  
بوق لم تكن اسماء نهدها فيها وعانتها فتساقطت دموع اسماء بالرغم عنها ثم احسبت  
بدموع اسماء تساقط على عنتها صيحة تمارج ذلك العرق البارد . فاولغت كئناها في  
ابكاء . واكن اسماء خافت على والدتها من الاذى فهضت وتظاهرت بالتجلد وقالت  
لا بأس عليك يا اماء فهل تطلين علياً لتطايرو بشأني

قالت نعم وبشأن آخر هو سر حفظه في ضميري اعواماً طويلاً وقد آن لي

ان ابوح بـ

فقالت ما العمل اذا

قالت استقدموني اليه فقولوا له ان امرأة على فراش الموت تثمس لثهاك لتبكت

مرآة وتشكو لك امرآة

فذهبت اسماء الى الخارج فرأت والدها ومروان واقفين بازاء نخلة في الظلام  
كأنيهما يساران فلما رأياها خارجة اسرعا نحوها معاً وقالا كيف والدتك لعلها في خبر

فاجابت اماء قد افانقت وطلبت ان ترى علي بن ابي طالب

قال والدها وكيف يمكن ان تراه الآن وهو في المدينة

قالت لقد طلبت استقدامه اليها بالحاج

قال مروان استقدامه !! ومن يستطيع ذلك

قالت اظنه لا بأني العبيء اذا قبل له ان امرأة في حالة الالف تثمس مقابلتك

وهو في ما اشهر بـ من كرم الاخلاق

قال لا انكر كرم اخلاقه ولكنه الآن في شغل كبير من حال المسلمين واختلافهم

على الخليفة

قالت واي اختلاف

قال سمعت قبل خروجنا من الشام ان اهل الاعمال ناقمون على عثمان لانه يؤثر

ذوي قرابتة فهو يولي المال منهم ويهزل الدين ولايم اسلافه . وبلغني ان اهل

مصر خرجوا ينتمون المدينة لشكوا امرم الى علي لعله يتوسط في ما بينهم وبين عثمان . وكذلك فعل أهل البصرة وأهل الكوفة وأظهروا وصول المدينة الآن فإذ وصلوها كان علي في ساعل لا يأذن له بالخروج

قالت وقد مات الجدال ان والدتي تطلب علياً بالحق فاعلينا ألا ان نبعث في طلبه قال فلبعث واحداً من رجالي واذهب أنا في أثره استجمل في انفاذ المهمة . قال ذلك وأمر واحداً منهم ركب واسرع نحو المدينة ثم ركب مروان في أثره وعادت اماءه الى والدتها فإذ هي قد عادت الى القبوة واستغرقت في السبات

فمكثت ساعة في انتظار الرسول فلما استبطأ ثأ برحت الخيمة ونظرت نحو المدينة والضلام حالك فلم تر احداً فصعدت الى مرتفع اشرفت منه على ابنة المدينة عن بعد فلم تر منها الا المسجد النبوي لما فيوم من الانوار التي تشعشع في بعض جوانبه ولولم تصعد الى ذلك المرتفع لم تشرف على المدينة لانها قائمة في منبسط من الارض تحرق بها جبال تنحدر منها السيول على اثر الامطار فيصبح السهل المجاور لها مستنقعات وآباراً تجتمع فيها المياه مدار السنة وتنفو حولها اشجار الصفصاف والبساتين والظهل وكثير من الاعشاب . فلما اطلت اماء على المدينة ظهر لها ما بينها وبين قباه من مجنعات المياه وقد انعكس على سطحها اشعة الكواكب ضئيلة لبعده المسافة غير ان ذلك لم يكن ليشغلها عن هواجسها في مرض والدتها فعادت مسرعة الى الخيمة فرأت بزيها قد توسد الارض خارج الخيمة ونام فأسفت لما رأت من قلة اكرتازو وضعف احساسو . لكنها لم تستغرب ذلك والدتها صرحت امامها غير مرة ان هذا الرجل ليس والدتها اعزبني وكانت اماء تلوح في استطلاع اسم والدتها وامها نعتها بالجواب من وقت الى آخر . فلما رأت ما بلغت اليه والدتها من الضعف في تلك الليلة خافت اذا اصابها سوءه ان يتي والدتها الحقيقى مجهولاً عندها فدنست من فراشها وهي لا تزال غائبة فامسكت يدها الباردة ولمست جبينها الرطب بما ينساقط عنه من العرق فاضطرت جوارحها وخافت ان يصب والدتها سوءه وم في ذلك القدر واستنكت . تخاطب والدتها في الامر احتشاماً له فهتمت بالخروج لاستفهام خادم الجامع لها لتسأله عن امره فاستأنس بها فرأت والدتها تحرك رأسها وترفع يدها كما بها تشير اليها ان تدنو منها فدنست وهمت بها فقبلتها وقالت ماذا تريد من اماء

قالت ألم يأتي علي بعد

قالت لم بعد رسولنا

قالت أخاف أن لا يعود وقد ندد صبري وخارت قواي . استقدموا علياً قبل ان  
تتوت الفرصة

فقالت لا بليث علي أن يأتي . ألا تسوحن لي بما تربدن ان تقوليو له . ألم بأن  
لي أن أعرف من هو والدي

قالت سترقبه متى جاء علي . ثم نهدت وقالت آه متى يأتي

## الفصل الخامس

### — المدينة المنورة —

فلما سمعت أسماء ذلك ثارت الحمية في رأسها وملت الا تنظار مع ما نعلت من  
غرض مروان فخافت ان يكون ذهابه في أثر الخادم سباً في ذلك التأخير والوقت  
ثمين فعولت على المسير بنفسها وهي لم تدخل المدينة قبل ذلك الحين ولكنها استسهلت  
كل صعب في سبيل مرضاة والدتها مع شدة رغبتها في استطلاع ذلك السر فندت  
الكوفية حول رأسها وتامت بها حتى لم يبق ظاهراً الا عيناها وترملت بالعباءة فوق  
لباها فأخفت رداءها السائي وركبت جوادها وكانت لا يرال مسرجاً وأبغضت  
والدها وأوصته بوالدها خيراً وهمت بالخروج فلم يضاوعها قلبها خوفاً على والدتها  
فوقفت مغبرة ثم تذكرت خادم الجامع فسارت اليه وكان قد فرغ من الصلاة فسألته  
عن امرأتها فقال هي في خدمتكم وناداهما فجهات ماذا هي عجوز ولكنها نشيطة سمحة  
الوجه فاوصتها ان تساعد والدها في السهر على والدتها في أثناء غيابها وخرجت ولم  
تخبر والدها لئلا تمنها من الذهاب واتخذت اوار المسجد النبوي وجهتها وهزمت الجواد  
وكان من اصائل الخيل فجرى وهو نارة بنفوس في مستنقع وطوراً يمدد على أكد وهي  
لا ترى شيئاً لفرط قلبها واضطرابها الا اشباح القمل والبلسان وربما حديثها لسرعة جري  
الجواد انها سائمة ضروما . وكانت كلما سمعت قرعة او صليلاً تحسب رسولها عائداً لم لا

ترى أحداً وهي بالحنيفة لم تسمع إلا يهيق الضنادع وصرير الصراصير ووقع حوافر الفرس حتى دنت من سور المدينة وأعدت إلى بابها فدخلت منه إلى أسواق ضيقة متعرجة لا يكاد الفرس يستطيع المرور فيها " فرأتها على ضيقها مزدحمة بالناس وأكثرهم من الغرباء. فعلت أن ما قاله مروان صحيح فسألت رجلاً يبيع النمر عن منزل علي فدلها عليه وهو يحسبها رجلاً فهزمت الجواد وأسرعت فلم تبلغ باب المنزل حتى كبا جوادها فسهطت وكادت تصيب حنثها فاستلقت الأرض بيديها وإصاب رأسها نخلة قائمة أمام الباب فهشم قليلاً ولكنها لم تنال بل نهضت وأمسست باب المنزل ولم تنكد تنكد حتى سمعت صريره فوقفت تنتظر فمخج البها منه شاب طويل القامة لم تدين وجهه لعدو الظلام وكان قد سمع كبو الجواد فأسرع نحو فرأى فارساً قد وقف وهو لا يزال مانئاً فاستقبله وسأله عن عمره وهو يظنه رجلاً

فقال أساء العلي مولانا علياً في المنزل

قال كلاً ليس هو هنا الآن ماذا نبغي منه وارى من لمتك وعجبتك انك آت في أمر ذي بال فما خبرك

قالت نعم لقد جئت بأمر هام ولكني لا أقولك إلا لعلي بنفسه . ابن هو

قال انه خرج في الغروب إلى المسجد وقد مضت صلاة الغروب وصلاة العشاء ولم يعد فهل تذهب معي للتنبيه عن هناك

قالت نعم هلم بنا والجامع على مترية منها فمشيا وكل منها بتوقع الوصول إلى باب المسجد لرى وجه رفيقو في الضوء لعله بمعرفة . وكان الشاب أكثر رغبة في ذلك لأنه استغرب صوت أساء . ولم يتبين شيئاً من ثيابها لالتفافها بالعباءة والكوفية اما هي فمشت تنفود جوادها وراءها حتى وصلا الجامع فاذا هو مزدحم بالناس بين جاشه وإقف ولم يبق موقف لطفل وكلهم صامتون وقد تكاثفت اغناسهم وانبعثت من باب الجامع حارة ممتزجة بروائح أجسامهم وأنوابهم حتى لقد بشعر المار بالازدحام وإن لم ير الناس فلما وصل الرفيقان إلى الباب واستنارا بمصباح الجامع نظر كل منها إلى زميله لعله بمعرفة فرأت أساء . ان رفيقها رجل حسن اللباس يظهر من مجمل حاله انه من كبار العصابة وبعض اولادهم . اما هو فلم ير غير اللنام فاستغرب ثلتها والحشمة منعته عن التقرى

## الفصل السادس

- عثمان بن عفان -

وارادت اسماء الدخول الى الجامع فامتنع عليها المرور لكتفة الازدحام وعبية الاجتماع فوفقت عند الباب وهي على مثل الحجر والرفيق الى جاسها وقد تدمر من ذلك الانتظار فارتاحت لما آتته من شعوره معها وعلت ان الدخول الى علي يستقبل اذ ذاك فدعاها الرجل للاسراحة على البغلاء وهي مقاعد من الحجر أو الخشب أنشأها عمر بن الخطاب خارج الجامع يجلس عليها الناس للاسراحة أو العادة أو الماشقة فلم تستطع اسماء جلوساً لعظام قتلها ولكنها التفت مكاناً ترتبط فرسها فيه اذا اضطرت لدخول الجامع فأمر رفيقها غلاماً من بلنقاطون النوى في اسواق المدينة وهم كثيرون " ان يمكئ الفرس فاسمكة وساربه الى مواقف الخيول بين الأشجار هناك

أما اسماء فنظرت الى صدر المسجد فرأت على منبر رجل أربعة ليس بالطويل ولا القصير حسن الوجه لولا ما عليه من اثر الجدرى كبير اللحية عظيمها وقد صرّها بالحنا. اسمر اللون اصلع الرأس عظيم الكراديس عظيم ما بين المكين وكان واقفاً على المر " وقد نوكأ على سيف واجال نظره في الحضورم بالكلام مضرت اسماء الى رفيقها مستهتمة عن الرجل

فقال انه الخليفة عثمان بن عفان يخاطب في الناس

فقال المل هذا الجمع كله من اهل المدينة

قال كلاً بل هم وفود اهل مصر والبصرة والكوفة وقد جاؤا بشكون عثمان هذا ويندمرون من تصرفهم فشكوه الى علي فأنبه علي في هذا الصالح فاستدعاهم الى هذا المسجد ليخاطب فيهم واطنن ستمس لفسد عذراً فلنسمع ما بقوله

ف نظرت اسماء الى الخليفة وعيناها لا تقان عنده لتضعف حواسها فرأت بجاء رجلاً عرفت انه صاحبها مروان فقالت في نفسها بس الشاب هو لند جاء الى ابن عمي وسي المهمة التي جعل نفسه متبرعاً في انعامها. وجالت نظرها في الجمع متفرسة لعلها

تري علياً على انها لم تكن تعرفه فقالت لرفيقها ألا ترى علياً بين الجموع  
قال اضمني رأيتك . نعم اني اراه جالساً جثواً يهرب المنبر وقد أطرق ينكر .  
ف نظرت اليو فانا هو فوق الربعة ضم العضل جبل الخلفة وقد وخطه الشهب فلم  
يصبح شعراً وأنست فبو على شدة هواجسو ابتساماً ظاهراً في وجهه فشرعت عند رؤيته  
بارتياح<sup>(١)</sup> واستأنست بطلعتو وحديتها نفسها ان تخترق الجواهر اليو فاوقتها الحياء .  
وطلت انها اذا فعلت ذلك شوتت الاجتاع فضلاً عما في هذا العمل من الوقاحة .  
فلبتت تنظر فروع الخطيب من خطايو وهي كأنها على الجمر  
أما عثمان فانه اتصب كما تقدم وبناءً على السيف وهي ترنمش لعظم تأثره ثم  
مسح لحيته يسراً ومشط شعرها باصابعه والارتعاش ظاهر عليه لعظم الاضطراب .  
فحمد الله واثى عليه وصلى على الرسول ثم قال وصوته يتقطع :

« يا اهل الامصار قد جتم من البلاد البعيدة تطالوني بامور لم اكن انا الذي  
ارتكبتها وحدي فان صاحبي اللذين نوليا اموركم قبلي ( يريد ابا بكر وعمر ) قد  
ظلموا انفسها . وان رسول الله ( صلعم ) كان يعطي قرابته . وانا في رمط اهل عبلة  
وقلة معاش فسطط بيدي في شيء من ذلك لما اتوم يو فيو فان رأيت ذلك خطأ  
فردو فامري لامركم تبع . واما ما تريدونه من التنة او الخلع فانكم قد اسرعتم في ما  
عزمت و والله لئن فارقتكم الا لتتمون ان عمري كان عليكم مكان كل يوم سنة لما سترون  
من الدماء المسفوكة والاحن والائمة الظاهرة والاحكام المغيرة<sup>(٢)</sup> »  
وكان علي<sup>ؑ</sup> في اثناء الخطاب مطرقاً مصغياً لا يبدي حراكاً حتى اتى عثمان على  
الثقة الاخيرة فحرك علي<sup>ؑ</sup> حاجبيه وحنى رأسه تصويماً لقوله « لما سترون من الدماء  
المسفوكة الخ . . . »

واما اسماء فلا نسل عن قتلها ومللها وكان رفيقها واقفاً الى جانبها وقد شغل عنها  
بما نار من عواطفه عند سماعه كلام عثمان ومال بكليته الى افهام رفيقه المثلث جلبة الخبر  
تشفياً من عثمان . ولكنه اراد قبل ذلك ان يعرف من هو . فتقدم اليها ان تحسر  
الثام فاجابت انها ستحسر بعدئذ . فنسم من لعينها صوتاً نائياً ولكنه استكبران بظهور  
في النساء مثل هذه الهمة . فصبر نمة ريفياً ينقض الخطاب وقال لها « اراك يا سيدي

خالي الذهن من مغزى كلام الخليفة ولكي تنهته اوضحه لك باختصار . فاعلم ان خليفتنا هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة وحالما تولاه عزل الولاة الذين كانوا قبله من ولاء الامام عمر (رضه) وولى مكانهم رجالاً من بني امية ابي من اقراره ووسع ابواب الرزق لاهله وضيقها على سواهم فنار المسلمون في الاعمال (الولايات) وم اهل مصر والكوفة والبصرة اما اهل الشام فابهم على دعوة عثمان لان عاملهم هو معاوية بن ابي سفيان من اقرباء الخليفة واما اهل الامصار الثلاثة الباقية فتقموا على هذا الرجل وجاراً في رجالهم بطالبونه بما اقترفه ويطلبون خلعه وتولية غيره مكانه . ولا يلبق بالخلافة من هؤلاء جميعهم الا علي بن ابي طالب فانه ابن عم النبي (صلم) ووصيه . ولكن بين الصحابة الذين يطعون بالخلافة الآن اثنين آخرين هما طلحة والزبير . فالخلافة اذا خلع عثمان تنازعها ثلاثة علي وطلحة والزبير فوفد مصر يريدونها لعلي ووفد الكوفة يريدونها للزبير ووفد اهل البصرة يريدونها لطلحة ولكنهم متفقون جميعاً على خلع عثمان هذا . واما علي فلا رغبة له في الخلافة ولكنه يخاف الفتنة بين المسلمين بسبب ذلك الخصام «

وكانت اسما تسمع كلام رفيقها وهي لا تفهم منه شيئاً لعظم اضطرابها ولكنها لم تكن ترى بداً من الصبر لان عثمان لا يزال يتكلم . وما اتم عثمان كلامه حتى ضج الناس فعلمت انهم خارجون فعمدت الله على فراغها فتفتحت ربتها فخرج الجميع وقد شاعت عينها وهي تنفّس في الجماهير لعلمها ترى علياً خارجاً معهم . فخرج الكل ولم تر علياً بينهم فتولت نحو الجامع وكان رفيقها قد سبقها اليه فوفقت تنظره فعاد وحده فلما استقبلها سألتها هل رأت علياً خارجاً فقالت انها لم تره فعمل بحث بين الناس وسألهم عنه فلم يجزوا غيره احد

## الفصل السابع

﴿ الحجرة النبوية ﴾

فعاد الى الجامع وقد خلا من المصائب واخذ الحذمة في اظفار المصاحح فعمات اسما ان يمنعها من الدخول ولكنهم لما رأوا رفيقها ومعها لما فعلت انه من كبار القوم

فدخلنا صحن الجامع ومنه الى المسجد . فرأت المكان خالياً فوقف الرجل ووقفت  
اساءه وجعلنا يتكران وبعد برهة قال الرجل « أظنه دخل حجرة امرأتى فاطمة بنت  
النبي ( صلعم ) فانها مدفونة في حجرة بازاء هذا المسجد وكثيراً ما كنا نراه يدخلها  
لزيارة ذلك الامر الشريف فلا بد من الانتظار ربنا يخرج »

فقلت لا صبر لي يا مولاي على الانتظار دعني أدخل البو وأخطأه فان الامر  
الذي جئت من أجله يستدعي العجلة وهب اني أسأت الادب في استجوابي فبني عرف  
السبب عذري . دعني أدخل الحجرة

فاجابها بصوت خافت « تهمل يا صاح لنا كد دخوله اليها » ومشيا المرينا وهما  
حافيان لا يسمع لشيئها وقع حتى انفلا من المسجد الى الحجرة من باب صغير . والحجرة  
بنا ١١ مربع وأعلى السقف في وسطه ضريح السيدة فاطمة . وكان شديد الظلام الا مصباحاً  
ضئلاً كان مبراً فوق الضريح . فدخلنا الحجرة بتأسان والرجل مسك يد اساءه  
وهما داخلان واعينها مملقة بنفسان وقد أصغيا والسكوت سائد على ذلك المكان  
مع ما يعلو من الهيبة وقد زاده الظلام رهبة فوقنا لحظة لعلمها بسمعنا خطوة او نطقاً  
او هريان شيئاً فلم يسمعا شيئاً . فهالما الموقف ولم يجرأ احد منها على الكلام ولكنها  
تفاهما بالاشارات على الرجوع وفيها ما يتحولان سمعا صوتاً عميقاً كأنه خارج من القبر  
فاقتصر بدناهما ووقف شعراً رأسيهما والرجل لا يزال قابضاً على انامل اساءه . فلما سمعا  
الصوت شعر بازعاش تلك الانامل شعوراً امتد الى كل جوارحه فأوما اليها ان  
تصت فانصتا فاذا بالصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة وبينها  
حائط واصغيا فاذا هو صوت علي بن ابي طالب يتاجي الرسول بصوت يتخلله تحرقق  
وزفير . فوقنا وقلباها بخفتان وهما يسكان انفسها كأنها بخفتان ان يتخلط زفيرها  
بها بسمعان . واليك ما سمعاه :

« قم يا رسول الله تعهد أمتك وانظر الى ما آلت اليه حالها من بعدك لقد  
بعثك الله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا  
يؤذي نبي وقد كانوا على شر دين في شر دار يشربون الكدر وبأكلون الجشيب  
ويعبدون الاصنام ويسكنون الدماء ويقطعون الارحام . فسنت الناس حتى نزل عليهم  
معلمهم وياقتهم مخباهم فاستغفمت قلوبهم وأطاعت صفاتهم . وجعل الله الاسلام أمناً لمن

علفه وسلماً لمن دهلة وبرهاناً لمن تكلم به وشاهداً لمن خاص به ونوراً لمن استضاء به  
 وفهماً لمن عقل ولباً لمن تدبر وعبرة لمن انعظ ونجاة لمن صدق وثقة لمن توكل . فقام  
 بتصريف قوم دُعوا الى الاسلام فليوبه وقرأوا القرآن فاحكموه . قوم لا يبشرون  
 بالاحياء ولا يعززون بالموتى . من العيون من البكاء خصص البطون من الصيام ذبل  
 الشفاء من الدواء صفر الالوان من السهر على وجوههم غيرة الخاشعين . وقد كتبت  
 يا رسول الله تأكل على الارض وتجلس جلسة العبيد وتغصف نعلك بيدك وترقع  
 نوبك بيدك وتركب الحمار العاري ولقد يكون السر على بابك عليه التصاوير  
 فتقول يا فلانة من ازواجك غيبوه عني فاني اذا نظرت اليو ذكرت الدنيا وزخارفها .  
 وكتبت يا رسول الله اذا احمر الباس واحجم الناس نُذمت اهلك ففني هم اصحابك  
 حتى قتل عبيدة بن الحارث يوم بدر وقتل حمزة يوم احد وقتل جعفر يوم  
 مؤتة <sup>(١)</sup> . هذة هي سنك وتلك هي قدوتك . فلما فارقتنا خلفك شيخ ( ابن  
 بكر ) حارب المرتدين وأبد الدين التوم وخلفه رجل فبح الامصار ودوت  
 الدواوين وشاد للعدل مناراً فاعتز به الاسلام وامتدت رابطة على العراق وفارس  
 ومصر والشام وفر من وجهه كسرى وقبصر . والناس يوشنوا بمجنون حول الدعوة  
 آخذون بناصرها بقلب واحد ورأي واحد حتى تولام عثمان وهو شيخ صادق الاسلام  
 ولكفة استأثر بالسلطة وأثر اهله على سائر المسلمين فقاموا عليه قومة رجل واحد <sup>(٢)</sup>  
 وتجمعوا على نهد طاعنه وأقرهوا على خلعوا لا ترهبهم خلافته ولا يخشون سطوته . كأن  
 الناس انما أذعنوا لأهل السابقة من الصحابة لما كانوا فيه من الدهول والدهشة لأمر  
 النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحصر ذلك العباب وتوسى الحال واستفحل  
 الملك أنفت نفوس المسلمين من غير قریش وهان عليهم نهد طاعة الصحابة <sup>(٣)</sup> حتى  
 بلغ من جرأتهم التمرد على الخليفة فعظمت الفتنة وخنت ما خوت فتبوء يوم سألتك عن  
 الفتنة فقلت لي « يا علي ان القوم سينتفون بعدي باموالهم ويمتوت بدنهم على رهم  
 ويمتوتون رحمة وبأمنون لسطوتو ويمتوتون حرامه بالشبهات الكاذبة والاهواء  
 الساهية » . آه يا رسول الله ولقد طالما نصحت لهذا الخليفة ان لا يكون امام هذه الامة  
 المنقول فانه كان يقال « يُقتل في هذه الامة امامٌ يفتح عليها القتل والتنازل الى يوم

القيامه وبإس امورها عليها وببیت الفتن فيها « ولكنه انصاع الى شاب من اهل قرابتو ( مروان بن الحكم ) بسوقه حيث شاء بعد جلال السنين وتقضي العمر »  
 فلما بلغ علي الى هذا القول تهدي تهدياً سمعا زفيراً ثم بكى بكاءً تطلع له قلباها وهما لا يكادان يصدان انها يسمعان علياً بكى فبهنا وهما بحسبانته بهم بالتهوض ثم سمعاه يقول  
 « هذه هي حال أمك يا رسول الله . فاني اشكو اليك قوماً اقتربوا بعد النهم ونشئوا عن اصلهم فكل منهم آخذ بغصن ابنا مال مال معه حتى اصحبت الاحوال مضطربة والابدي مختلفة والكثرة متفرقة اما ابناك صنيك ( فاطمة ) النازلة بيجوارك بضائر أمك على هضمها . واني اخاف ان أمك وبكا والحال على ما وصفت فاستعجب ان احمل اليك خبر هذه الفتن التي اخافها في ترق كلفة الاسلام . فادع لنا ربك أن يجمع كلمتنا ويهلم شعنا وباخذ بناصرنا فنعلم مكان الخلافة منا والسلام عليك حتى لتفي »

## الفصل الثامن

— ﴿ كتاب عثمان ﴾ —

ثم سمعاه يقول الناعة فعلم انه يتأهب للتهوض فاسرعا في التفتيح حتى خرجا من الحجر الى المسجد وخرجا منه الى البطحاء وقد خف الازدحام لتفرق الناس الى منازلهم فوقنا ينتظران علياً فقال الرجل اظنه لا يخرج من هذا الباب فلتقف له بالباب الآخر فنادى بالغلام قائد الفرس فتبعها ومشيا وقد نفذ صبراسا . وانتهكها الملل . ولم يمشيا قليلاً حتى لثيا علياً خارجاً من باب الجمامع ومنذله لا يزال في يد يمسح بوعينيه وجبينه ثم جعل يصلح عمامته ويسرح لحية باناملو ويمشي الموبنا . كانه عائد من سفر طويل  
 فتقدم الرجل اليه وحياه فقال علي مرحباً « بان ابي بكر اهلا بك يا محمد ما الذي جاء بك » . فقصت اساءة ابي محمد بن ابي بكر وكانت تسمع بوعينيه . قال لقد جئت بك بقدام غريب قد انهكته الجح . قال لما ذالم تنزله في دار الاضياف . ابن من فقدت اساءة والقت النجبة وهي لا تزال ملهية وقد التفتت بالعبادة

فنظر علي<sup>ؑ</sup> اليها فعلم انها متسكرة لا مرذية بال فقال لها ما عرضك يا اخا العرب  
قالت لقد جئت أدعوك لغوث امرأة مريضة في حالة الخطر الشديد تلمس ان  
تراك لتبيت لك سرًا ضمنت يو علينا جميعاً

فقال ومن تكون هذه المرأة

قالت هي والدتي واما والدي فهو من بني امية وقد جئنا بها من دمشق فعملت  
مشاق السفر والمرض على أمل ان تبلغ المدينة فتطلمك على ذلك السرفاشند عليها  
المرض حتى لم تعد تستطيع الوصول

قال ابن هي الآن

قالت هي في قباء على مقربة من هذا المكان

قال هيأ بنا اليها . هل ترافقنا يا محمد

قال اني في خدمتك حيثما سرت واذا رأيت ان افوم بهذا الامر دونك لما انس  
في من الشواغل الكثيرة فعلت فتبقي انت هنا

قال لا بأس من ذلك ولكنني اخشى ان يكون حضوري عندها ضرورياً وهي  
يا محمد امرأة في حالة المرض الشديد يجب علينا عيانتها . قال ذلك ومشى ومشى  
الانسان في أربع ومحمد ينظر الى اسما خلسة لعله يستطلع شيئاً من امرها . وهي تطلب  
الى الله ان يجعل علي<sup>ؑ</sup> في الخيطى ولكنه لم يمش قليلاً حتى لقيه رجل مهول وعليه  
امارات البغته . فقال له علي<sup>ؑ</sup> ما وراءك يا غلام

قال لقد عاد المصريون الينا بعد خروجهم

فقال وكيف عادوا وقد عهد نام راضين بها وعدم يو الخابنة من الاصلاح

قال لا ادري الا انهم عادوا الينا غضابى وهم يتظرونك في فناء دارك

فقال علي<sup>ؑ</sup> لا حول ولا قوة الا بالله . وسار وهو يهز رأسه وينظر الى محمد وكان

محمد في مثل حاله من العجب لما سمعه . فقال علي<sup>ؑ</sup> ما بال هؤلاء القوم لا يرمحون لنا  
بالا اني ارى مشكلتهم هذا لا تفعل الا بنتنة تأول الى النشل فوالله انهم يرمون امرأة  
عظيماً اخشى عليه اختلال الحال

فقال محمد لا يفلو رجوعهم من امرذية بال . وأسرع حتى أتيا بيت علي فرأيا

الناس عنده بايو زرافات ووجدتاً بين فارس وراجل وقد طلت ضوضاؤهم فله

أشرف علي<sup>ؑ</sup> عليهم ترجل الراكون ومرول الواقنون نحو<sup>١</sup> وفي مقدمتهم رجل لا يزال  
 شباب السفر شعباً علياً فرد<sup>٢</sup> النجعة وقال له ما الذي عاد بك البنا وكنا قد فضضنا  
 الخلاف بينكم وبين عثمان ورددكم خيراً

قال انه لم يعدنا إلا خداعاً - قال ذلك ومدّ يده فاستخرج انبوبة من الرصاص  
 فتناولها علي<sup>ؑ</sup> وشى الى مصباح مضي عند باب الدار ونظر فرأى فيها صحيفة من  
 جلد استخرجها وقرأها فاذا هي كتاب من عثمان الى عامله فصر بأمر فيها بجلد زعامة  
 المهربين الذين قدموا المدينة لمعاوية وحسبهم وحاق لحام ورؤوسهم وصلب  
 بعضهم<sup>٣</sup> ففت علي<sup>ؑ</sup> لذلك وتأمل الصحيفة فاذا في ذيلها ختم عثمان وكان يختم  
 كتبه بهذه العبارة « لصبرن اولئدمن » فغنى انه ختمه فقال وما الذي اظنرك  
 بهذا الكتاب

قال برحما المدينة بالامس علي ما وعدنا هذا الرجل من الاصلاح وصدعنا بامرک  
 فلم تكد تخرج حتى لغينا غلام عثمان علي بعور من اهل الصدقة فتشنا متاعه فوجدنا فيه  
 هذه الانبوبة وفيها هذه الصحيفة

فقال علي<sup>ؑ</sup> انا لله وانا اليه راجعون ما بالنا لا نكاد نرتقي فقفا حتى نرى غيره<sup>٤</sup>  
 ما الذي غير عثمان وحمله على هذا العمل

فقال محمد بن ابي بكر انها فعال مروان بن الحكم ابن عمو فقد كان غائباً في  
 الشام ولم يأت المدينة الا في غروب هذا اليوم ونظف هو الذي اغرى عثمان  
 على ذلك

فتأفف علي<sup>ؑ</sup> وقال تباً لهذا الغلام انه لا يدل الا الى شر<sup>٥</sup>  
 فلما سمعت اسماء ذكر مروان عرفت انه هو طالها ورفيق سفرها فازدادت كرهاً  
 له وقالت في نفسها قبحه الله انه لا يبرح عنده في طريقنا وانفتحت ان ذلك سيكون سبباً  
 في عدول علي عن السير معها فكشفت محبتها

فقال لا تخف يا صاحب انا منجدوك - ومخاطب علياً بدأها فقال له اني  
 احاف اذا برحت المدينة في هذا الليل ان يقع ما نندم عليه سر ما محمد مع هذا  
 النزول وافعل ما تراه ولم علي في كل خير يرجوه وعد الي بالخير

فلم تعد تجرأ اساءه على الاحماج فقتعت بما وقع مخافة ان يقع ما هوسرتمه فالتفتت الى فرسها فاذا بالغلام يتودد وراءها فتهبأت للركوب . وبعث محمد فاستقدم فرسه وركب الاثنان ومحمد ينظر اليها وهي تركب لعله يرى بعض ثيابها تحت العباءة اذناه الركوب فلمح من ثوبها شيئاً احمر اللون يشبه ثياب النساء ولكنه ما زال مستبعداً صدور تلك الجسارة عن امرأة

واغار الاثنان يلتمسان قباه لا يكلم احدها الآخر ولكن محبداً كان شديد الميل الى معرفة حقيقته رفيقاً بعد ما اشتهر به من حاله . فخرجوا من المدينة والظلام حالك وبعد هنيهة اشرفا على قباه . فلما اطّلت اساءه على خيمة والدتها عرفتها من النار المضيئة خارجها فحنق قلبها مخافة ان يكون قد وقع في اثناء غيابها ما يوجب حزناً فهزمت الجواد فطار بها حتى سبق جواد محمد فاعجب محمد بشاقتها على منته . ولم يدركا الخيمة حتى خرجت امرأة خادم الجامع لاستقبالها فترجلت اساءه عند باب الخيمة وترجل محمد فدخلت وهي تحمل عقال كوفيتها وتنزع العباءة عن كتفها ودنت من سرير والدتها فاذا هي قد افافت وفحمت عينيها ونظرت الى اساءه باهتة وعيناها تنظران الى باب الخيمة كأنها تنتظر دخول احد وقالت ابن هو علي

فخافت اساءه اذا اخبرتها الحقيقه ان تحدث لها كدراً فزيد مرضها . فنالت لما انة آت يا اماء . واغرورقت عيناها بالدموع

اما محمد فقد كان في اثر اساءه يتفيس فيها على نور المصباح فلما نزع كوفيتها رأى شعرها من الورا . طويلاً مسترسلاً ثم نزع العباءة فبان رداؤها الارجواني اللامع وهو عبارة عن قفطان من الديباج عليه مطلقه من جلد عريضة تعودت لبسها في السفر فحنق انها فتاة فشرع باعجاب غريب ولم يبق بعد ذلك الا ان ينظر الى وجهها فاسرع في اثرها حتى دنا من السرير فاعترضه منظر والدتها . وحالما وقع نظره عليها هاله نحوها وفرط سقامها وامتناع لونها وشغوص عينيها ولكنه التفت الى اساءه فاذا فيها فضلاً عن الجمال هيبه وجلال كأنها في ملكة وجبار معاً فلم يتالك عن الاعجاب بها والاعتفاف اليها واحسن باحساس غريب نحوها

## الفصل التاسع

﴿ ضیاع السر ﴾ -

اما هي فقد كانت في شغل عن حالو بما هي فيه من الفلق على والدتها وكانت قد علمت قليلاً لما رأتها صاحبة وم ندمت على عودها بلا علي ولكنها ابنت ان هبته لم يكن مكدًا والناس في انتظاره عند منزله على تلك الصورة . ثم حولت مريم وجهها نحو محمد وعيناها شاخصتان اليه لا تحركان الا بكفة فلم تنفس فيه قليلاً حتى اسقطت دموعها على خدما . فلما رآها محمد تبكي انظر قلبه فحاطبها قائلاً كيف انت يا خالة

فقالت الست ابن ابي بكر

فلما سمع قولها افشعر جسمه واندرها قائلاً أجل اني هو وماذا تأمرين

قالت ابن هو علي

قال قد بعثني لانيوب عنه لانه في شغل هام فأمرني بما تريدن

قالت لا اريد احداً غير علي ادركوني و . لا اريد احداً سواه . قالت ذلك

وظهر الكدر على وجهها

فبعثت اسماه لما سمعت والدتها تذكر اسم ان ابي بكر وشعرت منذ سمعت اسمها

من فيها بارتياج اليه ولكنها نمرت لاصرارها على استفدام علي فقالت الا تزالين

نطلبين علياً

قلت لا ازال اطلبه نعم لا ازال اطلبه ادركوني يو فان في نفسي سرا لا ابوح

يو الآله ادركوني يو قبل انقضاء أجلي

ف نظرت اسماه الى محمد نظرة استحاث أثرت فيه تأثيراً غريباً وشعر كأن نظرها

اخترق صدره حتى وقعت سهامه في قلبه فهض للحال وقال لاسماه اذا لم يكن بد من

استفدام علي فاني ذاهب لاستفدامه وخرج فامتطى جواده وهزمه بئس المدبنة وعول

علي ان لا يعود الآيو

وخرجت اسماه لتنظر فسمعت وقع اقدام جواده يخترق السهل وتذكرت

والدها فبعثت عنه فاذا هو نائم في خيمة أخرى لا يبالي بشيء فلم تكلمت يو

وعادت الى سرير والدتها وقبلها بخفق خوفاً عليها فاذا هي قد غيرت وضعها فتعولت الى جنبها الآخر واطبقت اجناتها بعض الاطباق او هي ارضتها وعيناها متوجهتان على كيفية لم تهدها فيها من ذي قبل ورأت حدقتها قد جمدتا وتخصنا فحافت من منظرها فنادت العجوز وكانت قد خرجت لغرض فقالت لها ما بال أمي قد غيرت وضعها وما بالي ارى عينيها شاخصتين جامدين

فبغتت العجوز وقد ابغثت ان المريضة في حالة الترع وخصوصاً لما رأت كتبها يخلج وتنفسها يسرع . فامتنع لون العجوز وظهر الخوف عليها فادركت اسماء خوفاً فصاحت بها ما بالك خائفة العلة والدتي في خطر

فقالت عسى ان لا يكون خطرياً ابنتي والاتكال على الله . وخرجت مسرعة فاضطربت الفتاة وهمت بيد والدتها فحسها فاذا هي باردة جافة ونظرت الى عينيها وقد غارتا في تجويفها وذهب لمعانها فارتعدت فرائصها وخافت خوفاً شديداً وأسرعت الى باب الحيمة لتستقدم العجوز

وفيا هي تحول سمعت والدتها شخرت شخرة عنيقة فاجفلت وعادت الى السرير وهي تحسبها ستتكلم . فاعلمت عليها لتنبئها في جنبها فاذا هو بارد جاف فاقشعر جسها وازداد خفقان قلبها واضطكت ركبناها ولم تكن رأته ممتاً قبل ذلك المحين فنادت العجوز فانت فجمعت اسماء تنظر اليها وتبين عياملها فرأته في وجل فازداد خوفاً فاعادت النظر الى وجه والدتها فاذا هي فاتحة فاما وقد برز فكاهها واتسع شديداً واستطال وسكن اخلاج صدرها وبرز انها واستطال واتسع مخزها وأكد امتناع لونها . فنظرت اسماء الى العجوز فرأته قد خرجت من الحيمة فتبعها فاذا هي تنادي بزبداً وصوتها مخنق فتخفت وقوع العظور

فعادت الى السرير وصاحت بأمامة اماء فاما من عجيب فصفتت يداً بيد ولطبت وجهها فاذا بالعجوز عاتقة وهي تلطم وتقول « حلي شعرك يا ابنتي ان والدتك قد ماتت واحسرتها »

فحلت اسماء شعرها واخذت نصيح وتلطم وجاءتها العجوز برماد لطفت به رأسها وكان والدتها قد افاق فجاء واخذوا في العويل والنوح . فجمع اهل التربة على صباحهم وعلا النوح ولم ينزل احد منهم فعل اسماء فانها كادت تنزل نفسها لغرط البكاء

والدب والظلم وعبثاً كانوا يخفون عنها فكم ناسها فوق والدنيا وتوسدت  
جثتها واخذت في تسيبها وهي تقول لمن تركني يا أماء ولئن اشكوهي بعدك ومن يخبر  
علياً عن السر ومن يخبئنا من نذر الكافرين آء من الزمان العلى أملك قد ساقنا الى  
هذه الصحراء لتُدْفني فيها ما التائن من بقائي بعدك وقد اصحتُ بئمة فربنة لا سند لي  
ولا معين

واما والدها فكان يتظاهر بالبكاء ولا تذرف له دمعاً

وفيها هم في ذلك سمعهم اسياء يقولون « جاء علي » فصاحت صيحة ارتج لما المكان  
وقالت « لقد ابطأت يا ابا الحسن ان والدني ماتت ومات سرها معها » ثم نظرت  
الى أمها وكانها قد غطوها بلاءة وقالت لها « قومي يا أماء احسري فباك فقد جاء  
علي قومي اليه واطلعوه على شرك . قومي اشقني على ابنتك »

أما علي فترجل وقد شغله النظر الى التناء عن الالتفات الى الميتة . وكانت اسياء  
قد نوردت وحتها وذبلت عيناها وتكدرت اهدابها لما انكب عليها من الدسوع .  
وما زادها هيبة ووقاراً استرسال شعرها الاسود الى ظهورها وصدرها رحول كنبها  
وقد غطى معظم وجهها ناهيك عن انكارها وذلك من الحزن والبأس فانها يزيدان  
الجمال جذبا . وكان اكثر الناس تأثراً من منظرها محمد بن ابي بكر فانه لم ينالك  
عن البكاء لما لقيه من الفشل في سفره وقد انهك جواده سوقاً واستحس علياً على القجوم  
بالرغم عما كان فيه من المشاغل ووعده بالاطلاع على سر عظيم وظن نسه قد عاد  
ظافراً فرأى الفشل يتنظر هناك

وحالما وقع نظر علي على اسياء شعر باعطاف نحوها ونوم في طلعتها ملامح  
ارناح الى النفس فيها تحمل ذلك الاعطاف محمل الشفقة لما اتفق من نعمة تلك  
الفتاة وتدم تدماً شديداً لتفادع عن النبي . معها واحسن بالتزام مواساتها جود طافتو  
فوقفت وقفة معتبر ابصر الاسان ثم اجال بصره في الناس وهم سكوت يسمون وقال  
« ما اصف من دار اولها عناء واخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من  
استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فائتة ومن قعد عنها وائتة ومن  
ابصر بها بهرته ومن ابصر اليها اعنته . انظروا الى هذا الميت فقد قبض بصره كما  
قبض سمعة وخرجت الروح من جسده فصار جينة بين اهلوه ولا يسعد باكيها ولا

يجب داعياً . اعلوا عباد الله انكم وما انتم فيو من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى  
قبلكم من كان اطول اعماراً وابعد آثاراً فاصبحت أصواتهم هامة ورياحهم راكبة  
وديارهم خالية وآثارهم عافية وإقاموا في منازل شيدت بالتراب اهلها لا يستأنسون  
بالاوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار وكيف يكون  
بينهم تراور وقد طعمهم بكلكل البلى واكثفهم الجنادل والثرى» (١)

وكان علي\* يتكلم والدموع تتساقط من عينيه هادئة تندرج على الخنو . فاعجب  
محمد لما آتته في ذلك البطل من الخنو واشك الخزن ما يبكي الرجال  
ولكن علياً تجلد واخذ يخفف عن اسماء وكانت جالسة الاربعاء فتقدم اليها  
وأمسكها بيدها وقال لها نصبري يا ولدي ان الخزن والبكاء لا يجدياننا نفعاً . ان  
والدتك قد سبقتنا الى دار اللقاء الاخر . واما ما تذكرينه من الهم فلا تخافيه لان  
الله وكيل باليتامى واتخذني لك والداً ثانياً والتي همك بعدائه على علي\* واصبري ان  
الله مع الصابرين

فتمضت اسماء وقد سقط مندبها من يدها فصححت دموعها بكها المسيرل من  
معصها فعلقت ازرارها بدعورها فانحسر بعضه عن وجهها فاطرقت نجلاً واجابت علياً  
وصوتها مخنق وقالت « شكراً لشهامتك يا رجل المسلمين ووصي خاتمة النبيين اني لا  
اشك بمواساتك ولا ارى راحة الا برضائك لان والدتي هذه (قالت ذلك و اشارت  
اليها وقد خفتها العبرات) قد فاضت روحها وهي تذكر علياً وتناديه وفي صدرها سر  
ازمعت ان لا تبوح بو الأله فيها قد ذهب سرها معها الى القبر فياليتها باحت يو  
لاحد او باليتي المحض عليك بالقبوم ولكن ما الحيلة وقد قضى الامر» . قالت ذلك  
وحرقت باسنانها وعادت الى البكاء واكتها خفت من اللطم والندب احتراماً لعلي  
اما محمد فلا تسلم عما خالج قلبه من الانعطاف وما احس يو من الميل الشديد  
الى اسماء حتى شعر ان المصيبة واقعة عليه ولا بدري بماذا يعزبها ولا كيف يخفف عنها  
وود البقاء معها لمواساتها الى ساحة الدفن ثم ما لبثت ان سمع علياً ينادي  
فقال ليك

فجلا يو جانباً وقال له لا ارى ثم حاجة الى بقائي هنا وقد ماتت حامله السر

فقال اجل باعداء وانت في شغل هام من امر الخليفة وقد أسنت لجنتك بلا فائدة  
فقال اني اذا زاهب وأوصيك باهل هذه المينة خيراً فانظر ما يحتاجون اليه  
فاذا تم الفصل والدفن واصل النناء والدعا ومن معها الى مفرم وإذا رأيتهم في حاجة  
الى الاتفاق فادفع اليهم ما يحتاجون اليه على اني لا ارى والد النناء حزياً إلا بالانقياد  
فقال محمد سر بجراسة الله اني فاعل كل ما تأمرني به ولكني آسف لضياح ذلك

السرفانة لا يجلون امر هام . فقال علي اني اقدر في ذلك ولا ارى باباً لحلو  
ثم تحول نحو المأتم ونادي بزبداً والد اسما فجاه ووقف بين يديه وهو لا يستطيع  
النظر اليه الا خطمة فلما رأى علي سرقة في النظر مع رفرق اجزاء وتردد بصري  
كأنه ينظر اني ما يهون تخفى ان الرجل مره بضمه مخر ما يظهر . لان من سلمت  
سررتك واخلص نيتك كان بصراً ثابراً صافياً مثل قلوب واما المراني المغال فانه لا يستطيع  
التيسر نظري في مخاطبو ولا ينكسر برف اجزاء كأنه ينكر في حيلة بخترها . ونظر علي  
الى يزيد فعرف انه اموي فقال له تصبر يا اخا امية انك اصبت بما يصاب به كل ابن  
انبي ولا حيلة لنا الا بالصبر

فلما قال علي ذلك تظاهر يزيد بايكاء

فقال علي لقد اوصيت محمداً ان يتولى مؤاساتكم بكل ما تحتاجون اليه واذا تزلم  
المدينة فاتم في حمانا وما احتجتم اليه قد مناه لكم  
فتظاهر يزيد بالشكروم بتبديل يدي علي

ثم تقدم علي الى اساءة ولا تزال تكي فعزها واغبرها بان محمداً باق لمؤاساتهم  
فبكت ولسان حالها يدل على الامتنان وان لم يتعلق لسانها بكلمة . فخرج علي وهو  
يقول لمحمد اني لا اعجب ما بين هذه النناء والديها من البون فكأنها ليست ابنة  
ثم ركب جواده وودع محمداً وسار قاصداً المدينة

اما محمد فامر خادماً بالجامع باحضار من يتوم بالفصل والدفن ولكنه افتقد يزيداً  
بعد بره فلم يجد بين الناس فحجب لغيره وظنه في باديه الرأي قد ذهب في حاجة  
نفسه فلما طال غيابه ارتاب من امره حتى اذا انقضى الصبح رأى بين الناس فلم يسأله  
عن سبب غيابه فحلاً يكون في سؤالي تدخل في ما لا يهنيه ثم غسلوا الميتة وصلوا عليها  
ودفنوها واساء لا تنكس عن البكاء والغيب عبارات بنصت لها الصبر

## الفصل العاشر

﴿ المدينة المنورة ﴾

فلما عادوا من الدفن تقدم محمد الى يزيد ان يطلب ما يحتاج اليه  
 فطلب في الثناء وبالغ في الشكر لما لاقاه من مؤاساتوه  
 فقال محمد امر يدون الذهاب الى المدينة فتزولون علينا فان علينا اوصانا بذلك  
 قال لقد تفصلتم بما لا طاقة بنا على شكره ولا نثك في كرم مولانا ابي الحسن  
 وحسن وفادته ولكن لنا اهلاً في المدينة لا بد من النزول عليهم واحفاف اذا نزلت في  
 هجر منزلهم ان يعيشوا ذلك منا امنهاً على انا حينما نزلنا انا نكون في حيا ابي الحسن  
 فحب محمد لما آتت من لطفه وكاد يغير طبعه فقال له وابن بنهم  
 العار بكم باهم

قال م يقيمون بقرى الزوراء (١)

وكانت اسماه في اثناء الحديث جالسة تسمع ما يقولون وهي مطرفة حزناً  
 وانكاراً وقد غطت رأسها بخمار اسود زادها هبة وجمالاً فلم يزل محمد عن الهيام  
 بها فلما ذكر والدها حمل اقامته قال محمد وهو ينظر الى اسماه « اذا ارجوان  
 لا تسونا وبها عنكم من الامور التمسوا منا فان سيدي علياً حفيظه الله اوصاني  
 بكم خيراً » قال ذلك وينظر الى اسماه فرأى الدمع يتلهم من بين اهدابها ويخدر  
 على خديها وهي لا تزال مطرفة فانرداد انعطافاً وحسناً نحوها

اما والدها فقال له انا لا نستغني عن فضلكم فاذا اصابنا صبح لجأنا اليكم ولا  
 نبرح نذكر احسانكم الى آخر نسخة من حياتنا

فقال محمد الا تحتاجون الى ركائب تحمل امتعتكم  
 قال ان ركائبنا لا تزال عندنا وقد بعث اليها امرأاً ما خدماً يساعدوننا في  
 الحمل والنقل

فوقف محمد ووقف يزيد فودعه وودع اسماه

(١) الزوراء اسم سوق المدينة ويطلق على اجمال القليلة عثمان ايضاً ( مراد الاصلاح )

أما في فلما وقف لوداعها تذكرت ان والدتها عرفة وذكرت اسمها وهي على فراش الموت فنظرت اليو والدمع يتلأأ في عينيها وقد ذبلنا وتكرمت أهداها وتهدت ولم تحب شجهاها وتحوّل الى جواده فركب وعاد الى المدينة وقد غلق ذهنه باسماء وانشغل قلبه بها

أما ما ظهر في حديث يزيد من الرقة فليس من عذباته ولكنه ثلثة من مروان وكان قد غافل الناس في أنباء المأتم كما تقدم وبمم المدينة ليستشر مروان في ما يعمله مخافة ان يملكه محمد بن أبي بكر على النزول في جوار علي وهو لا يريد ذلك لئلا يضع ما أمك من مصاهرة مروان . وكان لما توفيت زوجته قد شعر بزوال عقله من طريقه لا بها كانت عوا لا بها على الرقص فلما توفيت تحق نيل مراد وظاف مجاورة علي فذهب ليشاور مروان فلقية في منزل الخليفة عثمان فانبأ بوفاته مررم واستناره في الامر فارصاه ان يجتال في التخلص من محمد وعله ماذا يقول من عبارات الفكر والنساء وان يستدر بالنزول عند افاروه كما فعل

وكانت أسماء خالية الذهن من كل ذلك لسلامة نيتها وانشغالها عن الدنيا بأحراجها وبكائها على انها شعرت بأشدان لعلي وإرتياح الى محمد واحست بأنها ستد عظيم لما عد الحاجة فإذا آنت من مروان او والدتها ما لا يرضيها استنجدها ولم يكف محمد بنواري عن فناء حتى أمر يزيد عيذاً كان مروان قد أرسلهم لمخيمته فتقوض الخيم وحملوا الاحمال وركبوا وركبت أسماء بعد ان ودعت قبر والدها وداعاً بنتت له الصخر وودعت خادم الجامع وامرأته وأكرمتها فوق ما أكرمها و محمد فودعهم وهما يبكيان وسار الركب نحو المدينة

فلما اشرفوا على المسجد تذكرت أسماء لثاءها علياً هناك وما كان من اضطرابها وقتلها في الليل الغابر ونامت في بجار النامل . فلم يبقها شيء من ضوضاء اهل المدينة ونجمهم في أسواقها . وقبل وصولهم الى المسجد مرّوا بأحجار الزيت وهو موضع صلاة الاستسقاء .<sup>(١)</sup> بقرب الروراء فرأوا الناس هناك جماعات متكاثين وم أخلاط من أهل مصر والأكوفة والبصرة وفيهم الامراء والفرسان والعبيد والخدم على اختلاف ازيائهم وكل جماعة في شغل وحديث وجدال . ثم وصلوا منزلاً وراء الجامع فناروا واسع محاط

بسور منبع له باب فخم في وسعها خوفاً<sup>(١)</sup> وقد أقفل ووقف الحراس عند فعلتها  
دار عثمان ولم يجاوزوها حتى وصلوا الى باب وقتها عندئذ فترجل والدها هناك فعملت انه  
المنزل المقصود فترجلت وقد انكها النعب والعماس لما فاست من الجاهدة والكماء والحزن  
كل ذلك الليل ولكنها لم تكذب تدخل ذلك المنزل حتى لتبهار وان فلما رأتها استعادت  
بالله وندمت على مجيئها على انها لم ترَ لها من النزول مع والدها فلما شاعدها مروان  
وقد نسرت بالنوب الاسود فوفا الخار الاود تحن وجهه زاده انكدار الحزن  
جمالاً وإشراقاً ازداد تعلقاً بها فتقدم نحوها سداً ومعزياً فردت عليه رداً ضعيفاً وهي  
تود ان لاتراه . أما هو فبالغ في اكرامها وسار في خدمتها الى داخل الدار وكان بعض  
نساء المنزل قد جئن لاستقبالها فدخلن بها جميعاً والدها معها وهي لا تعطى بكلمة  
وانا كلها أحد لم يكن غير الكماء جواراً له وانا خلت بوالدها سأله عن أهل ذلك  
المنزل فقال هم آل حزم<sup>(٢)</sup>

## الفصل الحادي عشر

### الحيلة

أما مروان فرأى من الحكمة ان يتركها في الغرفة لتسرج فخرج بدر ويلة  
لا ترضائها بالحسن فخطرت له ان يوسط بينه وبينها نائلة بنت الفرافصة امرأة الحلبنة .  
وكانت نائلة ذات مقام رفيع لتزوجها بالحلبنة على انها لم تكن من قرين لبي من  
بني كلب من العظاية وكان والدها الفرافصة نصرانياً يقيم في الكوفة<sup>(٣)</sup> وكانت عاقلة  
حسنة الخلق ولم تكن ترتاح الى مروان لتزوجه وطيشه وكثيراً ما كانت تخالته في  
مشوراته على زوجها حتى اشهرت مراراً وتقدمت الى زوجها ان لا يهفي اليه<sup>(٤)</sup>  
ولكنها لم تكن نبالغ في جنائزها احتراماً لتراوده .  
فسار مروان اليها وكانت في اضطراب عظيم لما احاط زوجها من الاخطار فلما  
رأتها قالت ما وراك يا مروان

قال ما ورأني إلا الخبير يا خالة اني اراك في رجل من أمر هؤلاء الناس انذين  
 يحاولون نزع الملك من ايدينا ورأس ذي النورين <sup>(١)</sup> انهم بعيدون عن نيلو فقد  
 كتبنا الى معاوية في المنام وان عامر وروثاء الاجناد من بني أمية <sup>(٢)</sup> نستقدمهم  
 الى نجدتنا فاذا جاؤوا لم يستطع المصريون او الكوفيون او البصريون مناؤا بهم  
 فيتفرقون ابدي سا

فتهدت نائلة وقالت لا اظنهم يصلون اليها يا مروان الآ بعد ان تنفذ الحيلة  
 والبيعة كلها عليك فانك كبرت المخرق بطيشك  
 فضحك مروان ونظاهر المزاح وقال سوف ترين بعينك يا خالة ان مساعي  
 مروان هي الحقة وتختفين ان هؤلاء الاعداء مفررون بانفسهم . لا تجزي يا خالة ولا  
 تخافي اننا الفاترون باذن الله

قالت دعنا من المزاح يا مروان ان الامر جلل  
 قال بل هو أهون مما تظنين وما انا حاسب له حساباً وما بدلك على ذلك اني  
 اعلم باسترضاء عروس جميلة جئت بها الى هذا المكان  
 قالت واية عروس

قال اسماء بنت يزيد الاموية انها يا خالة على جانب عظيم من الجمال وقد  
 كانت في دمشق وكانت والدتها تتمتع في تزويجها فانت الوالدة بالامس في قباء فجئت  
 بها وبوالدها اليوم واتزلتها في دار بني حزم وهي الآن نائمة للاستراحة من وعشاء السفر  
 فاقدم اليك اذا جاءتك غداً ان تمنعها بائي كفو لها  
 فقالت اين نحن من الزواج يا غلام

قال لا تتولي يا غلام وانا شاب بطل كما تعلمين واستخلفك برأس امير المؤمنين  
 ان تسترضيا وهي لا شك اذا سمعت كلامك رضيت . فاذا فعلت ذلك فديتك  
 وقديت عي الخليفة بروحي

فدكت نائلة وهي تعجب اعطش مروان وخشوه على ان استخفافه بين احاط بزوجهما  
 من المقاومين طامها وبرد قلبها وما زال مروان بها حتى وعدته باسترضاء اسماء  
 فذركها وخرج الى يزيد والد اسماء فاحبدها بما عزم عليه ففرح وقال حسناً فعلت

وأرى ان آخذها انا الى نائلة للسلام عليها فيكون ذلك أقرب الى طلي الحيلة  
فقال مروان وهب انما لم تنقع باسترضاء نائلة فاني حامل الخليفة على تزويجي  
بها قسراً وما انا مخول عن عزمي لانها فتاة لا تعرف مصلحة نفسها ولا هي مدركة  
مصلحة والدها في الامر ( وقد أراد مروان بذلك ان يؤكد آمال يزيد بتولي منصب  
بواسطة تلك الماهرة )

فابرت أسرع يزيد وقال طب نفساً يا وادي فاني لست تاركاً هذه الفتاة تتعل  
غير ما أرضاه أنا

فودعه مروان وخرج وباتت اسماء تلك الليلة لا تدري بما نصيبها لها



## الفصل الثاني عشر

﴿ نائلة بنت الفرافصة ﴾

وفي الصباح التالي افاقت اسماء مذعورة وقد رأت والدتها في الحلم فبكت بكاءً مرّاً  
ولم تكذب تجلس في الفراش حتى دخل والدتها وهمّ بها وقبلها قبلة الوالد والرباء. ظاهر  
على وجهه فلم تطاوعها نفسها على تقبيل يد قلبت في الفراش صامتة كهيئة لاتبدي حراكاً  
فقال لها يزيد امضي يا ابنتي واعلمي وجهك وهباً بنا الى مولانا نائلة امرأة  
مولانا امير المؤمنين ولا ريب انما ستعزيك في احزانك

فالت دعني يا ابنتي واغلق باب الغرفة علي فاني لا ارى شيئاً في هذا  
الكون يعزيني

قال قومي يا حبيبتي فان الحزن يضر بك ولا فائدة منه . وهي انما لا تقدر على  
تعزيك فالذهاب اليها واجب لانتا في حماها . وما زال حتى امهضا وفيها في تخنز  
للقيام دخل رجل فاستقبله يزيد قائلاً اهلاً بابي الجراح (١) فبغتت اسماء لمشاهدته  
فابتدرها والدتها قائلاً انه مولى مولانا ام حبيبة واطنة جاء لاستفدائك . فقال ابن  
الجراح ان مولاتي تدعوك اليها وقد سمعت بما اصابك وعلمت بنزولك عند جيراننا

آل حرم فبعثني لاستقدامك ومعى جارية حبشية لمرافقتك إليها  
فبعثت اسماء لهذا الاحفاء وشكرت تلك العناية ونهضت فلبست ثوبها وسرحت  
شعرها وعنفتها وأرسلتها إلى الورا. وأرخت الخمار على رأسها وتزلت بالرداء الأسود  
وخرجت والجارية برفقتها ودخلت في باب موصل بين الدارين حتى اتصلت إلى دار  
عثمان فرأت فيها ما يلبق ببيوت المختلأء من الطنافس والأستار ونحوها ولتبت في  
باحثها كثيراً من الممالك والأماء فمشت حتى انت غرقة نائلة

فلما سمعت نائلة وقع أقدامها تحفزت للفتاها . وحالما وصلت اسماء إلى باب الغرفة  
نسمت رائحة الطيب وسمعت شخصشة اساور نائلة وخلاخلها وعمودها ودماجها وهي  
نهياً للوقوف ولم يتبع نظرها عليها حتى بهرها ما على اثنيها من التطريز والزركشة  
بالفضة والذهب فدخلت اسماء ووقفت لها نائلة وقد اعجبت بحالها وهيبتها فهبت بها  
وضمتها إلى صدرها وهي تقول اهلاً بضيفتنا الحبيبة اهلاً بابنتنا العزيزة

فلما سمعت اسماء ذلك غلب عليها البكاء ولكنها تجلدت وقبلت يد نائلة وجلست  
إلى جانبها وخرجت الجارية وبنتها في الغرفة على حدة واسماء لا تنطق بكلمة  
فصارعت نائلة في مداعبتها فقالت اهلاً بابنتنا الجديدة ومرحباً بها

فادركت اسماء مرادها فقالت وهي تشرق بدموعها اهذا الكلام تعزيتي بامولاتي  
دعيني ابكي والله حنونة فقدتها بالاسم وأنا كنت تشفقين علي فابكي معي  
فأثر ذلك الكلام في قلب نائلة تأثراً عظيماً حتى تفرقت الدموع في عينها  
وهي تقول اني مشاركة لك في احزالك يا حبيبتي اما ترصيني بدلاً من والدتك  
فقالت ان ذلك أكبر تعزية لي على مصائبي وأرجوان لا يكون مرادك ما قد  
تبادر إلى ذهني

فالت وما ذا تبادر إلى ذهنك

فاطرقت اسماء ولم تجيب

فغالبتها نائلة ونأوهت لنأوها ثم قالت نصبري يا ولدي على مصابك ان  
الحزن المفرط لا يجديك نفعاً ثم امرت بالطعام فبدأت الساط فاعتذرت اسماء عن الطعام  
فأكلت نائلة عليها فتناولت منه شيئاً ثم جلست تحادثها في شؤون مختلفة حتى هدأ  
روعها وجعلت تأمل ملامحها وتعجب بحالها فاذا هي لا تشبه والدها في شيء وكانت

قد شاهدته عند قدومها معها

وكانت اسماها في اثناء ذلك مطرقة وهي غارقة في بحار الهواجس . فقالت لما نائلة ما بالك صامتة تكلمي يا اسماها واشغلي نفسك عن الحزن لعلك تشعرين  
قالت لا ارى شيئا يعزيني في هذا العالم يا سيدتي ولا يجعلوني التكم قط على اني  
احمد الله لما لقيته من مواساتك فقد استأنستُ بك كثيراً وشعرت بانعطاف غموك  
كانعطافي الي والدتي رحما الله . قالت ذلك وهي تمسح دموعها بالمدبيل ونشيق  
من البكاء .

فتأثرت نائلة لتلك الحالة واجلست محاطبها بشأن مروان الي فرصة اخرى .  
ولكنها احبت ان تصرف ذهبا عن الحزن فدعتها لمشاهدة ما في بيتها من الاثاث  
واكثره من العنقاص والسجاد وبعض الآنية ما غنمته القواد الذين فقوا الشام والعراق  
من قصور الملوك والبطاريق واغنياء الروم والارس وفي جملتها الملحمة مرصعة واعلام  
ودروع وآنية من الفضة والذهب من غنائم المدائن عاصمة النرس على عهد عمر بن  
المخطاب وبينها تاج كسرى مرصعاً بالجواهر وثيابة وشاحه من الدباج المنسوج  
بالذهب المنظوم بالجواهر ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك  
الهند ودرع النعمان بن المنذر وكثير من الاياف المرصعة . وادركت اسماها من  
تجمعها بعضها فوق بعض بلا ترتيب انما لم توضع هناك للزينة . ثم خرجت نائلة بها الي  
غرفة اخرى صغيرة رأت فيها دكة عليها فرس من ذهب فوقة سرج من فضة وعلى  
نفره ولباوة الباقوت والزمرد وعلى الجواد فارس من فضة مكلل بالجواهر . وبالقرب  
من النرس ناقة من فضة عليها ثليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب  
وكل ذلك منظوم بالباقوت وعليها رجل من ذهب . فانبهرت اسماها لتلك العف  
التي لم تر مثلها ولكنها علمت لاول وهلة انما ليست من صنع بلاد العرب

فقالت ومن ابن امتك هذا العف يا سيدتي

قالت انما غنائم ابطال المسلمين ما فقوه من بلاد النرس (١) وهي من خصائص  
يمت المال ولما نقلناها الي هنا موقفاً لامر اقتضى ذلك ومنعدها الي فاحببت ان  
اطلعت عليها لانها من ابداع المصنوعات ولا نظن الزمان ولا الانسان سبأ تبارها

فقال اسماء قد عرفت فائمة التيجان والديف والدرع ولكنني لم افهم فائمة  
هذه النرس وهذه الناقة

قالت نائلة لقد اخبرني بعض من شهد فتح المدائن من امراتنا انهم لما فتحوها  
ودخلوا ابوان كسرى رأوا في صدر الابوان الدكة التي كان تاج هذا الملك قائماً فوقها  
وطولها كان مركزاً على اسطواناتين من المرمر المذهب وعلى قمة احدى الاسطواناتين  
هذا النرس وراكبة وعلى قمة الاسطوانة الاخرى هذه الناقة وراكبها . وكان النرس  
قد نزعوا هذه القحف وحاولوا الفرار بها فعثر بهم المسلمون واخذوها منهم <sup>(١)</sup>  
فاجبت اسماء بما رأت اعجاباً عظيماً . وفيها هي تنظر الى صحن الدار لحت مروان ماراً  
فاجنلت وانقبضت نفسها وانتمت الذهاب الى غرفتها متظاهرة بالميل الى الراحة  
فودعت نائلة ورجعت فدخلت الغرفة واغتمت الباب وراءها وتوسدت الفراش  
وفاصت في مجار الفواجس

أما مروان فكان قد علم بمجي اسماء الى نائلة فهمة الاستنهام عما جرى بينها فجاء  
متظاهراً بمقابلة الخليفة ثم تحول الى غرفة نائلة فرآها وحدها فسا لها عما جرى  
فاخبرته انها لم تنافحها في شيء وانها ستذهب اليها في الغد وترى ما يكون  
فأمح عليها ان تستطع ضميرها وتة معها  
فوعده بانها ستدعوها في الغد الى الافامة عندها

## الفصل الثالث عشر

﴿ سرُّ آخر ﴾

وفي صباح اليوم التالي بكرت نائلة الى غرفة اسماء فوجدت الباب مغلقاً ففتحة  
بلا استئذان فرأت اسماء لا تزال نائمة وقد اغمضت جفناها وكملها العرق وتوسدت  
احدى ذراعها تحت خدها وجعلت ذراعها الاخرى فوق رأسها فامحسر كرها عنها  
فبان زندها وبانت عروفتها مخضرة كآنها خطاوط منعرجة رسمها الجمال نعمت تلك  
البشرة الباهمة وحول زندها تمت عضلاته واستدارت حتى مجال لماظره ان الصحة تندفق

منه وكانت الشمس قد أشرقت فأرسلت أشعتها من نافذة فوق رأس أسماء فمرت  
 الأشعة حتى اجتازت قامتها ولم تقع عليها ولكنها جعلت لزندها ظلًا خفيفًا وقع على  
 وجهها فأخفى ظل أهدابها الطويلة . فوقنت نائلة تأمل ذلك الجمال الخفى بالصحة  
 وهي تحاذر ان توقفها فاصححت على معصمها وثمًا على شكل الصليب فاستغربت ذلك  
 لعلمها انها مسلمة ولا يقصد ذلك الرسم غير المسيحيين . فتنرست فيه فاذا هو رسم صليب  
 لا ريب فيه ثم دنت من رأسها فرأت العرق قد كلال جبهتها وزادها بهاء وجمالًا  
 وكأن أسماء شعرت بوقوف نائلة الى جانبها فذبرت وضعها ورفعت يدها عن  
 جبينها واستلقت على ظهرها فانفتح صدر ثوبها فبان من تحته فلادة من فضة قد تعلق فيها  
 حجاب صغير أشبه شيء بحجاب المسيحيين لما عاينوه من الرسوم فازداد تعجبها واستغرابها  
 وتعاطف ميلها الى استطلاع السر . وفيما هي تتكرفي ذلك رفعت أسماء يدها الى عرنينها  
 فمسحتها ثم فطنها فرأت نائلة واقفة عند رأسها فحجبت لتوسدها فنهضت للحال وأرسلت  
 كفيها فوق معصمها وأطابت ثوبها على صدرها وقد ظهر الخجل على وجهها . فخبثت نائلة  
 فردت الفحمة وهي تمسح عرقها وتهم بالوقوف فاقعدتها وقالت استريحين يا ابنتي اني لا  
 اريد ازعاجك ولم آت الآ التماسًا لراحلك

فأثنت أسماء على فضلها ودعمها للجلوس فجلست نائلة على جانب السرير وهي  
 ممسكة يد أسماء تنظر الى رسم الصليب فيها ثم قالت لقد استغربت هذا الرسم على  
 معصمك وعهدي بك مسلمة فهل رسمته على سبيل الزينة

قالت لا اعلم كيف رسمته ولا انا ذاكرة يوم رسم لاني كنت طفلة وقد سألت  
 والدي عن سببه فلم يخبرني  
 قالت وما هذا الحجاب الذي في عنقك

فدنت أسماء يدها الى الحجاب فاستخرجته من بين اثوابها وقالت ولا ادري ايضا  
 من ألبسني اياه  
 قالت نائلة ولكنها حجاب مسيحي

قالت لعله كذلك ولكنها لبسته اطاعة لامر والدي فقد اوصيني ان احتفظ به  
 منذ طفولتي

فلم تمتطع نائلة شيئًا من حقيقة الواقع وازدادت رغبة في البحث فقالت لا اخبرتي

با اساء . كيف اتصل اليك . هذا الحجاب وكيف رسم على يدك هذا الصليب اخبرني  
لا تخافي فان النصارى اهل ذمة عدنا . وزد على ذلك اني ولدت في بيت مسيحي  
وكان والدي نصرانياً ' ' فاخبرني عن حقيقة حالك وانا أعلم ان والدك بزيداً  
مسلم اموي ابا عن جد

فتذكرت اساء والدتها وكنيتها اسم والدتها الحفني فتهدت وصمت  
فجيت نائلة لسكويتها وتسترها وقالت لها . ما بالك صامتة . بوجي لي بسرك ولا  
تخافي فانك بمنزلة ابنتي

قالت اساء بماذا ابوح لك وانا لا اعلم من هذا السر شيئاً واعترف لك اني منذ  
فقت عيني وانا ارى هذا الصليب وهذا الحجاب ولا اعلم من غيرها شيئاً  
قالت كيف يمكن ان يكون ذلك

قالت اساء هذا هو الواقع يا مولائي ولا اعلم من امرها شيئاً و . . . . . وصمت  
فقالت نائلة قولي يا اساء لا تخفي سرك عني قولي ما في ضميرك ولا تخافي  
قالت ماذا اقول وانا لا اعرف شيئاً غير ما ذكرت  
قالت بظهر لي من ترددك انك تخفين شيئاً

فتهدت اساء تهدياً عميقاً ونظرت الى نائلة والدموع ملء عينها وحاولت  
الكلم فحفظتها العبرات فسكنت

فصبتها نائلة الى صدرها وقبلتها وهي تزداد اعجاباً بنور طلعتها وقالت . قولي  
يا ولدي قولي ما في نفسك وثقي اني حافظة سرك عن كل انسان  
فمسحت اساء دموعها بكفها وتنست الصعداء وقالت ماذا اقول لك يا خالة  
ان سؤالك قد جدد احزاني وأذكرني والدي المسكين . قالت ذلك وعادت  
الى البكا .

فمسحت لها نائلة دموعها وقالت رحم الله تلك الوالدة المحنونة فانها قد خلقت  
لنا ملاكاً ساوياً . قولي ما هو سرك  
قالت ان سرّي يا سبدي قد ذهب الى التبرع تلك الموالدة قالت ذلك واوظلت  
في البكا .

فقلت نائلة أعلها كانت تخفي السرّ عنك ومانت قبل ان تروح و  
 قالت نعم نعم مانت وخفّمت لنا حرقه فراقها وزادت تلك الحرقه لوعة بكتها  
 سرّاً ذهب معها الى القبر ولكنها . . . . .  
 قالت ولكنها ماذا

قالت ولكنها اخبرني ان يزيداً الذي يزعم انه والدي ليس هو بالحقيقة كذلك  
 فبغنت نائلة وتذكرت انها توسّمت ذلك فيومذ رأته ففالت وقد ظننت ذلك  
 فهو منذ رأيتك ورأيت فاخبرني ما تعلمينه من تاريخ حياتك لعلني استنج شيئاً منها  
 ففالت اعلم اني ربيت في دمشق الشام منذ طفولتي وقد احتضنتني تلك المسكينة  
 وزوجها يزيد هذا معها وكنت أظنه والدي ثم علمت انها تزوجته في مصر على أثر  
 قدوم عمرو بن العاص اليها وكان يزيد في جنده يوم الفتح فكانت والدي نهيبة  
 من الغنبة وكنت انا بوندي طنلة بنت العام هذا كل ما اعلمه وقد أحسحت على  
 والدي بالاستنهام عن حقيقة والدي فوعدتني وسبها اجلها

فبغنت نائلة وظلت صابرة برهة تكسر فلم تده طع فهم شيء  
 وفيها ما في ذلك سمعنا وقع اقدام مسرعة امام باب العرفة فانفتحت فاذا يزيد  
 قد دخل مسرعاً وعلى وجوه امارات البغنة فلما رأى نائلة هالك نادب في  
 وقوفه وحياها . ففالت ما وراك يا أخت أمية

قال وعيناه تترددان واجفانها ترفه « ما وراي الآ اخبر يا مولاني . . . . »  
 قالت قل ما وراك هل من امر جهنا  
 قال خرجت في هذا الصباح باكراً في مهمة بعثني بها مروان فرجعت الآن ولم  
 استطع الدخول الى هذا المنزل الاّ خلّس

فبغنت نائلة وقد خنق قلبها وحدثتها نفسها بسوء كانت تتوقعه وفالت ما الذي  
 منعك من الدخول

قال اقوام تجهموا حول منزل امير المؤمنين بجبلهم ورجلهم وقد علا ضجيجهم  
 ولا ادري ما بنوون

فبغنت نائلة وقالت وماذا بنوون يا يزيد . قل  
 قال لا ادري يا سيدتي واظنهم بنوون شرّاً

## الفصل الرابع عشر

﴿ حصر عثمان ﴾ -

فخرجت نائلة مهرولة وبدنها يترجح لضخامة اوراكتها (١) وخرجت اساء في أثرها وقد نسيت حزبا ونشدت كأنها تنهم بالهجوم في حرب حتى دخلنا الى دار عثمان ونحولنا الى زول غرفة تشرف على الطريق فأطلقنا فرأنا الناس جماعات وقد تجهبوا بالسجيم وخوهم وعلا صياحهم فاضطرت نائلة وامتنع لونها واخذ الخوف منها مأخذاً عظيماً

أما اساء فمازلت رابطة الجاش وجعلت تشبها وتقول لها لا تخافي يا سيدتي فانهم لا يستطيعون الوصول الى هذه الدار وهي معاطة بهذا السور المرتفع وإذا هم هموا بهلسنوا فاننا نسلتهم بالبال والحراب

فجبت نائلة لجسارة اساء ورابطة جانبها ونشجت بها فامسكتها يدها وتحولت بها من تلك الغرفة تريد غرفتها

وفياها في صحن الدار سمعنا لفظاً ورأنا هناك نفرًا من المهاجرين يهون بالدخول الى الدار وحالما وقعت عينا نائاة عليهم همست في اذن اساء كلاماً يتخلل ارقعاش وقالت « هؤلاء هم كبار الصحابة قد أتوا ولا ندرى غرضهم من امير المؤمنين » ونظرت اساء اليهم فرأت علياً بينهم فحدثنها نفسها ان تخاطبه ولكن نائلة سارت بها الى اقرب حجره هناك التماساً لتعجاب واعلقت الباب وراهها فاذاها في حجره بينها وبين مجلس عثمان باب مقفل ونائلة لا تزال مسكة يد اساء وقد احسنت هذه بارقعاش اناملها فقالت لها ما الذي أخافك يا خالة

قالت نائلة بصوت مخنق لند اخافي عبيد هؤلاء فانهم فلما جاؤونا الالويج اوهديد

فقالت ومن م

قالت علي بن ابي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله و محمد أوجه الصحابة

ولم مطمع في الخلافة كل منهم بتطليها لنفسه - وما زلنا منذ تولواها امير المؤمنين لا يهدأ لنا بال ما يهتمونه به من الاعمال - اما رأيت الناس محيطين بمنزلنا الآن فانهم اهل مصر والكوكة والبصرة قد جاؤوا لمطالبة الخليفة بامور ما انزل الله بها من سلطان

## الفصل الخامس عشر

### ﴿ اسباب الفتنة ﴾

قالت اماء بماذا يطالبونه

فادنت نائلة فاما من اذن اماء وقالت بصوت مخفض « م يزعمون انه استأثر بالسلطة فضل اقاربه في مصالح الحكومة فولاًم الاعمال دون سواهم وانه اكتسب الاموال الطائلة واقتنى المالك وانه يعطي المال لاقاربه <sup>(١)</sup> هذا ما يزعمونه ولكن الحقيقة غير ذلك

قالت وما هي الحقيقة اذاً

قالت اما استنارته بالسلطة فذلك حقه من الخلافة لانه امير المؤمنين وله الامامة والسلطان - واما تنضيل اقاربه فلم يكن هو اول من فعل ذلك فقد كان الرسول ( صلعم ) يعطي قرابته <sup>(٢)</sup> واما احراز الاموال والتوسع في المعيشة فانها حتى هذا المنصب - وزد على ذلك ان امير المؤمنين يطعم الناس طعام الامراء واقسم برأسه ان طعامه لنفسه انما هو الخبز والزيت <sup>(٣)</sup> اتعدت من ينعل ذلك ظامعاً في الدنيا

قالت اماء فاذا كان الامر كذلك فما الذي دعاهم الى هذه الثورة

فتهدت نائلة ثم قالت انهم بما عزبتي انما فعلوا ذلك حسداً واني اعرف من زعماء هذه الثورة جماعة عاشوا في نعم امير المؤمنين احوالاً ثم وسوس لهم الشيطان - وقد اخبرني من اتقى برؤسوه ان الذي حرضهم على التثنية رجل يهودي اسمه عبد الله بن سبا اسلم حديثاً واخذ يتنقل في الحجاز والبصرة ثم الكوفة ثم الشام يريد اضلال الناس فلم

بصفوا له فاخرجوه من الشام فأتى مصر فاقام فيها فأانس هناك اذناً واعية فجعل يقول لاهل مصر العجب من يصدق ان عيسى يرجع ويكذب ان محمداً يرجع فوضع لم بدعة يسمونها الرجعة فقبلوا ذلك منه ولكي يثير عواظهم قال لم قد كان لكل نبي وصي وان علياً وصي محمد فمن اظلم من لم يحز وصية رسول الله ( صلعم ) وزعم ان امر المؤمنين ( عثمان ) وثب على وصيه واخذ الخلافة بغير الحق فقال لم « انبسطوا بهذا الامر وابدأوا بالظلم على امراتكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تسخيلوا به الناس » وثبت دعائه وكتاب من استنجد في الامصار وكانوه ودعوا في السر الى ما عليهم وارضوا بكتبهم الى الامصار كتباً يضعونها في عيب ولائهم واسمعوا بذلك الارض اذاعة وبدأ التصادم من ذلك المحن فتار المسلمون في كل الاتجاه الآمل الشام والمدينة فانهم ثبتوا على ولائهم الخليفة (١) . هذا هو سر الامر يا ابني واما ما ذكره من احراز الاموال وتفضل الاقرباء فليس بالامر الهام

فتأثرت اسماها لذلك التول وشاركت نائلة باسناها ومالت كل المبل لصرة عثمان وسمت الانتعان نحو الباب المنقلب بينها وبين محاسن الخليفة وفي الباب ثقب يشق عن هناك . فظفرت اسماها في الدق فرأت عثمان جالساً في صدر المجلس على وسادة مزركشة وقد طلع البغلة واستنع لونه وآثار الجدرى لا تزال ظاهرة فيه . ونأمله جيداً فرأته مشرف الاف عظيم الاربعة (٢) وقد حول نظره نحو الدار وبين اليسرى على لحيته يمدحها باصابعه يتشاكل بها عن هواجده وخاتم الخلافة في احدى اصابعها وفي يده اليمنى قضيب الخلافة . وكان قد نزع العمامة عن رأسه حتى بانته صلغته (٣) وسمعت في بعض جوانب الغرفة رجلاً يقرأ القرآن ولم تنر . ورأت بين يدي الخليفة جماعة من بني امية لم تعرفهم ثم سمعت وقع اقدام عند باب المجلس واذا بعثمان قد تم بالعمامة فجعلها على رأسه ووقف لاستقبال القادمين وهو اكرام خصوصي . فكان اول من دخل منهم علي بن ابي طالب وحياً عثمان بجملة الخلافة قائلاً السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته (٤) . ثم دخل بعده رجل مرسوع الى التصرا اقرب رحب الصدر هريص المتكئين اذا التفت التفت جميعاً فشم القدمين حسن الوجه ايضاً مشرب بالهنينة كثير الشعر ليس بالجمعد النعاط ولا بالسبط وقد شاب شعره فلم يصبغه فرأته

جاء وجلس بجانب علي فالتفتت الي نائلة وسألها عنه فقالت انه طلحة بن عبد الله (١) ثم دخل في اثرهما رجل اسمر اللون خفيف اللحية معتدل العضل فقالت اسماه ومن هذا قالت هذا هو الزبير بن العوام (٢) ولما استتب لهم الجلوس قالت نائلة اجلسي يا ابنتي لنسمع ما يدور بينهم فحسام ان يكونوا قد جاؤا والخبر فجلستا وما تريان ونسمعان ولا يراها احد

## الفصل السادس عشر

### — الشورى —

فجلسوا برهة لا يطق احد بكلمة ثم بدأ علي بالكلام قائلاً « اندري لاي شيء جنناك يا امير المؤمنين »

قال عثمان « الله اعلم »

قال « يعلم الله اننا انما جئنا نريد بك خيراً انك يا امير المؤمنين ان عم الرسول الاعلى وقد تزوجت باثنين من بناتهِ ( صلعم ) وتلك كرامة لم يجرها احد سواك وانت يا ابا عبد الله من السابقين الاولين وقد صليت الى القلتين وهاجرت العجرتين وانت اول من هاجر الى الحبشة وقد قال الرسول ( صلعم ) بين اليه هذ يد عمان وتولبت الكتابة له وجمعت القرآن . فانت يا امير المؤمنين من خيرة الصحابة وقد توفي رسول الله ( صلعم ) وهو عنك راض وبشرك بالجنة (٣) فلا ترضى ان تكون الامة نائمة عليك حتى يهملوا بمخلك وكذلك ونحن نعلم انهم اذا تمكروا من ذلك كانت الفتنة تعوذ بالله منها فتتسم الامة وتكون العاقبة وبالاً عليها » وكان علي يتكلم وعثمان مطرق يقلب في صفحات القرآن

فلما اتم علي كلامه رفع عثمان رأسه وقال « اني عالم بكل ذلك يا ابا الحسن ولكن هم يقتلونني وقد سمعت رسول الله ( صلعم ) يقول لا يجزئ دم امرء مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بعد اسلام اوزني بعد احصان او قتل نس بغير حق فانا لم افعل

شيئاً من ذلك ولكنني اتقدم اليكم ان تدبروا عليّ»  
 فقال عليّ\* « نرى ان تخاطب الناس فانهم قد هاجوا واحاطوا بدارك ناقبين فقم  
 اليهم وعِدْهم خيراً »

قال عثمان « لقد طالما وعدتهم وطأنتهم فلم يرضوا »  
 قال عليّ « لقد وعدتهم ثم اخلنت ولا تعد ذلك اخلاقاً منك ولكك اصغيت  
 لابن عمك مروان وهو غلام لا يفقه شيئاً فاذا نحن خرجنا من بين يديك جاءك واعظم  
 استرضاءك المسلمين وقد فاته ان في استرضائهم قطع دابر الفتنة فقم اليهم واخطبهم »  
 وكانت اساءة نسمع كلامها فاستحسن انصراف عثمان واستبشرت بانفراج الازمة  
 فلما سمعت ذكر مروان اقم شعر بدنها

اما عثمان فقال « اني اتوم واخطبهم ولا يصعب عليّ ذلك ولكنني اود معرفة  
 السبب الذي حملهم على هذه الثورة فاخبروني به فاذا كنت مخطئاً استغفرت واذعنت »  
 فاجابته الزبير قائلاً « هم يقولون انك استأثرت بالامارة واستخدمتها لمنفعة اقاربك  
 وجمع الاموال والاستكثار من الماليك والضباع فالك تملك نحو مئة الف وخمسين  
 الف دينار والف الف درهم نوداً وبئسها من الضباع وقد اقتنيت الخيل والابل  
 والماليك وقد كان الناروق ( عمر بن الخطاب ) يرفع ثوبه بالجلد وهذا عليّ ابن عم  
 الرسول ( صلعم ) يقول يا يضاء وباصفراء غرّي غبري

فالتفت عثمان الى الزبير وقد نسط كأنه شعر بان الحق في جانبه وقال « أنت  
 تقول ذلك يا ابن العوام انحسون عند الاموال ذنباً يستوجب القتل ونحن فيو سواه  
 لم تستكثر انت من الاموال الا تملك خمسين الف دينار والف فرس والف عبد  
 والف أمة ماعدا الدور والضباع وهذا ملحاً ايضاً فان غلته من العراق الف دينار في  
 اليوم وله الف بدير وعشرة آلاف من الغنم وهذه دارة في الكوفة ونسى الكناس<sup>(١)</sup>  
 وهذا زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة عديم الاموال  
 الوافرة العلكم ورثوها عن آباءكم ام هي مال حلال لنا جميعاً وقد غنمناها في  
 الجهاد بنعمة الاسلام

ثم وجه عثمان خطابه الى الجميع وقال

« ألم نكن نعرف بعضنا بعضاً في الجاهلية وقد كُنا نسكن ارضاً غرذات زرع ولا  
ضرع ألم يكن فينا اناسٌ يأكلون العنارب والخنافس وينفخون بأكل وبر الابل  
يموهون بالبخارة في الدم ويعلجونه . فلما انارنا الله بالاسلام واجتمعت عصية العرب على  
الدين وطلبنا ما كتب الله لنا من الارض بوعد الصديق فابتزنا ملكهم<sup>(١)</sup> واستجنا  
دينام . اليس ذلك مالاً حلالاً لنا فكيف نستوجب القتل والخلع عليه . واما اعطاني  
اقاربي فقد كان رسول الله ( صلم ) يعطني قرابته . ولكنني اراكم قد غرتمكم مقالة  
ابن سبا . . . . » قال ذلك وقد أخذ منه التآثر مأخذاً عظيماً حتى رقصت لمثته  
فلما سمع علي<sup>\*</sup> مقالته اغضى عن الجواب عن مسألة ابن سبا لانها تتعلق به مخافة ان  
تسبب تهوراً ولكنه قال « يخال لي يا ابا عبد الله ان سبب هذه التهمة انما هو ما  
ذكرت من استكثار المال فانه يترق بين الاب وابنو وهذا ما حملني على كرهه حتى  
قلت ( يا صفراء ويا بيضاء غريمي غريمي ) فيها انها قد غرتمكم ولكن مالنا ولهذا الجدل فقد  
جئنا نلتبس حسم الخلاف وهو لا يكون الا بمخاطبة هؤلاء الناس المعيطين بهذه الدار  
ولا آمن ان يجيء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول يا علي<sup>\*</sup> اركب بهم فان لم  
افعل رأيتني قد قطعتم رحلك واستخففت بحفك<sup>(٢)</sup> »

فقال عثمان « اني اول من اتخذ ولا احب ان يهريق بسببي محجب من الدم »  
قال ذلك وبهض وهو يصلح عامته ويمكن برده على كنفه والنضيب يده وخرج من  
الغرفة وتبعه علي ورفاقه . فقالت نائلة لاساء محمد الله ان الامر قد فضي  
قالت اساء بورك بعلي<sup>\*</sup> فان يو صلاح هذه الامة واكنفي احب ان اسمع  
المخليفة يتكلم

قالت اتبعيني ان في غرفتي نافذة تطل على المكان الذي سينفد به امير المؤمنين  
فحضنا ولبننا برهة ريثما خرج الناس وخرجنا الى غرفة نائلة واطلنا من النافذة  
بحيث تريان وتسمعان ولا يراها احد . قرأنا عثمان قد أشرف على المجموع فلما رآه الناس  
علا ضجيجهم ونظروا اليه فقال وصوته يتلجج « ايها الناس اني اول من اتهم . استغفر  
الله ما فعلت وانوب اليه فتملي من تزع وتاب . فاذا نزلت فليأتني اشراقكم فليروا في<sup>\*</sup>

(١) ابن خلدون (٢) ابن الاثير

رأهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنّ بسنة العبد ولا ذلّك ذل العبد وما عن الله  
 مذهب آل اليو . فوالله لأعطينكم الرضا والأجّين مروان وذويو ولا احجب عنكم «  
 ولم يهّم كلامة حتى اخنق صوته وترقرقت الدموع في عينيو وبكى كل من سمعه  
 وكانت نائلة واسماء اكثرهم بكاء . ولكن نائلة حمدت الله على انجراج الازمة  
 وتحولت هي واسماء عن النافذة

## الفصل السابع عشر

﴿ اسماء ومروان وعثمان ﴾

وقبها ها تحولان سمعنا وقع اقدام قادمة نحو النرفة ثم رأنا عثمان داخلًا وقد امتنع  
 لونه وهاجت عواطفه فلما رأنا اسماء همت بالخروج حياء فدعتها نائلة للسلام عليو  
 فتقدمت اليو وهي مطرقة اجلالًا للمقامو همت بتقبيل يديو فقبأها وهو ينظر الى جمالها  
 وهيبها ثم نظر الى نائلة نظر مستهم  
 فقالت نائلة انها ضيفة عندي يا امير المؤمنين واحمد الله ان قدومها كان خيرًا  
 فقد حلّ المشكل . فتهد وهو يبحث عن وسادة يجلس عليها فلما جلس دعاها للجولس  
 فجلستا وهو لا يزال يتفرّس في اسماء وقد استغرب لباسها الاسود ثم قال مالي  
 اراها سوداء الثياب

قالت لانها فقدت والدتها بالاسم وهي قادمة من الشام فنزلت عند جيراننا بني  
 حزم مع والدتها

قال زين هو والدتها

قالت هو يزيد الذي جاءنا منذ ايام

فنظر اليها وانسم ابتسامًا لم يغير شيئًا من مظاهرا اضطرابه وقال « لقد جئت اهلا  
 ووطنت سهلاً عزّاك الله على مصابك «

فقالت اسماء ان من كان يجوار امير المؤمنين لا يحتاج الى تعزية

فاعجبه حسن اسلوبها وقال وماذا يتعامل والدك

فالت لا يعاطى شجاً يا سولاي

قال سنظر في ما بيننا . ولم يتم عثمان كلامه حتى دخل مروان فغنى بلا استئذان  
ومعه جماعة من شيان بني امية فلما رأته اساء اجملت وانقضت نفسها وودت الخروج  
ولكنها استحييت من عثمان فانزوت في بعض جوانب الغرفة

اما مروان فانه دخل والديف يجر وراه . وقد ارخى رداءه نهباً وعجباً حتى اذا  
اقرب من الخليفة جلس الى جانبه وحياء تحية الخلافة ثم حياه رفاقة وجسوا وم  
سكوت وعثمان ساكت . فلاح من مروان الفئانة الى جانب الغرفة فرأى اماء  
جالسة هناك فسر لتقربها من نائلة املاً بان تصفي لتصيحها فترضى به فاحسب ان بين  
لها نوده لدى الخليفة لعل ينال حظوظ في عينها فنظر الى عثمان وقال « يا امير  
المؤمنين انكلم ام اسكت »

فابتدرته نائلة قائلة « لا بل اصمت فابهم والله فائقوه وموتوه انه قد قال مقاله  
لا ينبغي ان يتزع عنها »

لمحلق مروان فيها وقال « ما انتي وذاك فوالله قد مات ابوك وهو لا  
يجس بوضاً »

فالت « مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء . نخر عن ابي وهو غائب تكذب عليه  
وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسه . اما والله لولا انه عمه ( عم الخليفة ) وان  
بناله عمه لا عبرتكم عنه ما لن اكذب عليه » (١)

وكانت اساء . نسمع كلامها وهي تكاد تتميز من النيرظ ولكنها احترمت المقام  
وخافت ان يشجبها عثمان فصبرت نفسها لتسمع ماذا يريد ان يقول  
اما مروان فاعرض عن نائلة مخافة ان تزيده تعيماً ونظر الى عثمان فقال  
« يا امير المؤمنين انكلم ام اسكت »

قال تكلم

فقال « يا ابي انت وامي والله لو ددت ان مقاتلك هذه التي قامت اليوم على مسمع  
من المسلمين كانت وانت منع فكت اول من رضي بها واعان عليها . ولكك قالت ما  
قلت وقد بلغ الحزام الطيبين وبلغ الميل الزبي وحين اعطى الخطة الذليلة الذليل

ورأته لاقامة على خطيئة وبُستغفر منها اجمل من توبة يخوف عليها . وانت ان شئت  
تربت بالتوبة ولم تقرب بالخطيئة وقد اجتمع بالباب امثال الجبال من الناس (١)  
يريدون ان يتزعوا ملكنا من ابدنا »

وكان عثمان يسمع مفالة مروان وهو مطرقٌ ينكر واساءه تراقب حركاته وهي  
تخاف ان يصفي لتول مروان فآنت فيو اصفاء وشعرت ان الامر سيعود الى اعظم  
ما كان فلم تعد تنالك عن الكلام فوقفت بقامة تجعل البان وقد زادها العيوس هبة  
وحاطبت الخليفة قائلة « اباؤن امير المؤمنين لآمتو بكلمة »  
قال « قولي يا بنية »

وكان مروان لما رآها حول نظره نحوها وهو يهيج لشجاعتها وتحولت انظار  
جميع المحضور اليها ينتظرون ما تنوله

فلما اذن لها بالكلام قالت « لا انكر ان وقوفي بين يدي امير المؤمنين والنداهل  
في شؤون امارته بمد جسارة او تطللاً ولكني التمس لتسبي عذراً اني انما وقفت  
لانقول كلمة في مصلحة مولاي الخليفة ولو اذى بي ذلك الى احمال غضبو وتوبيخو .  
اني يا امير المؤمنين اري في الاصفاء لتول ابن عمك هذا ايقاظاً للتنة بعد ان  
نامت ومدعاة للتال واثارة للحرب . فان تنازل امير المؤمنين لحسم الخلاف وحجب  
الدماء لا يخط من قدرير . واما العمل بمشورة مروان فقد بأول الى شر عظيم »  
فلما سمع مروان مفاها فهقه استخفافاً ولم يجيبها ولكنه حول وجهه الى الخليفة وقال  
« كآن هنه التناة تريد ان يسمع امير المؤمنين لمشورة النساء وقد قيل امهن ناقصات  
العقول » . قال ذلك وأغرب في الضحك

فحسي غضب اساءه ونارت الحمية في رأسها وقالت « ان النساء مها قيل في نقص  
عقولن فمن اكمل عقلاً من يري العيرة ولا يعتبر . لقد كفاك تفرراً بامير المؤمنين  
واعلم ان الذين اشاروا عليهم بما عملت انما هم نخبة المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول (صلم)  
وليسوا ناقصي العقول »

وكانت نائلة تسمع كلام اساءه وقلبا برقص طرباً ولكنها خافت من طيش مروان  
وتوقعت ان بغضب . فاذا يو قد عاد الى الضحك وقال « لا تقول امهم ناقصو العقل

ولكنهم مناظرونا على الحكم يريدون اذلالنا ومع ذلك فليس من شأنك المشورة على امير المؤمنين «

قالت « لم اقف في حضرتي الاً باذنك وليس لك ان ترد امرأ امرية هو »  
فحمي غضب مروان فوقف ويداً على قبضة حسامه وقال « والله اني ضاربك مجد هذا السيف فقاطعك نصين »

فتبسمت اسماء باستخفاف ورفعت يدها وقد انحسر بعض كها حتى بان ذلك المعصم المندمع وقالت وهي تشير اليه بساينها مهددًا « لا تظنني اخاف حسامك اذا جردته ولولا حرمة امير المؤمنين لقتلتك بسيفك فاحترم الخليفة واردد يدك عن قبضته فما انا من يخاف السبوف . ولا يفرّك اني فباء واذا اردت ان تعرف من انا فعليك بالتزال في ساحة الوغى »

فجذب المحضور هذه الحماسة ويهتول جميعاً لما سمعوه مما لم يكونوا يتوقعونه من صاحبة تلك الطلعة وذلك الند

أما مروان فنجعل من توبيخها وكظم غيظها وظواهر بالاستخفاف وعاد الى مجلسه ضاحكاً وهو يقول « لولا حرمة امير المؤمنين لعلمتك معنى التزال »

قالت « كان يجب عليك ان تحترم مجلس الامير قبل ان تقبض على الحسام وما رجوعك عن وقاحتك الاً جبن وخزي »

فهم مروان بالوقوف ثانية وقد امتنع لونه واربعشت انامله فامسكه عثمان بكفه واجلسه وهو يعجب لجرأة اسماء وقد اعجب بها كل السامعين . اما عثمان فجعل يدُ على كنف مروان وقال له « لم اكن اتوقع منك اطالة الجدل على هذه الصورة وكأني بك اذا تركتك وشأ نك جردت السيف امامي !!! »

فنجعل مروان وسكت وفي نفس حرازت وتبمة وإشار عثمان الى نائلة فهضت وامسكت اسماء وشحلت بها من الذرفة فخرجنا والناس يتبعون اسماء بابصارهم ويعجبون بما سمعوه وينظرون من ورائها الى لبن قامتها واسترسال شعرها وثبات قدمها

فلما خلنا في عرفة اخرى همت بها نائلة وقبلتها والدموع ملء عينها وقالت « بورك فيك يا اسماء والله انك قد شفيت غلبي من هذا الغلام ولكنني احب انك سبقت الخليفة

وبجملة على الرجوع »

قالت فلنصف هنا لعلنا نسع ما يدور بينهما . فوقتنا سمعنا مروان يقول له  
« مالنا ولاقوال النساء ان الامر جلال ولا ادري اذا كتبت قد قلت ما قلته عن اجبار »  
قال عثمان « ومن هو الذي اجبرني عليه »

قال مروان « الا ترى في ذلك حطة لقد ربي امية كيف نستغفرم على امر  
ترى لنا فيو الحق الواضح . الا تعلم يا امير المؤمنين ان بي امية تناخر سائر قریش بل  
سائر العرب بخلافتك فكيف تقول ما قلته على مسمع من الالوف على اختلاف قبائلهم  
وبطونهم . فقد أدلتنا واشتت بنا الناس . ومن هم هؤلاء الذين اعذرت لم جهاراً  
الم يخلصوا طاعتك لانك لم تؤثرم على ذوي قرابتك ولانك لم تعزل احاك عبد  
الله بن سعد عن مصرونوي مكانه رجلاً بخنارونه . هل كان هؤلاء الواقفين على بابك  
الآن ان يفتوا موقفهم هذا بين يدي ابي بكر او عمر »

فتنس عثمان الصعاء تنساً سمعنا زفيراً فعلنا انه قد ضاق ذرعاً ما تراكم عليه  
من المواجس ثم قال « وما العمل اذا »

قال مروان « العمل ان نين لم انا لسنا بخائفين من كثيرهم »

قال عثمان « اما انا فلا اكلهم لاني استحي ان اقول ثم ارجع »

قال انا اخرج اليهم . قال ذلك وخرج

ولم يبق عثمان كلامه حتى سمعنا وقع اقدام مروان في الدار فتحولنا الى النافذة فرأناه  
قد وقف حتى اشرف على الناس من فوق سور الدار وقال « ما شأنكم قد اجتمعتم  
كأنكم قد جئتم لتهب شاهت الوجوه الى من اريد . جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من  
ايدينا اخرجوا عنا والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا امر لا يسركم ولا تحمدوا غيب  
رأبكم ارجعوا الى منازلكم فاننا والله ما نحن بغلوبين على ما في ايدينا » (١) فضح الناس  
حتى ملاً ضحيجهم النضام .

فالت اساءة في سرها تبا لك يا مروان وصاحت نائلة فبعك الله من غلام . انه  
والله سيثودنا الى سر ما توقعه . قالت ذلك ونصت عن النافذة واساء تبعها فاذا  
بجاريته نادبها الى الخليفة فاعذرت من اساءة ودخلت عليه

فسارت اسماء نورا الى غرفتها وهي تتوقع ان يأتيها مروان مهنداً او مستقفاً فدخلت الغرفة وهي لا تزال ترتعش من الغضب وعولت اذا جاءها مروان مهنداً ان تشدد التكبر عليه واذا تطاول فتكت به . واستحضرت خنجراً كانت تنقله تحت اثوابها في الاسفار . ولم يكن والدها هناك

## الفصل الثامن عشر

﴿ اسماء ومحمد ومروان ﴾

فاً غلفت اسماء الباب وجلست على السرير وهي تتأمل في ما مرَّ بها في ذنك اليومين من انواع الغرائب . فتصوّرت والدها وحنوّها وتذكرت كيف كانت تشكو اليها ههنا في مثل تلك الحال فغلب الحزن عليها حتى بكّت . وفيما هي في ذلك سمعت مشياً امام باب غرفتها فاجتملت وافتقدت الخنجر وتحزنت للوقوف وقد نسبت حزنها وليست هنيئة فلم تسمع صوتاً فظننت ما سمعته وقع اقدام مارٍ امام الباب . ثم سمعت آراء على الباب فوثبت اليه وفحصته وقد مهيأت للقاء مروان . فاذا في الباب محمد بن زباني بكر فبغنت وغلب عليها الحياء واختلط حياؤها بامارات البغنة فزاد وجهها هيبّة وجلالاً . أما محمد فلما رآها على تلك الحال ابندرها قائلاً ما بالك يا اسماء ما الذي اخافك فغالطته وحنينه ولم تجبه على سؤاله

فردّ عليها التحيّة ومد يده فسلم عليها وشعر عند لمس يدها ببرد اناملها وارتعاشها فقال ما بالك ترتعشين وانت وحده . قال ذلك وهو ينظر الى جوانب الغرفة لعله يري احداً هناك فلم يجد فازداد تعجباً

اما هي فتجلّدت وقالت لا شيء يجيئني يا محمد وانا في حياي الي الحسن قال لقد صدقت ولكنني اراك في اضطراب وهياج كأنك كنتي تخصمين احداً ام انت ترتعدين لتدومي على عرق وانا انما فعلت ذلك طوعاً لا امر علي فانه ارسلني لافتقدك لعلك تحتاجين الي امر

قالت بورك فيو وفيك واشكر عنايتكما بي فاني بحمد الله في خير وعافية ادعني لسيدي ابي الحسن بطول البقاء . قالت ذلك وجلست الى السرير

أما هو فودّ أن يمكّ عندها ولكنه خاف أن تستهجن ذلك منه لخلو المكان من الناس فقال « وابن والدك »

فتهدت وقالت لا ادري ابن هو الآن

فقال ما بالك تتهدين يا امي اني اراك تكتمين امراً هاماً

قالت لا اكرم شيئاً ولكني . . . . . وسكنت قال ولكم ماذا . قولني

قالت لا ادري ماذا اقول وانا لا انظر اليك الا وذكرته والدتي المسكينة التي

ذكرت اسمك وهي على فراش الموت . قالت امي ذلك وترقرقت الدموع في عينيها

فلما رأى محمد دموعها انظر قلبه لها وامسكها بيده وجوارحه تخننج وقال « رحم

الله تلك الوالدة فاني ما برحت منذ رأيتها وانا في شغل لا يهدأ لي بال قلقاً عليك وقد

كان يجب عليّ انا افتنك قبل الآن ولكن الشواغل الحاضرة حالت بيني وبين ما

اريد فان امر هذا الخليفة قد خبرنا وشغل بالنا فلا نكاد نرتق فتقاً حتى يبتنى غير

وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق نصف انغلاق فلم يتم محمد كلامه حتى

رأى مروان داخلاً وملاح الغضب تلوح على وجهه وقد جعل سيفه يساره فلما رآه

محمد على تلك الحال توسم الغدر في عينيه فنظر اليه شذراً ولم يعبأ به

اما مروان فقال وقد علاه الاصرار والبهتة « ما الذي جاء بك الى هذا المكان

يا ابن ابي بكر . » فقال محمد « ما شأنك وهذا السؤال وما انا في منزلك »

قال « بلى انك في دار الخليفة وقد دخلت على نساتنا بلا استئذان »

فاستغرب محمد قوله ونظر الى امي كأنه يستهينها بهزى تلك العبارة فاذا هي

تهول بقلب لا يهاب الموت

« ان مروان يتكلم من عند نفسه في ما لا يتأله باعة ولو مها تطاول »

فابتسم مروان ابتسام الاختلاف وقد تعاطف غبطة وقال « سلي والدك اذا كان

باضي يتالك ام لا »

قالت « دع الآباء وارجع من حيث اتيت والاسمعتك ما لا يرضيك »

فضحك مروان وتوكلأ بيده على سيفه وقال وبدت الاخرى على شاربه « اراك

تفررين بنفسك كأنك نسيت ما نالك في حضرة الخليفة الا تعلمين انك اذا بقيت

على غرورك ندمت حين لا ينفكك الدم »

فاستغرب محمد ذلك الجبال ولكنه ادرك ما في نفس مروان فانتدت في قلبه نار الغيبة وعظم عليه ذلك التطاول وحّم مروان يريد ضربته فاعترضت اسماء بينهما وقالت « دعه يا محمد لا أرى ما هو فاعل » قالت ذلك وتقدمت الى مروان وبدها على خنجرها كأنها تنهم باستلاله وقد اقطبت حاجبها وحشي غضبها حتى كاد الشرر يتطاير من عينيها فانذهل محمد لذلك الشجاعة ولم يكن يعود مثل ذلك في النساء فأراد ان ينف بينها وبين مروان فلم تكنه من ذلك

اما مروان فلما رأى ما كان من اسماء وادرك ان محمداً فجدتها خاف العاقبة وكان قد قبض على حسامه فرفع يده عن قرضته وتظاهر بالضحك ومكّ يده يريد ان يمك يد اسماء ويحاطبها فجدبت يدها وقالت « اسل حسامك وأرني شجاعتك وهذا ابن ابي بكر شاهد على المغلوب منا »

فقال مروان انظروا اني اجرد حسامي على فتاة اما دولابك يا اسماء فهو عندي . قال ذلك وخرج متظاهراً بالغضب وهو انما خرج خائفاً كاذباً وعوّل على التفتك باسماء غيلة

أما محمد فلما خرج مروان نظر الى اسماء فاذا هي قد علت وجعها مهاة اعظم الابطال وذهب عنها ذل الحزن وضعف النساء فأعجب بما خصها به الخالق من الهيبة والابنة فأمسكها بيدها وارجمها الى السرب قائلاً بورك بشهامتك يا اسماء ولكنني اراك قد اهتمت بهذا الشاب أكثر مما يستحق فاتركيه وشأنه

قالت وهي تحاول تخفيف غضبها « اني لا ابالي بشقشقتك والله لو انه حل عليّ بنة رجل مثله ما حسبت لم حساباً »

قال مالك واللاقامة في هذا المكان اذا تعالي نذهب معاً الى منزل علي فتقيمون ضيفة مكرمة

فقالت « أتريد يا محمد ان افرّ من هذا المكان كلاً وتره والذني لا ازال متعبة هنا حتى ارى ما يكون من امر هذا الغلام الغر »

قال التحسين ذلك فراراً

قالت نعم فدعني اقيم هنا لأرى ما يكون من امر  
فقال وما بهك منه دعوى وشأنه

قالت ههني طيبة الذي وسع الحرق والغضب المسلمين على الخليفة ولولا حماقة  
لاغفل المشكل وخاص الناس من التفتة

فغضب محمد كيف يخرج بها من ذلك المنزل وتدمه بفاؤها هناك غرة عليها فأحب  
ان يستطلع العلاقة بينها وبين مروان فقال وما الذي جعل له هذه الدالة عليك هل  
تعرفينه قبل اليوم

فتهدت وقد تذكرت « فيها وقالت وهي تدمر » اننا عرفناه من الشام وقد رافقنا  
بسفرتنا المشومة الى قبا. ثم دخل المدينة قبينا وهو الذي كان اسمه في موت والدي  
قبل وصول علي

فغضب محمد وقال وكيف سبب ذلك التأخير

قالت ان حديثنا يا محمد طويل يحتاج الى شرح ولكنني اقول بالاختصار ان  
هذا الشاب قد رافقنا من الشام المتبع كان في نسو يقصر عن ان يناله ولولا ضعف  
والدي وانجازه لما استطاع المسير معنا خطوة ولكن . . . . .

فقال واي مطمع

فلم تجب كأن الضعف والحياء قد عادا اليها فأطرقت صامئة

فهم محمد مرادها فازداد بغضاً لمروان وغرة على اسما. ولم يعد يصبر  
على بقاتها هناك وحدها ونظراً لما بعلمه من تنوؤ مروان لدى الخليفة خاف ان  
يوسطه في اقتناعها او استرضائها فتقبل هي يو ولو كرهاً ولما تصور محمد ذلك احسن  
بيوران هبت في بدو وازداد رغبة في خلع عثمان او قتله . فصمت برهة يتكز ثم قال وهو  
يريد ان يزيد كرهاً واحتقاراً لمروان « اني اعرف عن هذا الغلام ما لا يعرفه سواي  
فقد سمعت من اخوتي ام المؤمنين ( عائشة زوج النبي ) ان النبي ( صلعم ) لعنه وهو في  
صلب ابيو فقال لا يبو الحكم بن العاص « ويل لامي بما في صلب هذا » ( ١ )  
فماذا ترجون منه بعد ذلك فاصفي لتولي وتعالني معي فتقلص من وقاحه »

قالت اما الآن فلا اخرج من هنا لان في خروجي عاراً ولكنني ربما خرجت في  
فرصة اخرى

فبعت محمد وهو بود ان يشها ما خالج قلبه من حياها ويستطلع ضميرها ولكن الحياء

والهوية بمعناه عن ذلك فظال برهة صامتاً وهو لا يزال واقفاً بازاء السرير واساه جالسة مطرقة وقد خالج ضميرها مثل ما خالج ضمير من وهي أكثر حياء منه فظالت صامته تنتظر ان يفتح هو الحديث

## الفصل التاسع عشر

﴿ يزيد ﴾

فقال محمد اني لا ارى عاراً في خروجك من هذا المكان الى منزل علي وهو الذي كلني بذلك ولا اخفي عنك ان الامم وانبع على الخليفة فهو لن ينجو من الخلع او القتل وخصوصاً اذا ظل مصغياً لمشورة مروان فهياً بنا فهت في الجواب ولم تنك تامل حتى سمعت دعاء والدها ثم رأياه دخل بفتنة وقد عاد من سفر قريب فلما رآه محمد بفت وتغر من رؤيته لانه لم يكن يحسن الظن فيه اما يزيد فلحالما رأى محمداً تقدم اليه وحباه وتظاهر بالترحاب وسأله عن علي فاجابه محمد بهذا القول

فقال يزيد كيف مولانا ابو الحسن

قال هو في خير

قال ألا بنوي الخروج الى الحج فنبذ آناً اوانه (١) وارى الناس يتأهبون له

قال لا اظنه يستماع ذلك هذا الامام

فتال . . . ولما ذا

قال لان خروجه من المدينة تد بوجوب ارة آناً لما تعلين من اختلال الاحوال وكنه دعائي ان اسمح ودعني شرفتي ام المؤمنين ان اخرج معها الى الحج ولا اظني خارجاً (٢)

قالت ولما ذا

فلم يجب وكنه اشار بهلايح وجهه انه لا يرتاح باله في الخروج من المدينة طالما كانت هي في ذلك المكان على تلك الحال

فادركت اسماء انه يحبها ويفارحها ولكنها تجاهلت مخافة ان يذمها والدها  
شيئاً من ذلك

أما محمد فخطب يزيداً قائلاً . لقد جئكم مندوباً من مولاي ابي الحسن ادعوكم  
للنزول عنده اذا كنتم تريان في الائمة هنا تبعاً لجواركم من بيت الخليفة والناس  
يحيطون كما نرون

فقال يزيد لا اظن علينا بأساً هنا وقد فضّ الخلاف على ما سمعت  
فابدرته اسماء قائلة كيف بنصّ الخلاف وصدقتك مروان واقف بالمرصاد  
قال وما الذي فعلة

قالت بعد ان رضي الخليفة باسترضاء الثائرين واستعظامهم حرّضه مروان على  
الرجوع فعاد الامر كما كان عليه واظن محمداً اعلم منا بما ينوون لانه قادم من بينهم  
فهزّ محمد رأسه وقال نعم ان كلام مروان في صباح هذا اليوم قد وسع الخرق  
حتى استنحل الخطب ولم يعد تلافيو ممكناً وهذا ما خوّفني عليكما لفربكم من الخطر  
قال يزيد وما ذا ينوون

قال اذا لم ينل هؤلاء الناس ما يرجونه لا ادري ما تكون النتيجة كفانا الله  
شره الفتنة

قال والحيت والرياء ظاهران على وجوه اوامر نعصوا طيبو بغير حق وم انما  
جاؤوه يلتمسون الدنيا وفيهم من حقد عليه لمغرم فآتة بعدلو وآخرون لمحدث سمع  
من واشي مبغض وغيرهم لغير ذلك ولكنهم جاؤوا يتبعون الهدية على الاسلام  
قال محمد ( وقد أنف من جدالو ) « كل يعرف ما نواه » وسكت برهة . ثم قال  
والآن ألا تخرجان معي الى منزل علي قال يزيد لا نرى ثم حاجة الى ذلك الآن  
فنهض محمد وودعها وخرج وفي نفسه حزازات وحقد على مروان وخاف من  
عثمان اذا بقي على منصة الخلافة ان يكون عوناً لمروان في استرضاء اسماء  
اما هي فلم يكده بجوارى محمد حتى ندمت على بقائها هناك ولكن اغتمها لم تكن  
تأذن لها بالخروج في تلك الحال

## الفصل العشرون

## ﴿ الحيلة ﴾

اما يزيد فاستيقظ وسواسه لما رأى من اخلاء محمد بابته واصبح يخاف عليها منه اذا جاءها . مرة اخرى ففكر في حيلة لتعيبه من ذلك فاحسب ان يبغضه اليها فقال « ارى محمداً من جملة الناقمين على الخليفة ولكنني لا اظنك تعلمين سبب نتموه »  
قالت وما ذلك

قال قد علمت عن ثمة انه كان طامعاً في ولاية مصر وعليها عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخو الخليفة من الرضاة فلما لم يؤثر الخليفة على اخيه نعم عايو . وقد بلغني انه كان قد ولاء مصر ووجه اليها ثم رجع عن عزمه وارجعته عن الطريق (١) فعاد نائماً وهكذا شأن اكثر هؤلاء الناقمين وقد رأيتي لعت له بذلك فلم يجيب فاستنكرت اساءة من الطعن بمحمد وهي تشعر بانعطاف نحوه وميل شديد اليه لمسكت . وفكر يزيد بعد ذلك في ما باء من يو خروج اساءة الى علي فلم ير خيراً من ان يدخلها منزل الخليفة تقيم فيه محجورة . فتركها في العرفة وقصد نائلة وترامى على اقدامها وبكى

فقالت ما يبكيك يا ابا اساءة

قال يبكي حال ابنتي من الحزن والنوح على فقد والدتها وهي وحيدتي فلا آمن اذا بقيت مقبلة وحدها ان تصاب بجنون وكثيراً ما اراها تمتم بالخروج الى مدفن والدتها في قباء للندب والبكاء فاستنصها بالحسن فلا تمتنع ولا يخفى على مولاتي عاقبة الاحزان وابنتي كما تعلمين فتاة صغيرة لا تعلم من احوال الدنيا شيئاً . قال ذلك وشرق بدموعه مكرماً وخداعاً

فقالت نائلة وما ذا ترى ان نعمل بها

قال ارى ان تكون عندك وتحتم جناحك

فسرت نائلة بذلك الرأى لانها استأنست باسواء وارتاحت لحديثها واعجبت بشهامتها . فقالت لك علي ذلك فأت بها الوينا

قال اخاف اذا انا حملها على الحبي . ان لا تطيعني لفرط حزنها ولايتها اصحمت  
بعد هذه المصيبة التي داهمتنا نسي الظن بي وقد تعرضني في كل عمل اعملة وانا ارفق  
بها واسيرها مراعاة لعواطفها فاذا رأيت ان تدعيها انت كانت اطوع لك  
قالت اني فاعلة ذلك حبا وكرامة وقيمت بالتهوض والمسير اليها  
فاجتهدا يزيد فائلا وانقدم اليك يا مولاتي اذا اقامت عندك ان لا تأذني لما  
بالذهاب من منزلك قط لانهما قد تحال في الخروج لغرض تدعيه ولا يكون غرضها  
الا المسير الى قباء

قالت لن ترى سبيلا الى الخروج . فودعها يزيد وخرج  
اما اسماء فلما خلت بنفسها تذكرت مصائبها ومن اعظم تلك المصائب تسلط  
والدها الغادر فحلاها البكاء فاعتقت باب الغرفة واخذت تبكي وتندب سوء حظها .  
وفيها هي تبكي دخلت عليها نائلة فلما رأتها على تلك الحال تحققت قول والدها فهبت  
بها وجعلت نفيها وتعزيبها وقالت لها ما بالك تبكين يا اسماء لقد بالعت في الضرب  
وقد عهدتلك رابطة الجماش قوية الجنان وانت تعلمين ان لا فائنة من الحزن . فلم  
تردد اسماء الا بكاء حتى هاجت اشجان نائلة لتذكرها حال زوجها والمخاطر المحق  
بوقبكت معها

فلما رأتها اسماء تبكي شكرت مشاركتها ايهاا بتصابها وشعرت بتعزية داخلية  
وقالت ما الذي يبكيك يا سيدتي وانت زوج الخليفة امير المؤمنين مالك  
رقاب المسلمين

فازدادت نائلة بكاء وقالت «كيف لا تلمين سبب بكائي وقد شهدت بعينك  
ما احاط بنا من البلاء بطيش ذلك الشاب الغر»

فانقضت نفس اسماء عند الاشارة الى مروان وتهدت تنهدا عميقا واسان حالها  
ينول « ان ذلك الاحق هو سبب بلائي انا ايضا » ولكن الحياء منعها عن التكلم  
فطلت صامتة

اما نائلة فلما سكن روعها قالت انك يا اسماء واسطة تعزيتي في هذه المشاق فاذا  
كنت تحيينني تعالي نقيم معا في منزلنا  
فأنت اسماء على ذلك التنازل ومخيل لها ان حب نائلة قد يكون عونا لها على

التخلص من مروان اذا وسط الخليفة في تنبذ ما ربه فقالت اني طوع ارادتك باسديتي  
لان الاقامة تحت جناحك شرف عظيم لي  
فوقنت نائلة واستنفضت اسياء فنهضت معها وسارنا الى بيت نائلة

## الفصل الحادي والعشرون

— ❦ التهديد ❦ —

فصت اسياء بقية ذلك اليوم وهي تنكر تارة في مروان وطوراً في محمد وآونة في  
حالتها مع والدها وقد ندمت في باطن سرها لانها لم تذهب مع محمد الى منزل علي هلي  
انها استأنست بنائلة وارتاحت الى مجالستها وكذلك نائلة فانها اتخذت اسياء تعزية  
لها في ضيقتها لما آتته فيها من سداد الرأي وثبات الجماش وحسن الخلق وكانت قد  
ادركت نفورها من مروان وهي ليست اقل كرهاً لهما ولولا قرابته من الخليفة لفرعت  
له العصا ووقنته عند حده

ولما امسى المساء وتناولنا العشاء في غرفة المائة والخم والاربعون وقوفت بين  
ايديها والاضطراب ظاهر على وجوههم على غير المعتاد  
فلما فرغنا من الطعام وتحولنا الى حجرة الرقاد نادى نائلة قيم الدار فسألته عما  
هنالك من الخبر فأنكر اولاً ثم قال ان مولانا الخليفة لم يذق طعاماً في هذا المساء  
وهو في اضطراب وارتباك شديد

قالت وما الذي دعاه الى ذلك . قال الضيق ألم تنظري الى الناس حول  
الدار وعند الابواب فانهم قد حاصرونا ومنعوا الماء عنا

فبغيت نائلة وصاحت « وكيف يمنعونا الماء فيجهم الله »

قال لقد منعوه يا سيدتي ونحن انما نستفي الان مما بقي في الآنية من الامس ولا ندرى  
اذا ظل الحصار كيف نستفي . وهذا هو الامر الذي دعا مولاي امير المؤمنين الى الفلق  
فلاطمت نائلة كفتاً بكفت وصاحت وبلاء كيف يمنعون الماء عن امير المؤمنين  
ان علمهم هذا لا يشبه عمل المسلمين ولا الكافرين

فقالت اسياء لا يسوءك ذلك باخالة اني ضامنة لك الاستفاء ولو مها بالسع

هؤلاء في الحصار

قالت نائلة وكف تستطيعين ذلك

قالت يسهل الامر بأن يحمل الماء الى بيت جيرانكم آكل حزم ونحن ننقله سرّاً الى هذه الدار<sup>(١)</sup>

فارتاحت نائلة لهذا الرأي ولكنها ما زالت خائفة عاقبة الحصار فصرفت اليمّ وجلست الى اساء وهي تنهد وتناوّه واساء يمّون عليها . ولم تكذب تجلس حتى سمعت جلبة ووقع اقدام في الدار فنهضت مسرعة ولحها بترجرج لسمها ولم تكذب فتفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تزمل بعباءته وبقلد سلاحه كأنه تأهب لسفر فلما رآها سلم عليها وفتّم نحوها فاستعادت بالله من رؤيته وقالت ما الذي جاء بك يا مروان قال اني سافر في مهمة وقد جئت لوداعك . وهل تلك الفتاة الدمشقية عندهم قالت هي عندي وما غرضك منها اذهب في مهمتك

قال بل اريد ان اراها قبل سفري . قال ذلك ودخل الغرفة فلما رآته اساء اجفنت ولكنها لبست صامتة لا تتحرك فقال لما وهو يضحك « الا تزالين على قولك في منازلتي يا اساء »

قالت وهي لا تزال جالسة لا تعباً بقوله « لو كنت رجلاً حرّاً لنازلتني لما دعوتك للزوال »

قال لولم يطرأ عليّ السفر المستعجل لعلمتك كيف تؤكل الكنف واقهنتك ان ابن ابي بكر لا يغني عنك شيئاً

فلما سمعت احتقاره لعمد ثارت فيها الحمية وقالت « لا تذكر رجلاً في غيبتو فاذا حضر سكت ورجعت »

فاغرب في الضحك وقال سوف تترين وتسمعين ما تدمين عليه ندماً لا يبيدك ولسوف يذوق هو مرارة الحرمان من منصب طمحت انظاره اليو فنم من اجلو على امير المؤمنين وهاج المسلمين وحرص على التهمة

فاردت اساء ان تجيبه فاشارت اليها نائلة ان تكفّ وقالت لمروان سافر يا ولدي لعل في السفر راحة لنا ولك انما لم نر في اقامتك خيراً

فضحك مروان وقد حوّل مرادها الى المزاح وامسكها بيدها حتى توارى عن اسماء  
 وحس في اذنها قائلاً « احتفظي بها فاني عائد قريباً لكتابة الكتاب لانها والله  
 جميلة واراني احبها واغار عليها بالرغم عني ولا ارى بين بنات قریش اجمل منها ولا  
 اكمل ولكنها لا تزال صغيرة السن لا تعرف مقام الرجال »  
 فتركتها نائمة وتحولت الى الغرفة وهي تعجب لطيشه وبهوه  
 فلما حلت باسما عادت الى هواجسها وفكرت في ما هم فيه من الحصار فلم ترَ  
 وسيلة للملافاة التينة الا بتوسط عليّ ولكنها تذكرت مقاتله يوم اجتمعهم بالاسس وتغدير  
 زوجها من اغراء مروان فخفت انه لن يقدم لصرته فصبرت تنسها لثرى ما يأتي به الغد  
 اما اسماء فانها سرّت لخروج مروان من المدينة لعلها تتمكن في أثناء غيابها من  
 وسيلة تصلح بها ما اقصت

## الفصل الثاني والعشرون

﴿ التحريض على السلام ﴾

وقضت اسماء في دار عثمان بضعة اسابيع على تلك الحال كانت في اثنائها تعزية  
 كبرى لثائلة والدار محاطة بالرجال ليلاً ونهاراً وقد منعوا الماء عنها ولولا ما اشارت  
 به اسماء من الاستقاء بواسطة آل حزم (١) ملأت اهل الدار عطشاً  
 اما ثائلة فلم تعد تستطيع صبراً على تلك الحال فاصحبت ذات يوم وقد قضت  
 ليلتها باكية لما تراكم عليها من الهواجس وما آنته من اضطراب زوجها وقتله وخوفه  
 ففكرت في الامر طويلاً فلم ترَ خيراً من استنجاد عليّ فشكت همها سرّاً الى اسماء  
 واستخفت حبيبها . فاستهلّت اسماء كل صعب في سبيل اخاد تلك التينة وطاقاد عثمان  
 من عاقبتها . فقالت لثائلة اني عارضة عليك رأياً ارجوان نوافقي عليه  
 قالت وما هو

قالت ارى ان اسيرانا الى عليّ ومروان غائب واطلعت على جلبة الواقع فلعله

(١) ابن خلدون

بعضي في اخذ الفتنة وهو رجل الخبير و هو صلاح هذه الامة  
 قالت لقد رأيت الصواب وانك اذا فعلت ذلك تقلدني جيلاً لا انساء  
 قالت اني ذاهبة في مساء الليلة خفية والله ولي الامر  
 فلما كان الغروب تزملت بلباس الرجال وتقلدت الحسام تحت العباءة وغطت  
 رأسها بالكوفية والعقال وخرجت من دار عثمان الى بيت بني حزم وخرجت منه  
 تخدق الجموع وسارت نائس بيت علي

وكان علي جالساً في بيته بعد صلاة الغروب وعند طلوعه والزيير وامراه المسلمين  
 القادمين من الامصار نعمة على عثمان وكلمهم بمرضون الناس على الانتقام ولكنها لم تجد  
 محمد بن ابي بكر بينهم . وشاهدت في فناء البيت جماهير الناس من اهل مصر والكوفة  
 والبصرة في ضجة وغوغاه . فوقفت في جملة الواقفين ولم يشبهه لما احد فصمعت الامراء  
 يلفطون ويضجون وكلم بقول بنقل عثمان او خلعوا وعلي يخفف عنهم ويوجههم على  
 ما ارادوا من الشر وهو يقول « والله يا قوم لا ارى في مثل هذا الخليفة الا تماظم  
 الفتنة انكم والله ستختلفون على من يلي الخلافة بعد فانهو عليها خيراً لكم »

فانشرح صدر اماء لشهامة علي ودفاعه ولم تتالك عن الدخول فدخلت وهي  
 في ذلك اللباس ودنت من علي فنظر اليها وقد عجب لجرأتها وهو يحسبها من بعض  
 الواقفين خارجاً . فنظر اليها مستنهماً والفتت الامراء اليها فكشفت عن وجهها فلما  
 رآها علي عرفها فاستغرب دخولها وهاب منظرها وقد علاها الغضب وتجلت في وجهها  
 المهابة . فقال اهلاً بفتاننا ومرحباً ما الذي جاء بك

فاستغرب المحصور كلامها ولم لا يعرفونها ولشوا ينتظرون ما يبدو منها  
 اما هي فوقفت بين ايديهم بلباس لا يهاب الموت وقالت « انسحون لتنازعن قول كلمة  
 في مصلحة المسلمين وتكشف لكم التنازع عن حقيقة الواقع بعد ان خبرت الامر بنفسها »  
 قال علي تكلمي يا بنت

قالت اغلقوا هذا الباب وكفوا الناس عن السماع  
 فامر علي الجماهير ان يخرجوا من الدار واغلق الباب وامرها بالجلوس فاعتذرت  
 بانها تنزل الوقوف بين يدي ثم قالت « يا معشر المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول  
 انكم والله شاهدوا اذا اردتم مامر المؤمنين شرراً لظالمين وهو بري لا يستوجب قتلاً ان

خلعاً ولا اظنكم اذا قتلتموه او خلعتنوه الا نادمين ساعة لا يبيع الندم «  
فاصطفى الجميع وهم يعجبون لتلك الجسارة من فتاة حديثة السن بين يدي اعظم  
الصحابة وايضا صامتين يسمعون ما نقول

فقال « اما اذا شتم اخماد التينة فاقتلوا اصل الشر . اقول مروان بن الحكم فانه  
سبب ذلك البلاء العظيم . ان الخليفة ابها الامراء بري ما يتفوهه الناس عنه وهو كما  
تعلمون من خيرة الصحابة شقوق رأوف (١) ورد على ذلك انه اذعن واعذر جهاراً  
على سمع من المسلمين وكلهم سمعوه . ولكن ابن عمرو مروان ذلك الغلام الغر هو الذي  
ينعل ما ينعله من عند نفسه فلا تقتلوا البري بالمذنب . اقول مروان بن الحكم فيستقيم  
الامر اما اذا اصاب الخليفة ضيم فانتم المسئولون امام الدين العظيم . قد كناكم انكم  
منعتم عنه الماء اربعين يوماً ولا يعلم ما يقاسوه من جراء ذلك الا الذين يعاشرونه «  
فيهدت الجميع لنصاحة اساء وثبات جاشها وجسارها وجعلوا ينظرون بعضهم  
الى بعض وهم يعجبون

فالتفت علي<sup>ص</sup> اليهم وقال « هذا والله ما اراه يا اصحاب رسول الله ( صلعم ) ان  
سيمان اذعن واستغفر ولولا ابن عمرو لرقدت التينة وارى كلامه من العذراء صوتاً من  
اصوات الملائكة «

فقال طلحة « وكنتا لم نال جهداً في نصحو ليرجع عن مشورة ابن عمرو وهو يصني الهو  
ويحمل بتولوه اما سمعت ما قاله مروان على مشهد من المسلمين «

فقال علي<sup>ص</sup> « وما ادراك ان كلامه لم يكن من عند نسي . يكفيننا توبيحاً ونحن  
اصحاب الرسول ( صلعم ) ان ننف فينا البنات العذارى موقف الباعظين بجرضنا  
على العمل بسنة المسلمين . ومها كان من صبركم ونصحكم فاني اكثركم صبراً عليه ولقد نصحت  
مراراً وخرجت من مجلسه في آخر مرة وقد عاهدت نسي ان لا انوسط في امره . ولكنني  
لما طلعت بئع الماء عنه ركبت مغلماً الى محاصريه وهم وقوف على بابي ووجنهم وقلت  
لم ( يا ايها الناس ان هذا العمل لا يشبه امر المؤمنين ولا الكافرين وانما الامر عند  
فارس والروم يطعم ويسقى ) فلم التى منهم مصغياً . ثم وجه كلامه الى اساء . وقال  
والحق يقال « ان كلاماً من هؤلاء الاصحاب قد دافع عنه وسعى في مصلحوه حتى ان

أم حبيبة زوج الرسول ( صلعم ) ركبت اليو بغلتها وحملت عليها وعاء فيه ماء  
ونظّهرت أنها تريد أن تقابله وتكلمه عن وصايا عندك لبني أمية أو يملك أموال  
إيتامهم وإراملهم فقالوا لا والله وضربوا بغلتها ففترت وكادت تسقط عننا فذهب بها  
الناس إلى بيتها<sup>(١)</sup> أما أنت فيورك فيك يا بنية والله أنك إنما جئت لخبر « ثم  
نظر إلى من حوله ونادى الحسن والحسين ابنيو فجاهأ فقال « اذهبا إلى بيت أمير  
المؤمنين ودافعا عنه بسلاحكما وأرجعا الناس عن بابي وأنت يا طلحة أرسل ابنك  
وأنت يا زبير أرسل ابنك أيضا » فنادى كل منهما ابنة . ثم قال علي<sup>(٢)</sup> « وابن محمد »  
فقالوا وإبي محمد نعي

قال اعني « محمد بن ابي بكر ابن هو » فجعلوا يتساءلون عن مكانه فلم يعثر عليه  
أحد فتأفف علي<sup>(٣)</sup> وهز رأسه وقال « اني والله خائف مما في نفس محمد على الخليفة »  
فعلت أسماء أن محمدا حائدا على الخليفة انتقاما من مروان فلبثت تنتظر ما يقال عنه  
لعلها تعرف مقرة . فلما لم يعثر عليه أحد . ثم قال علي لابنوه ولسائر أبناء الصحابة « سيروا  
بجراحة الله ولا تألوا جهما في الدفاع عن حياة أمير المؤمنين ورد الناس عن بابي  
وإذا رأيتم ابن ابي بكر انذروني اني والله خائف مما يضره »

فقال طلحة « انظنه حائدا عليو منذ ارجعه عن ولاية مصر »<sup>(٤)</sup> . فنظر علي<sup>(٥)</sup> إلى  
طلحة ولم يجب . ففهم انه لا يريد ذكر ذلك . فسار أبناء الصحابة وقد هاج الناس  
وما جوا وكلمت إلى أسماء ليرى وجه التي تتكلم مثل ذلك الكلام . اما هي فتعولت  
من لان الجاهل وخرجت ولم يعد يراها احد

## الفصل الثالث والعشرون

### ﴿ العقد المزور ﴾

عادت أسماء وهي تفكر في محمد وخافت أن تكون غيرته من مروان قد حملته  
على التنك بعثمان فعولت على مراقبة ذلك وهي في دار عثمان فاذا تحققت ما ينوي

محمد وكان فيه اذى لعثمان حوله عن عزمه لانها اصحبت بعد سعيها في نجاة عثمان  
أكثر ضناً بمجانته من امرأته نائلة

أما نائلة فمكثت في البيت بعد ذهاب اسماء وهي على مثل الحجر والليل قد سدل  
نقابه فجلست في غرفتها تنتظر عودتها وهي تضمر لها كل خير اذا جاءتها بالفرج  
وفيا هي تنكر في ذلك والغوغاه تتزايد حول الدار خطر لها ان تسير الى زوجها  
تستطلع حالة فخرجت الى الدار وتحولت الى غرفته فرأت مروان خارجاً من عنده  
فاستعادت بالله من رؤيته . اما هو فاعترضها قائلاً لا تدخلي على الخليفة انه في  
شاغل ارجعي الى غرفتك . قال ذلك وعلى وجهه امارات الاضطراب . فلم تستطع  
نائلة معارضته لانه كاتب الخليفة وحامل ختمه <sup>(١)</sup> فرجعت وهو يتبعها حتى وصلت  
غرفتها فدخل هو معها ونظر في جوانب الغرفة فلم ير اسماء فقال واين هي اسماء

قالت انها آتية قريباً

قال ألعها خرجت من هذه الدار

قالت لا ولكنها مشغولة في امر ولا تلبث ان تعود فاخبرني ما بال الخليفة وما  
الذي شغله الآن

قال لم يشغله شيء ولكنه يصلي منفرداً والقرآن بين يديه . فصدقته نائلة وصمت  
اما هو فكرر السؤال عن اسماء فقالت قلت لك انها قادمة قريباً . فتركها ورجع  
ولبثت هي تنتظر عود اسماء بنارغ الصبر مخافة ان يعلم مروان بخرجها فيجئال  
في ضررها . ولم تكد تجلس حتى سمعت ضجيجاً في صحن الدار فاطلّت من خلال الباب  
فرأت جمعاً داخلاً وفيهم الحسن والحسين وابناء الصحابة فخافت ان يكون في قدومهم  
شراً ولكنها ما لبثت ان سمعت الحسن يخاطب اهل المنزل ويطلب خاطرهم وهو يقول  
لا تخافوا اننا جئنا للذب عن الخليفة . فادركت انهم انما جاؤوا لمساعي اسماء . وبعد  
هنيهة رأت اسماء داخلة وهي لا تزال متحركة فاستقبلها باشة واستطلعها الخبر فطمأنتها  
ان الصحابة انما ارسلوا ابناهم للدفاع عن الخليفة وارجاع الناس عن بائس <sup>(٢)</sup>

فسرّت نائلة وهدأ روعها وشعرت بنض اسماء ورأت ان تسعى في افاذاها من  
مروان فاحتمالت في الدخول على الخليفة فاذا هو جالس والقرآن بين يديه يقرأ

وبصلي صائماً<sup>(١)</sup> ولا يلتفت ببينا ولا ثيالاً . فدننت منه بجنفة فاتتبه لما فقال ما الذي جاء بك يا نائلة . قالت انما جئت اتقصد امير المؤمنين واخطت ان في الدار الحسن والحسين وسائر ابناء الصحابة وقد جاؤوا بعدتهم وسلاحهم يدفعون الناس عن بابنا

فقال وهو لا يزال ينظر في صفحات القرآن « لا حاجة لي الى دفاع ولا اريد ان يهريق بسبي محب من الدم » قال ذلك وعاد الى القراءة فعجبت نائلة ذلك وارادت ان تذكر اسماء لدهو فلم تر سبيلا الى ذكرها فعادت الى غرفتها وقضت تلك الليلة لم يمس جناها واساء تعزبها ونسبها ولولا ذلك لمانت قلناً ورعباً . وقد كانت تسمع النوايا حول الدار وعند بابها ولا تجبراً ان تظلل

اما اسماء فلما علمت بعودة مروان من سفره تظاهرت بالذهاب الى الفراش لئلا تراه تلك الليلة وبات ابناء الصحابة في الدار سهارى نارة يتهددون الواقفين عند الباب وطوراً يتوعدوهم وكل اهل النصر في اضطراب وقلق الا عثمان فانه قضى ليلته بقرأ القرآن وبصلي

وفي الصباح التالي استيقظت اسماء على صوت مروان في غرفتها ونائلة جالسة الى جانبها فجلست في السرير واستعادت بالله

فقال لها مروان « ما الذي خرج بك من هذه الدار »

فقالت « وما شأنك وخروجي اودخولي »

قال « كيف لا وانت امرأتى وقد كُتِبَ كتابك عليّ »

فأجملت اسماء ايما اجفال وصاحت « خست يا نذل الرجال اني لا اعرفك ولا اريد ان اعرفك دع عنك هذا المذبان »

فمد مروان يده الى جيبه واستخرج رقماً عليه كتابة وقال « اليس هذا كتاب العقد وعلوه ختم الخليفة » فنظرت اسماء وبائلة اليه فرأنا الختم حقيقة فهبتا

اما اسماء فتبسمت وهي لا تعباً بهتدين وقالت « قد عرفناك قبل اليوم تزور الكتب على لسان امير المؤمنين ان الخليفة بريء من هذه الاعمال ولم يخطئ الا لانه جعلك كاتبه . اما كمالك ما سينه من الشر بتزوير الكتب حتى جئت لتعمل كتاب

العقد ايضاً فترتكب التزوير في الدنيا والاخرة . ان هذا البلاء كله من تزويرك ذلك

الكتاب على لسان الخليفة الى والي مصر<sup>(١)</sup> وكان الناس قد عادوا الى بلادهم فارجمعهم وايقظت النعنة فارجع هذا الكتاب الى جيبك واخرج من هذه الغرفة قبل ان اذيقك الهوان» قالت ذلك وهمت به وهي تستخرج خنجرها من بين اثوابها وكان لا يبارق جنبها قط . فارادت نائلة ان تُعدها فأفلتت منها واغارت على مروان تريد قتله فاخلى من ضربتها وهم بجريده حسامه والهجوم عليها فسمع ضجة عظيمة في صحن الدار وصوتاً ينادي مروان مروان فخرج مسرعاً والسيف في يده

## الفصل الرابع والعشرون

### ﴿ مقتل عثمان ﴾

ولم يلبثوا ان رأوا الدخان يتصاعد من جهة باب الدار فظنوا الحريق قد لعب فيها فاجلوا وماجلوا واشتغل كل بنسوة فصاحت نائلة وبلاء قد احرقونا وقتلونا وهرولت مسرعة الى غرفة زوجها

اما اسماء فاطلت من نافذة الغرفة الى باب الدار خارجاً فرأت الناس قد تجهمروا هناك وعددم يزيد على الف نفس وجعلوا يرمون النار بالنبال حتى اصيب بها كثيرون<sup>(٢)</sup> ورأت بعضهم ففجوا الخوخة وهجموا يريدون الدخول منها وابناه الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدافعونهم . ورأت آخرين يرمون الامراس ليزلزلوا بها الى الدار واخرين قد اوقدوا النار في السقينة فوق الباب ليجرقوها ويحرقوا الباب معاً . وسمعت الجاهل بصيحاتهم بصوت واحد « ادفعوا اليها مروان فنقتله وكفى »<sup>(٣)</sup> فاضطربت اسماء وتحولت عن النافذة وخنجرها لا يزال في يدها وسارت نحو غرفة عثمان لعلها تنقذ بتسليم مروان فينجوهو . فرأت الدار مملأى بالناس وقد دخل معظمهم من جهة دار بني حزم ورأت مروان في جملتهم ويده السيف يريد ان يدفعهم ففهم عليه احدم وضربه بالسيف على عنقه فداردورة ووقع فصاحت اسماء « بورك فيك اذا قتلتها فانه اضل الشركاء » ولكن الضربة لم تكن قاضية بل قطع احد علياويه فعاش مروان بعد ذلك او قص<sup>(٤)</sup> ولكن اسماء ظنته

مات فتركته وسارت بين الجاهل الى غرفة الخليفة فرأته جالساً والقرآن بين يديه  
وعند نائلة واقفة والدموع مل عينها فتأثرت لمنظرها

ولم تكده تقف حتى دخل الحسن والحسين واولاد الصحابة وفي ايديهم السيوف  
مسلوة ورأت ثياب الحسن مصبوغة بالدم<sup>(١)</sup> وكان عثمان لما سمع بدفاعهم عند باب  
داره خاف عليهم فبعث يستقدمهم اليه ليردعهم عن ذلك فقال لهم «اغمدوا السيوف  
وارجعوا فان الله قد عهد الي عهدنا وانا صابر عليه وقد علمت ان الناس قد احرقوا  
المتينة فلم يجرقوها الا وهم يطلبون ما هو اعظم» ثم وجه خطابه الى الحسن قائلاً  
«ارجع يا بني ان اباك الآن في شاغل عظيم من امرك فاقسمت عليك لما خرجت  
اليه» اما الحسن وسائر ابناء الصحابة فلم يصغوا لتوكله فعادوا للدفاعه وظل هو  
جالساً على منعد يقرأ ولا يبالي بالغوغاء وليس عنده في الغرفة الا نائلة<sup>(٢)</sup>

وكانت أسماء واقفة هناك على حدة وقلباها يخفق خوفاً عليه فما لبثت ان رأت رجلاً  
من قریش دخل عليه وقال له «اخلمها ( اي الخليفة ) وتدعك» فقال عثمان  
«ويحك والله ما كنتُ امرأة في جاهلية ولا اسلام ولا تغيبت ولا تمنيت ولا وضعت  
يدي على عورتي منذ بايعت رسول الله ( صلعم ) ولست خالماً قبيحاً كسانيه الله تعالى  
حتى يكرم اهل السعادة ويهين اهل الشقاوة» فخرج الرجل . ثم رأت رجلاً عرفت  
بعد ذلك انه عبد الله بن سلام فوقف في الناس وقال «يا قوم لا تسلبوا سيف الله  
فيكم فوالله ان سلتموه لانتموه وياكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدرة ( السوط ) فان  
قتلتموه ( أي الخليفة ) لا يقوم الا بالسيف . وياكم ان مدينتكم محنوفة بالملائكة  
فان قتلتموه لتتركها»<sup>(٣)</sup> فصاحوا فيه «ما انت وهذا يا ابن اليهودية» فسكت  
كل ذلك واسماء واقفة مضطربة القلب لا تدري ماذا تعمل وكانت قد نظمت  
بما اصاب مروان لظلمها انه قتل ثم ما لبثت ان رأت محمد ابن ابي بكر دخل مسرعاً  
وراءه جماعة ولم ينتبه لها وما زال حتى ~~دخل~~ من عثمان . فواجهت من قدومه خوفاً  
لعلها بما في نفسه فقال له عثمان «وياك اهل الله تغضب هل لي اليك جرم الا حقة  
اخذته منك» فامسكته محمد بلعيقه وقال «قد اخزاك الله يا عثل» ( وكان عثل  
لقباً بالقبول بن عثمان ) فقال عثمان «لست بعثل ولكني عثمان وامير المؤمنين»

قال محمد « ما اعنى عنك معاوية وفلان وفلان »  
 فقال عثمان « يا ابن اخي فما كان ابوك ليقض عليها » اي على لحيتي  
 فقال محمد « لوراك ابي تعمل هذه الاعمال انكرها عليك والذي اريد بك اثمة  
 من قبضي عليها »

فقال « استصر الله عليك واستمعين يو »

فلما رأت اسماة ما دار بينها خافت ان يفتك محمد بالخباية فيكون ذلك  
 نقطة سوداء في تاريخي . فدنست منه ووقفت بحيث يراها واشارت اليه ان يكف  
 عما هو فيه وان يتبعها حالاً . فلما رآها محمد ترك لحية عثمان وخرج يستنهم اسماة عما  
 تريد . فانفردت به جانباً وقالت له من اين دخلت الدار

قال دخلت من دار بني حزم (١)

فقالته وانت ايضا على عثمان . واخبرته انه بري لا ما ينسونه اليه  
 ولم تكذبين له ذلك حتى سمعت صباح نائلة فاسرعت اليها فاذا هي قد حلت  
 شعرها ونشرته وعثمان يقول لها « خذي خمارك فلهصري لدخولم علي اعظم من حرمة  
 شعرك » (٢)

ثم رأت رجلاً ممن دخلوا مع محمد بن ابي بكر ثم بعثان ويدها حديدية ضربة  
 بها على رأسه فسال دمه على المصحف فتبعه آخر لضربة بالسيف فاكتت نائلة عليه  
 والتمت السيف بيدها فقطع اصابعها (٣) . ففارت الحمية برأس اسماة فهتت بخنجرها  
 تريد قتل ذلك الرجل فامسكها محمد عن ذلك ولم يبق لحظات قليلة حتى قتل  
 عثمان وفرّ قاتلوه

فلما رآته نائلة مقتولاً حملت يدها والدم يسيل منها وخرجت من الغرفة وهي تبكي  
 ونادت الحسن والحسين فدخلا فرأيا عثمان مذبوحاً يجنبت بدماء (٤) فصاحا قائلتين  
 كيف يقتل عثمان ونحن في داره ما الذي نوله لوالدنا اذا سألنا عن ذلك  
 اما اسماة فلم تتالك عن البكاء ولكنها لتفتها على القاتل جعلت تنظر يمنة ويسرة  
 لعلها تراه فاذا هو قد فرّ وهافت الناس على بيت عثمان للهب والسلب وعلت  
 الغوغاه واشتغل كل بنته

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) الاغانى ج ١٥ (٣) ابن الاثير ج ٢ (٤) العقد الفريد ج ٢

## الفصل الخامس والعشرون

﴿ محمد واسماء ﴾

أما محمد فهم باسماء واسمها يدها وقال ابن عربي فتبعته حتى خرج بها من الدار وهي تود البقاء لثري ما يكون من حال نائلة ولكنها رافقت محمداً طوعاً لميل قلبها . فلما رأت نفسها خارجاً ومحمد ممسك بها تذكرت ليلة خلت به في قبر النبي ولم تكن تعرفه فهاجت انجانبها فوفقت بغنة تجذبها محمد فتبعته حتى وصلا الى خلوة بازاء نخلة عظيمة فوفقت في ظلها وجذبت يدها من يد وقالته الى ابن غن ذاهبون يا محمد قال هل ترين لك ما رأيت في دار عثمان بعد . لقد فصحت لك ان تخرجي منه منذ

ايام فلم تقبلي حتى رأيت قتلة بعينيك وهذا ما كنت اخافه عليك

قالت انكم ظلمتموه يا محمد ولو استطعت انفاذه من ايديكم لنعمت . . . . . نأ لمروان انه سب هذا البلا . قالت ذلك واغرورقت عينها بالدموع

فقال محمد دعينا من الظلم والعدل فقد قتل عثمان ولا خير في الواقع ولم يعد بقاؤك في داره ممكناً والناس قد دخلوها وشؤوا بهيها . فافصحي الآن عن رأيتك ان الوقت ضيق والامر جليل ولا استطيع البقاء معك الا قليلاً

قالت وماذا تريد مني

فاسمكها يدها وضغط على اناملها وقال ألا تعلمين ما الذي اريد

قالت نفسي تحدثني . . . . . وسكنت

قال ارجوان يكون قلبك بجدتك لا نسك . قولي حالاً

قالت يظهر لي ان مقتل عثمان لم يهك . ابي والله لا استطيع تذكر حاله وقد

فارقناه والدم يجري من عفتي

فتهد محمد وقال انظري لم آسف لوني

قالت لا اظنك آسأ وانت الاديء بالقتل . والله لو لم يسبق الى قلبي سابق

. . . . . ما استطعت النظر اليك

قال اراك توجعيني وما هذا وقت التويخ ولو شرحت لك سبب هذه التنة

لطلال بنا المقام ونحن في حال تدعو الى المبادرة واكتفي سوف ابسط لك حفيظة الواقع فتعذريني . واما الآن فاني مسرع الى منزل علي لاني اتوقع خلافاً عظيماً يقع بين الصحابة ولا بد لي من حضور مجلسهم . واما انت فلا أرى ان تنمي هنا والحال في اضطراب

قالت الي صابرة حتى اسمع عذرك في قتل خليفة الرسول فان لم ازل ما تُعذر يو على قتله . . . . . وسكنت وهي تنظر الى الارض حياء ما كاد ينطق بلسانها فاعجبت حربة ضميرها وصحة مبادئها ونسب وازدادت بهلاً لها وقال « اني واثق بانني سأرى نبي من تبعه التفت ظالمًا فاصبري حتى يجتمع على سكينه واذهي الآن الي ما من »

قالت الي ابن اذهب وانعمتي وجوادي لا تزال في دار عثمان قال لك علي تخليصها أما ذهابك فلا اقول الي ابن قبل ان اعرف ضميرك فهل انت فاجه مرادي . قالت وما مرادك

قال اقول لك بالاختصار اني احبك فهل انت تحبيني فعلت وجهها حرق الخجل وارخت النمام على وجهها ولم تحب قال اليك لم تزيدني بهذا الخجل الا ثقة بحبك . فاعلي يا امساء اني عازم على ان ارجعك من انعامك واخلفك من والدك . . . . . او الذي يدعي انه والدك . وقد تركك منذ ايام ولا اظنك تعلمين مني . أما مروان فلا فضل لي في اتقاذك منه وقد نال نصيبه . . . . .

فلم يكذب يذكر اسم مروان حتى نهبت اسماء وقالت قبح الله مروان انه سبب هذا البلاء وقد كنت اود اني قتلتك بيدي لاشني غلبي منه

قال لا اظنك قتل فقد تركته في الدار بعصب عقة على اثر جرح اصابه دعينا منه ومن اسماء . أما والدك الشيخ الغر فلا اظنك يجرأ على الظهور بعد مقتل عثمان وارجوان لا تدعيو والدك بعد الآن فانه بعيد عن هذا اللتب بعد الارض عن السماء . وها اني ذاهب الي بيت علي وهو الذي سبب الخلاف لانه احق بها من الجميع . واكتفي لا اظنك يتألمها الا بعد خلاف عظيم فلا آمن اذا كنت في منزلي من شر يصوبك فارى ان اذهب بك الي ما من تبين فهو حتى تهدأ الأحوال فتعيش معاً باذن الله

ألا ترين ذلك

فاطرت اسماء وقد هاجت اشجانها وتذكرت والدها وهي لم تأسف لفراقها لكنها  
اسفت لفراقها نائلة في حال حزنها واضطرابها وزوجها ماني على الارض قبلاً . على  
انها شعلت بها بخناج قلبها من حب محمد وهو الذي اول ما رآته أخته مجرد ذكر  
والدتها اسماء واصبحت بعد ما علمت من منزلته عند علي وانه ابن اول الخلفاء شديدة  
الميل اليه فظلمت ربه صامته بهم بالكلام وبمنعها الحياء وقد ذهبت منها تلك الجراءة  
والثبات تلك المحبة التي كانت تحمر بها اعظم الرجال وشعرت للحال بخنقان قلبها  
وهياج عواطفها فابرت اسرتها ولألات عينها وكان لسان حالها يقول « ان الله  
قد يتوبني ولكنه نظر الى حزني فحببني الى خيرة ابناء الصحابة »

فأدرك محمد انها تكتم حبه فلم يشأ ان يضغط على عواطفها فقال لها قد  
لهئت مرادك يا اسماء وفي ابني الآن ان اذمب بك الى إحدى ذوات قرابي سبغ  
بعض اطراف المدينة نفهم عندها ربنا تنضي الازمة التي نحن فيها ونعهد الكفالة الى  
علي فيرجع الامر اليها ويعود السلطان الى قبضة ما فقيم في رضاء وبنائه باذن الله .  
قال ذلك ومضى فمشت وهي لا تتكلم حتى انتهى بها الى منزل في طرف المدينة فدخلت  
واذا فيها امرأة عجوز لم تكدر ترى محمداً حتى قامت به وقبلته ورحبت به  
فقال لها لقد جئتك باعز شيء عندي ارجو ان تمنحني بها لم حول وجهه الى  
اسماه وقال امكبي هنا يا اسماء ربما اعود ولا تضجيري اذا طال غيابي

فقال لا تندرني اطول الغياب اذ ربما لا استطيع صبراً على البقاء هنا  
فقال العجوز أعلك خنص الافامة عندنا يا ابني والله اني أكثر عناية بك من  
ولدي هذا - وأشارت الى محمد ثم اخذتها بيدها ودخلت بها وودعها محمد وخرج

## الفصل السادس والعشرون

- مدفن عثمان -

فلما خلت اسماء بالعجوز احسبت بالوحشة فالتفت غرفة دخلت اليها لتغلو بناتها  
فلم تكده تفعل حتى تصورت عثمان مطروحاً ونائلة وافنة فوق رأسه وقد حلت شعرها

واخذت تلطم خديها وتندب زوجها . فلما نصورت اسماء ذلك افسعرت بدنها وتصدت على مجيئها ومغادرة نائلة في تلك الحال

فقضت بقية ذلك اليوم منفردة كثيرة ولما امسى المساء توسدت الفراش تلبس النوم فلم يغض جنبها ولا غابت صورة دار عثمان من امامها

فقضت ليلتها تنقلب على مثل الجمر نارة تنكر في محمدا وطورا في والدها وهي لا تعرف ابن هوانة في عثمان ونائلة حتى مضى مزج من الليل فغلب عليها النعاس فنامت فاصبحت في اليوم التالي وضهرها بيكتها على فخرها صديقتها نائلة في ساعة الضيق وحدتها تنسها ان تسير اليها ولكنها خافت ان يجيء محمد في اثناء غيابها فينصب فيضى النهار ولم يأت محمد فاستغل بالها عليه على انها التمس الفراش باكرًا لعلها تنام فتعوض عن سهرها بالامس وتسي هواجسها فلم تم الا لحظات منقطعة

واغمضت جنبها عند الفجر فرأت طيف نائلة في حالة يرثى لها من الكآبة والحزن وقد احمرت عنانها ونقطع شعرها من البكاء والندب واللعن . فلما تخيلتها اسماء على تلك الحال ضلب الفخيل عليها وشعرت ان خيال نائلة يوتئها على خروجها من عندها في ذلك الحزن فأفاقته مدعورة باكبة وقد بلل الدمع وسادتها فنظرت الى السماء فرأت الشمس قد طلعت فعولت على المسير الى دار عثمان فتندد حال نائلة من بعدها ولكنها تذكرت ان محمدا اوصى العجوز بالاحتفاظ بها فخافت اذا ارادت الخروج ان تمنعها فقضت ذلك النهار قلقة مضطربة وهي تتردد بين الذهاب والبقاء حتى امسى المساء وذهبت الى منامها فجمعت ثقلها على الفراش كما انها توسدت شوگا فانضى نصف الليل ولم تطيق جنبها قلنا على نائلة وحالها حتى اشدد بها الفلق ولم تعد تستطيع صبرا فتمضت وليست ثيابها ونقلدت الخنجر كعادتها في مثل هذه الحال وانطلقت تطلب دار عثمان على عجل وهي لا تشعر ببريد لان الوقت كان صيفا (١١) وجعلت طريقها في اطراف المدينة لئلا يراها احد على انها لم تكن تخاف رقبا وقد مئرت وجهها بالنتاب

ولم تكده تمشي هندية حتى رأت اسماءا قد سمت فيهم فعرفت من قيامتهم انهم من

(١) لان عثمان قتل في ذي الحجة سنة ٣٥ هجرية بلا خلاف وعمر يوافق شهر يونيو

( حزيران ) سنة ٦٥٦ م ( التقويم العام )

بني أمية يهرعون بين راكب وماشي فراراً من المدينة كأن احداً يطاردهم . فسارت  
محاذاة لبعض الجدران حتى مرّت مخافة ان يكون مروان معهم فبعرفها وقد طمت  
ببقاؤها بعد تلك الضربة . فطال بها المسير ولم تصل دار عثمان لانها كانت تجهل  
الطرق فارادت الرجوع الى منزل العجوز فلم تعد تعرف الطريق . وكان الثبر قد دنا  
وطلع الشفق فخبيل لها انها اذا اشرفت على المدينة من مرتفع تكنت من تعين مكان  
الجامع فاذا عرفته عرفت منزل عثمان . فقالت نحو سور المدينة في مكان خارج البقع  
وهناك ارض مهبورة قل من يمر فيها . ولم تك تدرك المكان حتى رأت بضعة  
عشر رجلاً مهرولين عن بعد وفيهم اناس يحملون لوحاً عليه شيء . فظننتهم من جملة  
المارين يحملون امنة وانهم انما طلبوا ذلك الطريق البعيد خوفاً من العيون .  
فتخّصت الى زقاق ضيق واستترت بغلابة بحيث ترى المارة ولا يرونها . فلما دنوا منها  
عرفت منهم اناساً في جللتهم مروان وعبدالله بن الزبير وكانت قد رأته في جملة  
من جاء للدفاع عن عثمان<sup>(١)</sup> من ابناء الصحابة . فلما رأت مروان بالفت في الاتراء  
وتطلعت الى ما يحملونه فاذا هو جثة مطروحة على باب وجحيمتها عارية تفرح الباب  
لاسرعهم في المسير من شدة الخوف<sup>(٢)</sup> ورأت تحت الجمجمة لحية كبيرة غضة مصفرة  
عرفت انها لحية عثمان . وتأملت الثياب فاذا هي ثيابه ولا يزال الدم عليها<sup>(٣)</sup> فلم  
تشك ان الجثة جثته . فخبى قلبها وارعدت فرائصها لما لحق بهذا الخليفة من الالهانة  
بعد موتو . وادركت من وجودهم هناك في تلك الساعة انهم خرجوا يوم ليلاً وتذكرت موت  
والدها فتأسست لانها دفنت مكرمة . ولبثت مستتره وراء النخلة تنظر الى تلك الجنازة  
الهزينة فاذا بهم لما وصلوا الى حائطه هناك يقال له حش كوكب<sup>(٤)</sup> حنوا له حفرة  
دفنوا فيها وهم ينظرون الى ما ورائهم خوفاً ورجبة

فصيرت ريثاً تفرقوا وسارت حتى صعدت الى مرتفع اطلت منه على المدينة  
فاشرفت على جامعها فاذا هو بعيد عنها كثيراً فجعلته وجهتها ونزلت تحترق الاسواق  
فلم تجد فيها الا نراً قليلاً فخافت ان يلاقها محمد وهي في تلك الحال . وما زالت  
حتى وصلت منزل عثمان والشمس قد طلعت فرأته موصداً فالتصمت باب بني حزم

(١) ابن الاثير ج ٢ (٢) المقدم القردج ٧ (٣) تاريخ الحميس ج ٢

(٤) ابن الاثير ج ٢

فرأته مغلفاً فنصت فلم تسمع صوتاً فوقت برهة ثم همت بالباب ففرعته فلم يجيبها احد فأعدت الفرع فأطل عليها رجل من كوة فوق الباب عرفت انه من خدم عثمان فلما رأته اومأت ابو ان ينتح . فلما عرفها فتح لها فدخلت وسألته عن نائلة فأوما لها ان لا تتكلم وسار امامها فتبعته فدخل بها غرفة رأت فيها نسوة احطن بنائلة وهي لا تزال محمولة الشعر كما رأتها في منامها بالامس

## الفصل السابع والعشرون

﴿ قميص عثمان وأصابع نائلة ﴾

فحالما وقع نظر نائلة عليها صاحت بها قائلة ما الذي جاء بك يا اساء يا حبيبي العلك آتيت لثري امير المؤمنين . فقد فانك ما لاقاه من اكرام المسلمين بعد موتي . قالت ذلك وأوغلت في البكاء

اما اساء فألقت نفسها على نائلة ولم تنالك عن البكاء والشهيق وهي تقول ان خسارتك يا خالتي خسارة المسلمين كافة لقد فسد امرهم بعد عثمان لانهم سفكوا دماً بريئاً بجوار قبر الرسول ( صلعم )

فألمت نائلة حديها بكفيها وإذا باحدى يديها معصوبة فذكرت اساء انها اليد التي اصيبت بالسيف ففطعت اناملها . وقالت نائلة يا ضيعة تعبك يا اساء ويا خيبة ما املناؤ من سعيك لقد عشنا والله وغدروا بنا فارسلوا اولادهم للدفاع عنه وبعثوا يقتلونه مع آخرين . الم تري ابن ابي بكر قبض علي لحين رحمة الله

فلما سمعت اسم محمد تأسفت لأنه فعل ذلك ولم تجد ما تدافع به عنه فسكنت وهي تفكر في عبارة تعزيبها بها فلم يفتح عليها . ولكنها قالت اصبري يا خالة ان الله مع الصابرين وقد كنت بالامس تعزيبني وتصبريني فأنت اولي مني بالناس بالاصبر

فصاحت نائلة « اواء يا اساء كيف اصبر وقد قتلوا عثمان قتلاً لم تسمع بمثله ابن منه موت والدتك رحمها الله فقد ماتت وصلوا عليها ودفنوها مكرومة اما هو فقد طعنوه في صدره ثلاث طعنات وضربوه على مقدم الجبين ضربة اسرعت في العظم والله اني لا ازال اسمع صوته يرن في اذني وهو يقرأ القرآن لا بهالي يا يفعلون

وأظنك رأيتني وقد سقطت عليّ وهم بهمون بو وفيو بقية والمفي عليّ يريدون قطع رأسو  
لا ادري ما ذا يريدون بو حتى أتت هذه النناة بنت شيبه ( قالت ذلك وأشارت الى  
فناة بجانبها ) قالت نفسها معي عليو وكنت قد خرجت فتوطأنا وطأنا شديداً وعزّنا  
من ثيابنا وحرمة امير المؤمنين اعظم فقتلوه رحمة الله عليو في بيتو وعلى فراشو (١)  
ثم تنهدت تنهداً شديداً وقالت « ولو اكتفوا بذلك لكان خيراً ولكمهم متعوا  
الناس ان يصابوا عليو وقالوا لا بدفن في مدافن المسلمين (٢) كأنه كفر او كان من  
المشركين . جزاهم الله بما فعلوا . فظل في بيتنا ثلاثة ايام وجثته ملقاة بين أيدينا ونحن  
نكيو ونبكي الاسلام من بعد ولولم نلق اخواننا من اهل الغيرة يحميونه بعد منتصف  
الليل خلسة لظل غير مدفون . وكم ساء في ما اصاب الذين قتلوا معه فقد جرّهم  
بارجلهم ولعلمهم النوم على اللبال لنا كلهم الكلاب واما والدك المسكين فلا ادري اذا  
كان قد اصابه مثل مصابهم

فلما سمعت اسماء ذكر والدها افشعرت بدينها وامتنع لونها وصاحت وماذا اصاب والدي  
قالت أما علمت بما اصابه وقد كنت في الدار معنا . قالت لا . ما ذا اصابه  
قالت سمعت انه قتل مع الخليفة في بعض جوانب الدار  
فاظلمت اسماء وجهها وصاحت وبلاء وابتها . واظلمت في البكاء . ونهضت  
مدعورة وقالت ابن هو الآن . اروي والدي ابن هو

ولم تكن نائلة تتوقع من اسماء حزناً شديداً علي والدها لما تعلمت من حديثها عنه  
أما اسماء فأخذت في البكاء والنوح والنساء هناك يخفهن عنها فقالت لها نائلة  
نصيري يا ابنتي ان لة اسوة بأمر المؤمنين وسوف يلتقيان ربهما معاً ولكن الله سينتقم من  
القوم الظالمين . ان الخليفة قوماً يأخذون بثأره ويثأرون في امية جميعاً نعم انهم لم يدركوا  
حياً ويدفعوا عنه القتل (٣) ولكنهم سوف يطالبون بثأره اذ رأوا قميصه الملوث بالدم  
واصابي المتلوعة فقد ارسلت القميص والاصابع الى معاوية في الشام (٤) واصبح الامر  
لبني امية وهم سواد قریش . وقد ظن بنو هاشم انهم اذا قتلوا عثمان يضعف شأن بني امية  
ووالله انهم اكثر رجلاً واوفر عنة واصعب مراساً وسوف يلتقي بنو هاشم عاقبة ما جئته  
ايديهم ان شاء الله

فلما سمعت تهديد نائلة وحكاية قميص عثمان وإناملها وما ذكرته من تفضيل بني أمية على بني هاشم علمت أنها إنما أرسلت الاصابع والتقميص استخفافاً لبني أمية على المطالبة بدم عثمان وتحففت أنها تقصر السوء لعلي فلم تصبر على الدفاع عنه فقالت « ولكنك تعلمين ان بني هاشم كانوا أكثر الناس دفاعاً عنه فان علياً ارسل ابنو الحسن والحسين لرد الناس عن بايو ولو اذن لها امير المؤمنين رحمه الله بالقتال لجاهدني في الدفاع عنه الى آخر قصة من حياتها . أمثل هؤلاء يطالبون بدم عثمان ام يقال انهم دافعوا جهدم » قالت « واي دفاع تريدن . فوالله لو ارادوا دفاعاً ما مات عثمان لقد اخذوا الامر بالاهمال والصبر حين لا ينفق الصبر بل هو عجز وسوء نية . ولا يفر منك ارسال اولادهم » . قالت ذلك وحرقت اسنانها وسكنت

فعدرتها اساء لهاج عواظنها على منقل زوجها ولم تجبها . ولكنها عادت الى السؤال عن والدها . فقالت لها احدى الحضور لا تعمي نفسك يا اساء ان والدك قد قتل في جملة الذين قتلا مع عثمان وهم اثنان هو نواكهم . وقد حملوا جنتهم خلصة الى حيث لا يعلم احدٌ . فتمزي بمنقل امير المؤمنين خليفة رسول الله ( صلعم ) بعد ان سمعت ما جرى له

وظلت اساء هناك برهة تبكي مع الباكون حتى هدأ روعها فتذكرت ان وفاة والدها خبرها في مستقبل حياتها فنظرت الى نائلة وقالت « ما الذي عزمت عليه يا خالة الآن » قالت « لقد عزمت على المسير من هذا المكان الى حيث لا أرى هاشمياً ولا اسمع بهاشمي واكنني لا استطيع الخروج الا خلصة وما مقامنا هنا الا خيبة . ولو عرف هؤلاء الظالمون مقامى لا دركوني وقتلونى . ولكن بني حزم اهل جوار فقد خبا وفي جزام الله خوراً » ثم تذكرت اساء انها تركت بيت العجوز على غرة فخافت اذا اقتدتها ولم ترها فلتت عليها وخصوصاً اذا عاد محمد ولم يجدها وزد على ذلك انها خافت عجبى مروان وهي لا تريد ان ترى وجهه بعد ما جرى بينها وبينه . فنهضت للحال واعذرت انها تريد المسير الى بعض ذوي قرابتها في اطراف المدينة

فقالت لها نائلة « اذهبي حيثما شئت يا ولدي ولو كان لي بيت لدعونك اليه ولكني اصحبت غريبة بين اهلي اتوقع الخطر على حياتي . فاذهبي حرسك الله ووقاك واذا من الله علينا بالاجتماع ارجوان آكافك على صنيعك الجميل وحينئذ التي لم ارسلها . سيبري

يا ابنتي بجماعة الله « قالت ذلك وضمها الى صدرها وودعتها وهي تبكي وبكت اسماء ايضاً وقد انظر قلبها لما سمعته من كلام عائلة وشق عليها ان تراها في هذه الحال وقد كانت بالامس زوج امير المؤمنين ولها الامر والنهي

## الفصل الثامن والعشرون

— ﴿ بيت علي ﴾ —

ثم ودعت اسماء نائلة ومن حضر من النساء وخرجت الشمس بيت العجوز وهي تحسب انها تعرفه لكنها نامت هذه المرة ايضاً لا سيما وان البيت صغير لا يرى عن بعد . على انها وصلت في آخر النهار وقد مالت الشمس الى المغرب فوجدت الباب مغلقاً ولا نور هناك ولا حركة فقرعت الباب مراراً فلم يجيبها مجيباً

فوقفت برهة تنكر في ما تنعله فلم تر خيراً من الذهاب الى منزل علي تنتقد محمداً فاذا لم تجد بانك تلك الليلة هناك فقد طالما دعاها للاقامة في منزله . ولكنها خافت اذا سارت بلباس النساء ان تكون موضع التفات الناس في الطريق او في فناء الدار لان بيت علي لا يخلو من القادمين والغادين . فنضت التنكر وكانت ممنطقة بكوفية حلها ولنت بها رأسها كما يفعل الرجال باسفارهم وترملت بعباءة كانت قد خرجت بها بالامس وسارت تلمس بيت علي فلم تصله الا نحو العشاء . فرأت بعض الناس في فناء الدار وكانت تتوقع ان ترى ازدحاماً . ثم علمت ان اهل البصرة والكوفة والمصريين الذين كانت تزدهم بهم المدينة قبل مقتل عثمان تحولوا الى مضارهم خارج المدينة للبيت . فسألت عن علي فقيل لها انه في خلوة مع بعض الامراء لا يدخل عليه احد فوقفت تنظر في الامر فتحدثتها نفسها ان تدخل المنزل فبيت عند بعض نساء علي ولكنها هابت الدخول عليهن وهي لا تعرفن قبلاً

وفيا هي في ذلك رأت محمد بن ابي بكر خارجاً من الدار فتبعته فلما رأى عباءتها ومشيتها عرفها فدنا منها وتوسل فيها فقالت « محمد » قال « اسماء » . قالت نعم ابن انت

قال « لقد شغلت بالي لغيبك ابن كنتي »

قالت خرجت في حاجة سأقصها عليك الآن وابن هي عجوزك  
قال اتني في صباح اليوم وهي قلقة لغيابك وقد قضينا طول هذا النهار في  
البحث عنك فشفقتنا عما نحن فيه من الامور العظام تعالي معي ادخلك الى والدتي  
قالت وهل نقيم والدتك هنا في منزل علي

قال نعم وهي زوجته<sup>(١)</sup> بعد والذي رحمه الله واسمها مثل اسمك بورك في هذا الاسم  
فسرت اسماء لمعرفة والدتي ورأت باباً للفرج بالاقامة عندها واحبت زيادة  
التفصيل فقالت « وهل تزوجها علي من زمان طويل »  
قال « تزوجها بعد موت والذي وكنت انا طفلاً فريت في حجره<sup>(٢)</sup> فانا اعدته  
بمنزلة والذي وهو يحبني كما حد اولادو »

قالت « لند آنت فيو ذلك رحم الله والذا ولدك وعاش والد ربك » قالت  
ذلك وقد ابرقت اسرعتها اعجاباً يو لكنها ما زالت تظهر للتور بغمة حديثها فذمهمو  
بذلك فقال « اراك قد تغيرت يا اسماء بعد خروجك اليوم »  
قالت بل انا باقية على ما تعلم ولكنك سا لني عن سبب خروجي  
قال نعم والى ابن كان خروجك

قالت خرجت الى تلك المسكنة التي قتلتم زوجها وتركتموها حزينة كئيبه فلم  
يسعني مفادرتها على تلك الحال وقد كانت تعزيبي الوحيدة في حال حزني واضطرابي  
قال العلك سرت الى نائلة

قالت « نعم سرت اليها ورأيت مدفن قبلكم رحمه الله . فقد حملوه على باب  
وسارو يو خلصة ليدفنوه خارج المدينة وسمعت طعناً بك سا في ان اسمع وساءني  
فوق ذلك ان لا استطاع الدفاع عنك لاني شهدت دخولك وتعمدك قتل المخالفة »  
قالت ذلك وفي نعمة كلامها ما لا يصدر الا عن سلطة الدالة وسلطان الدلال  
فاًدرك محمد ان اعتقادها هذا سيكون تقاطع سوداء على صلحة حبها فساءه  
ذلك لكنه اعجب بانتمها وصدق ادبها قال كل الميل الى تبرئة نعمو عندها فقال وهو  
ينفس نأ كيداً للبراءة ساحتو « لند قلت لك يا اسماء ان الرجل لم يُقتل ظلماً وهي ابي  
قتلته بيدي فما انا نادم على ذلك وسأطلعك على جلية الواقع في فرصة اخرى . اما  
الآن فادخلي بنا لاعرفك بوالدتي وهي تعرفك بأهل علي » قال ذلك وم بالدخول

## الفصل التاسع والعشرون

﴿ الحسن بن علي ﴾

ولم يكذب يدنو من الباب حتى سمع وقع اقدام في الدار ثم رأى شيئاً خارجاً حالماً  
رآه علم انه الحسن بن علي فالتى حسن السلام . فقال محمد وعليك السلام يا ابن  
امير المؤمنين

فقال الحسن اراك تبشرني بخلافة انا خائف منها

قال لا تخف يا ابن بنت الرسول وابن ابن عم النبي اكرم اولى الناس بها  
وكان الحسن يخاطب محمداً وينظر الى اسماء وقد انكرها لثقتها . فابتدعه محمد  
قائلاً ان رفيقي امويٌّ جاء للبيت عنكم فهل تقبلونه

قال اهلا يا أيما كان فليدخل . قال ذلك ودخل فدخل في أشبرٍ واساه لا تزال  
ملثمة والحسن ينظر اليها ويتوقع حسر الثمام . فلما حسرتة ووقع نظره عليها تذكر انه  
رآها في منزل عثمان وقد كانت حاضرة ساعة مقتلها . فوقعت من نسيه موقفاً حسناً  
واعجبته هيبتها وجمالها . فقال « اهلا بك يا اخبة فقد نزلت اهلاً ووطئت سهلاً »  
اما اسماء فغلب عليها النهيب لوقوفها بين يدي ابن علي ونظرت اليه بطرف خفي  
فاذا هو ابيض اللون مشرب بالحمر ادعج العينين سهل الخدين كثر اللحية ربع الثامة  
جعد الشعر لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره وكان اشبه الناس بالنبي <sup>(١)</sup> فلم ينمالك  
اسماء ان نظرت اليه حتى غلب عليها الحياء فاطرقت وقالت « بورك في بيت شرفه الله »  
فقال محمد للحسن « وايزيدك نعتاً بها انها اسماء بنت يزيد التي جاءت منذ  
بضعة اسابيع تستدعي مولاي ابي الحسن لمشاهدة والدماء وهي على فراش الموت لسر  
كانت عازمة على اطلاقه عليه ففضت رحمة الله قبل وصوله وذهب ذلك السر  
معها الى القبر »

قال الحسن وهو ينظر الى اسماء « ان والدي ما زال يذكر ذلك وبأسف  
لضياع السر ويحجب بما آتته في هذه الفناة من الشهامة والافتة » قال ذلك وسار

امامها فمُشياً في اثره وقد شعر محمد من ذلك الحزن بغيرة من الحسن وتدم على محبتو  
بها الى ذلك المكان ولكنه تجامل وقال « الى ابن نحن ذاهبون »

قال الحسن « الى خالتي امامة اعرفها باسماء فديت عندها الليلة وهي نعرفها  
بالاسم قبل اليوم ولا ريب انها ستسر بلتيها كثيراً »

فلم يستطع محمد معارضته لئلا تتكشف غيرة فاجابه وهو غير راض بذلك  
العرف لان الحجاب يمنع من الدخول معها الى امامة فبقي خارجاً على مثل الجحر  
ودخل الحسن الى غرفة امامة بلا استئذان . وكانت منفردة وقد لبست ثوباً بسيطاً  
وفي عنقها قلادة من جرع كانت كثيرة الاحتفاظ بها . فلما رأته الحسن داخلًا قمت  
ان تسأله عن امر الناس والخلافة فاذا هي باسماء تبعه فلما رأتها اعجبها حسن طلعتها  
فدنت اسماء منها تمه بتقبيل يدها فتمتعها وقبلتها فابندرها الحسن قائلاً « اقدم لك  
يا حالة اسماء واظنك تذكرين حديث والدي عن والدتها التي ماتت في قباء ومات  
ذلك السر معها فهذه هي ابنتها وكثيراً ما سمعت والدي يذكرها ويحبب بها »

ثم التفت الى اسماء وقال « واعلمي يا أختي انك بين يدي امامة زوج والدي  
وهي بنت زينب بنت الرسول وكان جدتي ( صلعم ) يحبها كثيراً وانظري الى هذه  
القلادة التي تزينها في عنقها فقد اهداها اليها رسول الله يوم ولادتها وكانت احب  
اهل له (١)

فازدادت اسماء اجلاً لامامة وظلّت واقفة حتى دعيتها الى الجاوس فجلست على  
وسادة بالقرب منها . فقال الحسن « لا حاجة بي ان اوصيك بضيفتك وانت اولي  
من اكرم الضيف مع طلك بذلتها عند والدي » قال ذلك وخرج وكان محمد في  
انتظاره وهو على مثل الجحر وقد لام نسة على محبتو بها  
فلما التقيا قال الحسن كيف عرفت هذه الفناء يا محمد

قال عرفتها يوم جاءت لاستدعاء مولاي ابي الحسن الى والدتها وقد صحبتها الى  
قباء وهي متنكرة بزى الرجال ثم شاهدتها مرة في منزل عثمان ورأيتها الآن جاءت  
تطلب متراكم لانها غريبة وكان والدك قد دعاها للاقامة عندهم تعزية لما على حزنها وبنتها  
فقال الحسن انها والله ذات جمال ووقار واظنها ستبني عندنا واني شاكر لك الصدقة

## الفصل الثلاثون

﴿ خلافة علي ﴾

فادرك محمد ما في نفس الحسن فانفدت نار الغيرة في صدره ولكنها غيرت لم يشبها بغض لاحترامه الحسن ووالده . على انه احب تغبير الحديث فقال « وابن مولاي ابن الحسن الآن »

قال تركته في غرفتي وقد اجتمع الامراء حوله يريدون مبايعته وهو يقول لم « لا حاجة لي في امركم فمن اخترتموه رضيت به » وم يلحون عليه في القبول ويقولون له « لا نعلم احداً احق به منك لا اقدم سابقه ولا اقرب قرابة من رسول الله (صلم) »<sup>(١)</sup> فقال محمد ألم يقبل

قال كلاً وقد تركته وهو يقول لم « لا تفعلوا فاني اكون وزيراً خبيراً من ان اكون اميراً » وم يقولون « ما نحن فاعلين حتى نبايعك » فقال محمد اني لا تعجب من رفضوا امراً هو اولي به من سواء انها والله لا يجب ان يلبها غيري

فقال الحسن واني اكثر نجباً منك

قال محمد وما رأيت بك بطلحة والزبير فاني اخالهما غير راضين به لان كلاً منها طامع بالخلافة لنفسه

فتبسم الحسن وقال « لا بهتك طمعها فانها سببايمان كارهين ان شاء الله على اني اراها يتظاهران بالقبول وسنرى ما يكون منها في الغد فقد سار اليها بعض الناس يدعونها الى المبايعه

وافترقا بعد هنيهة فسار محمد الى فراشه وقد همم امر اسماة اكثر ما همم امر الخلافة لعلوا ان الحسن اذا وسط والته في تزويجها به نالها لا محالة . فلم يبق له بدو الا ابعادها عن ذلك المنزل وتمكيتها من محبته . وقضى ليائه بحث في وسيلة تساعده على الخروج باسماء من هناك حتى يخلو بها فيقتنها اولاً ببراءته من الظلم في مقتل

عثمان ثم يكتب كتابه عليها قبل ان يصرح الحسن بطلبها فيكون له عذر في ذلك

اما اذا سبق الحسن الى طلبها صريحاً فلا يجبراً هو على التعرض لها

وفي الصباح التالي بكر الى غرفة الحسن فلم يجد هناك فساءل الخدم عنه فقالوا

له خرج الى غرفة امامة باكراً . فعلم انه علق ذهنه باسما . فأسرع في ارسال من

يستقدمه فجاء الحسن وقد اشرق وجهه ودلائل الحبة ظاهرة عليه فانقضت نفس

محمد وكادت الفيرة تظهر على وجهه ولكنه تجلد وجهاً وقال كيف اصبحت فتاننا اليوم

فقال الحسن لقد اصبحت في خير ولكنني اراها منقبضة النفس

فسر محمد لا تقباضها لعلها ان ذلك يدل على عدم ارتياحها الى محبتها الجديد

فقال « اظنها منقبضة لحزنها على والدها لانه قتل في منزل عثمان وارى ان نخرج بها

لتحضر مجلس والدك وحدث القوم في أمر المباينة لعلها تشتغل بما تراه هناك عن احزانها »

قال وكيف تجلس مع الرجال

قال لتذهب متنكرة كما اتينا اليوم

وكان الحسن اكثر ميلاً من محمد الى اصطحابها وهو غافل عما يحتاج قلب محمد

فقال « لقد رأيت صواباً وتحول لاستفدامها وما عم ان عاد واسما معه وقد تنكرت فلما

رأها محمداً حياًها وهو ينظر الى وجهها نظراً لا يأنهها الا من عانى الحب والفيرة ولبت

ينظر الى ما يبدو منها فاذا هي حاملة وقع نظرها عليه ابرقت اسرها فارتاح بالة

وتظاهر بعدم الاكتراث وقال لها « اظنك تودين حضور مجلس مولاي ابي الحسن »

قالت « كيف لا وانت تعلم ضميري » فادرك محمد ايها تشير الى حياءها له فتحقق ايها

باقية على عهد فقال « فاذا فرغنا من ذلك المجلس سلمت لك جوادك وامتعك التي

تركها في منزل عثمان وقد وعدت ان احفظها فاستخرجتها من سائر المسلوبات »

فأنتت عليه وإشارت بعينها إشارة خفية فهم محمد بها مرادها والحسن لم يشعر

ثم قال الحسن هلم بنا تدخل على والدي قبل عبي . الناس فدخل هو أولاً حتى

تحقق انه بهض وابس ثيابه ثم عاد واستقدمها



## الفصل الحادي والثلاثون

— ﴿ الصحابة وعلي والخلافة ﴾ —

فدخل محمد واماء وهي في لباس الرجال ولكنها حالما دخلت حسرت اللثام  
وقامت بتغيير يد علي وكان علي جالساً على وسادة وطبوا ازار ووطاق وعمامة خر<sup>(١)</sup>  
وهو في هيبته المعهودة وقد ارسل عمامته الى الوراة حتى بانث صاعته<sup>(٢)</sup> لما قام في  
نفسه من الامر الذي دعوه ابو فجاس وهو يشط لحبته باصابه وعيناه الدجاجوان  
تتلاان في وجهه والذكاء ينبعث منها - فلما رأى اماء متبلة انبسط لها وحياها  
وسأها عن حالها

فقلت اني بنضل مولاي في خور وعافية

قال ان كلامك با بنية لا يزال يرن في اذني منذ جئنا قبل مقتل ذلك الرجل  
رحمه الله وقد قلت وقولك هو الصواب « ان في مقتل الخليفة ايقاظاً للندبة » فلا  
اظهار الا استيقظت

قالت ان التتة لسفهي من ابن عم رسول الله فتعود الى الرقاد اذا قبض هو  
على ازمة الخلافة

فأعجبه حسن اسلوبها وحدة ذهنها وكان الحسن اكثر اعجاباً من الجميع  
ثم دعاها علي الى الجلوس وهو يقول « اراك قد خلعت زي النساء ولبست زي  
الرجال يا اماء »

قالت لقد نرديت باللباس الذي يليق ان الاتي به رجل هذه الامة  
فقال علي « بل هو يشير الى ما اودعته فيك الخائف من اخلاق الرجال واكمه  
سجانه وتعالى قد جمع فيك حسنات الجنين »

ولم تكذ اماء تجلس حتى جاء بعض الخدم يستأذن علياً في دخول بعض الصحابة  
فاذن لهم فدخل جماعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير وكانت اماء تعرفها  
من ذي قبل - فجلسوا جميعاً حتى غصت الفاعة بهم وجلس طلحة والزبير في صدر القوم

وعلى وجهها آثار الانقباض كأنها بجنیان امرأهائماً فادركت اساء انهما انما جاءا  
مكرهين

فلما استوى النور همض واحدٌ من اهل المدينة ومخاطب علياً قائلاً « لقد جئنا  
مولانا ابن ابي طالب نطلب اليو امرأ نرجوان لا يردنا عنه خائنين كما فعل بالاس  
وما قبله »

فقال علي\* « قولوا ما تريدون »

قالوا « جئنا نبايعك بالخلافة لأننا لم نر احداً احق بها منك »

قال ( وهو ينظر اليهم حيلة ) « قلت لكم دعوني من هذا الامر فاني اراه طريقاً وعراً

فقال قائل « من ترى اقدم منك سابقاً واقرب قرابة من رسول الله ( صلعم )

وقد قال فيك الرسول « لا يجيبك الا مؤمنٌ ولا يبغضك الا منافقٌ »

قال « كنكم كف\* والذي تبايعونه اقبل به »

قالوا لا نرى غيرك احق بها وقد قال الرسول ( صلعم ) « ان علياً مني وانامن

علي وهو ولي كل مؤمن بعدي » (١)

قال « قلت لكم دعوني والتسوا غيري فانا مستقبلون امرأ له وجوه وله اللان

لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول »

فوقفوا وقد نفذ صبرهم وقالوا « نشهدك الله ألا نرى ما نحن فيه . الا ترى

الاسلام . الا ترى الفتنة . الا تخاف الله . . . »

فلما سمع علي\* تأنيبهم سكت وقد ضاق ذرعاً وعظم عليه الامر فاشتغل بتشيط لحبوه

باصابعه وهو مطرق يتأمل . ثم نظر اليهم فاذا هم سكوت ينتظرون جوابه . فقال

لم « قد اجبتكم »

ولم يكذب بطلق بانظ الاجابة حتى ضج الناس بالاستحسان وتهللت وجوههم فرحاً الا

طلحة والزبير فانهما ظللاً صامتون

فلما رأى علي\* استحسانهم وضحوجهم مع ما آمنه من سكوت طلحة والزبير همض فبهض

الناس وهم ينظرون اليو ليروا ما يبدو منه فاذا هو قد علاه اضطراب كأنه تنبأ من

ساعته بما يتوقعة من الامور العظام فاشار اليهم بيده بشمس اصفاءهم وقال « واعلي

(١) اسد الابهة ج ٤

اني اذا اجبتكم ركبت بكم ما اعلم فانما انا كاحدكم الا اني اسمعكم واطوعكم لمن وادعوا  
 فقالوا كنا اطوع لك من بناك ومن لا يطيع ابن عم الرسول واخاه ووصيه  
 ونصيره وربيه وحيبه وخليفته والذي قال فيه ( صلعم ) « من كنت مولاه فعلي  
 مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » وقال ( صلعم ) انك منه بمنزلة هرون  
 من موسى فكيف نبايع - واك

فقال اذا كنتم لا ترون بنا من المبايعه فلنكن في المسجد وليس في هذا المنزل  
 قالوا هلم بنا الى المسجد

## الفصل الثاني والثلاثون

### ﴿ المبايعه ﴾ -

فمضوا ونهض علي ونعلاء في يد وشي وهو يتكئاً<sup>(١)</sup> ويد في قوس يتوكأ  
 عليها<sup>(٢)</sup> حتى اقبل على المسجد والناس بين يديه وكان محمد وحسن واسماء سائرين  
 بالقرب منه واسماء تنظر الى ما سيكون فلما دخلوا المسجد قرأ علي الفاتحة وصلى ثم وقف  
 ووقف الناس فنظرت اسماء الى الجميع وقد هاجل وهاجل فرأت طلحة تقدم نحوه  
 قبل الجميع ومد يده فمد علي يده فصالحه طلحة وقال « انا نبايع سيدي ومولاي الامام  
 المنير الطاعة على جميع الانام علي ابن ابي طالب على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد  
 امير المؤمنين<sup>(٣)</sup> ونسأله النظر في امورنا وامور المسلمين لا تنازع في شيء ونطيعه  
 في ما يكلفنا به من الامر على المنطق والمكر<sup>(٤)</sup> وان لا خلفه سواه » وادركت اسماء  
 من هبة طلحة وغنة صوتيه ويجعل حاله انه انما بايع مكرهاً ثم سمعت رجلاً من الوقوف  
 خلفها يقول لجاره همساً « انا لله وانا اليه راجعون ان اول يد بايعت يد شلاه لا يتم  
 هذا الامر » فالتفت اسماء الى محمد كأنها تستنبه عن مغزى ما يقوله الرجل  
 فنادت منها وقد لها « ان في يد طلحة شلاً خفيفاً من نومة احد<sup>(٥)</sup> والذي سمعوه

(١) تاريخ الخلفاء ج ٣ (٢) ابن الاثير ج ٢ (٣) الـ يوطي

(٤) مقدمة ابن خلدون (٥) ابن الشحنة

يتكلم رجل من اهل العيافة نشام بنك المبايعه »

قالت ارجو ان لا تصدق عيانتك . وبعد ان بايع طلحة نفي وتقدم الرير فبايع  
ثم بايع غنم من الامراء افراداً واجمالات

فاصح علي من تلك الساعة امير المؤمنين فصعد المنبر فلما رآه الناس صاعداً  
ظلموا انه يريد ان يتكلم وهم ظالموا معاً خطبة وسحرطوا به لاغته فالتفتوا الى ما يقول .  
وظلت اسماة في موقفها وتصعد الى جانبها وعيناه تسارقان الحسن النظر ليري ما في  
نفسه من اسماة فرأى انه على هول الموقف ورحمة المقام لم يشغل عنها لحظة  
أما هي فظلت ثابتة نبوت الجبال لا تنفت لانه الأامر هام . فلما وقف  
الامام علي أصغت واصفى الجميع . فمسح علي لحينه بيده واجال نظره في الناس والعمامة  
انخر على رأسه وعلوه الآزار وبطنه يتقدمه لانه كان ذا بطن " فلبث هنيهة لا  
يتكلم حتى سكت الجميع وتناولوا باعانهم لسامع كلامه في ذلك الموقف وهو اول  
كلام له بعد الخلافة . فحمد الله وأثنى ثم قال بصوت يسمعه من في المسجد جميعاً :

« ان الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا نفع الخير تهتدوا  
واصدقوا عن شره تصدقوا . الفرائض الثرائض أدوها الى الله تودكم الى الجنة .  
ان الله حرم حراماً غير مجهول وحل حلالاً غير مدخول ونفل حرمه المسلم على الحرم  
كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاندها . فالمسلم من سلم المسلمون  
من لسانه ويده الآ باحق . ولا يجمل أذى المسلم الأها يجب . بادروا أمر العامة وخاصة  
أحدم الموت فان الناس امامكم وان الساعة تحذوكم من خلفكم . تخشعوا تلغوا فانما  
يتظرباً ولكم آخركم . اتقوا الله في عبادته وبلاده فانكم مستولون حتى عن النفاق  
والهائم . واعلموا الله ولا تعصوه . واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فاعرضوا عنه  
واذكروا انكم قليلون . مستضعفون في الارض " (١)

ولم يتكلم به كلامه حتى تصوب العرق عن جبهته وانحدرت منوراً كاللؤلؤ على  
لحيته وكانت يضاء طويلة لانه قلما تعاطى الخضاب " ثم نزل وسار الى منزله فترقى  
الناس واكثرهم فرحون بجلالته وخصوصاً اهل المدينة

## الفصل الثالث والثلاثون

- ﴿ الفرار من المدينة ﴾ -

أما محمد فكان يخامر سروره فلقى لما قام في ذهابه من أمر الحسن وأساء. فلما انتهى الخطاب اغتم الفرصة بانتقال الحسن في المهرج مع والدك وتجمع الناس حوله لتهتو وإشار إلى أساء فتبعته وقد أدركت ما يجتاح ذهابه. وكانت قد لحظت ما في نفس الحسن وقد أحبتة واستلطفته ولكنها ما زالت على ولاه محمد وهو ادل من طرق قلبها. فلما دعاها ان تبعه سارت في أثره وهي تتجاهل مراده حتى وصلا إلى بيت العجوز وكانت قد عادت إلى منزلها بالاس بايعاز من محمد. فلما خلا بأساء هناك نظر إليها نظره لم يخف مفزاهها عليها. فاجدرته قائلة « أرى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بجليتهم فلم يعد مجال المقام فيها »

فلما سمع محمد كلامها عجب لحسن فراسها ورقة احساسها فازداد هياماً بها ولكنها خاف ان تكون مضغ غير ما تظهر فقال لها وما الذي بنص اليك الإقامة في المدينة قالت « بنصها التي ما حجب محمداً التي »

قال وكيف تتركين علياً وإهله

قالت مالي ولاهلو

قال الا تظنين امامة تنشدك

قالت اظنها. تنشدني وقد ينشدني غيرها ولكنني لا ابالي باحد.

فادرك انها لحظت « انباء » فقال لها لقد تمت المياومة لعلي فهو اليوم امر المؤمنين وقد استقام الامر لنا بذلك. ولكنها تنتظر ما سيكون من تبدل عمالو علي الامصار

وعذر ذلك في حينه. اما الآن فأرى ان تيمم عند اختي عائشة ام المؤمنين

وكانت أساء قد علمت منه انها سارت إلى مكة لتفشاء مناسك الحج وعثمان

محصوراً ولم تسمع انها عادت فقالت « هل عادت ام المؤمنين من مكة »

قال لم بعد وقد قبل عثمان ونول علي وهي غائبة وربما نيم هالك منذ اخرى

( قال ذلك وهو يعلم ان عيبتها قريب ولكنه خاف اذا اعترف بذلك ألا يود  
تحت حاجة الى خروج اسماء من المدينة فتضطر للاقامة في بيت علي وغيرها لا نسح  
له بذلك )

فالت اسماء هل اذهب اليها

قال ارى ان ذهبي فتنبيءك هناك وتسامدي بيت الله الحرام وتفرجني بمشاهد  
مكة فاذا عادت اخني سريعاً عدت معها واذا اقامت طويلاً ذهبت انا لاستفدأئك  
وتكون قد عرفنا مصيرنا بعد هذه الخلافه

قالت ان في ذهاني اليها شرفاً عظيماً لا ارى ما عافى فؤاد ولكن كيف اسبر وحدي  
قال ارى ان تصعبك هذه الحاله ( وأشار الى العجز ) فان لما معرفة ودالة  
عظمتين على اخني وذهابها معك يغني عن كتاب الرصبة او نحوها وارسل معك  
من يوصلك اليها . ولكنني ارجو ان يكون ذهابك بناء على الفاسك رغبة منك في  
البعد عن التلاقل . قال ذلك ونظر اليها وهو يبتسم

فنهت اسماء مراده وادركت انه يخاف ان يعلم علي او الحسن انه هو الذي حملها  
على المسير . فقالت بل انا الراغبة في المسير الى هناك لاكون بجوار ام المؤمنين .  
أين جواذي واسمعي

قال في هنا عند هذه الحاله فامكثي عندها الى الغد فآتي اليك بمن يسيرك الى  
مكة قال ذلك وهم بالخروج

فقالت له اسماء ولا يبرح من ذهكت اني لا ازال اتوقع ان اسمع الخبر عن مقتل  
عثمان وتصل ما نبري تنسك بو

قال عدا ثلاثين ام المؤمنين فاسألها عن عثمان وهل هو بئس وجب القتل وهي  
تجيبك بما يغنيك عن سؤالي . الا تقبلين بقولها  
فالت بلى

قال انها من اول الفاتنات بقتلو ومن قولها « اتاملوا نعلاناً ( لقب عثمان )  
فقد كثر » ( ١ )

فقالت اني صارت على ذلك فاذا كانت في القائلة فتقولها يكفي

وتركها محمد ومضى فرأيت في هناك تلك الليلة . فجاء محمد في الصباح التالي  
وقد اعدت هجاء وهوودجا . فلما رأته اساء الجبال قالت وما ذلك  
قال في جمال ولا يصلح لركوب الصحراء غيرها فان بيننا وبين مكة بضع مراحل  
والطريق وعمر لا يصلح للسفر في شهر الجمال

قالت اعلم ذلك ولكذي افضل ركوب الافراس وكذلك فعلت في قدومي من  
السام وقد خوفوني ركوب الافراس في الصحراء . فأبيت الآها  
قال لا يحسن ركوبك الفرس ورفيتك هناء لا تستطيع ركوبه فاركي الهجن انها  
اصح لهذا الطريق وانركي الفرس هنا لاخوف عايو . وقد طلعت ان رجلاً من اخوال  
ام المؤمنين من بني اللبث واسمها عبيد بن ابي سلمة مسافر اليوم الى مكة فهدت اليه  
في ان تدبراً برفنته فيوصلكما الى منزل اخني

فهدت اساء لتولو ان الرجل من اخوال اخني ولم يقل من اخواله فسأله عن  
ذلك . فقال ان عائشة من ام غيرامي التي ذكرتها لك ولم تسمح لك الفرصة ان  
تريها امس فحسب ان تريها في فرصة اخرى

قال ذلك وامر العجوز فاخذت في اعداد ما يلزم للسفر وجعلت تجمع صررها  
صرع فيها المشط وصرع فيها الدواك وصرع للنعال ونحو ذلك . ولم تبق ساعتان حتى  
عها كل شيء وجاء عبيد بن ابي سلمة فارصاه بالعجوز والثناء خيراً وودعها  
فقال له اساء وهي تئذ متظنتها حول خصرها ونهياً للدخول في المودج  
« منى اراك »

قال ارجو ان اراك قريباً في مكة او ان ابعت اليك فتقدمي البنات  
استفام الامر وهذات الاحوال ووسمي خاطر اخي الحسن : قال ذلك بصوت منخفض  
وضحك فضحك هي وودعته وسارت على ماقتها وقد تثلثت لنام السفر



## الفصل الرابع والثلاثون

- ﴿ عائشة أم المؤمنين ﴾ -

ولم تكذ أساء. تخرج من المدينة حتى اشرفت على قباء. فهاجت احتجاجها وتذكرت والدتها فزجرت عند المسجد فلتبها خادمة الشيخ فدعا قريته فرحمت أساءة ومن معها . فطلبت أساءة ان تزور قبر والدتها فزارته وبكت عليه بكاءً . مرا حتى كاد يفتى عليها لو لم يهضها عنه الرفاق . ولما رأها ان ابى سلة في تلك الحال اسرع في الترحال فشدوا الاحمال وركبوا فاصدين مكة . وتأثر عبيد لما رأوه من حزن أساءة فاحب نعتيها فلما اشرف على جبل أحد وهو على اربعة اميال من المدينة لجهة الغرب <sup>(١)</sup> احب ان يشغلها بالحديث فقال لما انظري الى هذا الجبل فانه جبل أحد الذي حدثت عنه الواقعة المائة بين المسلمين ومشركي قريش على عهد النبي . وقصصا عنها حديث تلك الغزوة وقضوا في سفرهم هذه ثلاثة ايام فاشرفوا في ظهر اليوم الثالث على جبال مكة في قرية يقال لها سرف على ستة اميال من مكة <sup>(٢)</sup> فرأوا ركبا قد وصل حديثا وفيه ناقة عرف عبيد انها ناقة عائشة وتأكد ذلك لما رأى هودجها وعليه رداء احمر يجاللة كله . فزجل وزجرت أساءة والعبوز واشتغل العبيد في تدبير النوق وعقلها

اما أساءة فصرت يرجوع عائشة عاجلا لعلها ترجع معها الى المدينة فتلقي بمحمد قريبا . فقالت للعبوز وابن هي ام المؤمنين يظهر انما اسرعت في الرجوع من مناسكها . فالتفت العبوز بهنة وبسرة حتى وقف بصرها على فسطاط كبير مسطح الحجر الاحمر عند باب يدويان واقفان . فقالت هذا هو فسطاطها وقد وقف الخدم عند بابها فقالت وهل تذهب اليها الآن

قالت تمهلي لنرى ما يكون من ان ابى سلة ثم سارت العبوز اليه وكان مشتغلا بعقل نائقه واصلاح حاله وثيايو قبل الدخول الى الفسطاط . فازدادت أساءة تهيؤا من الدخول على ام المؤمنين وقالت للعبوز وهل هي تنوي الاقامة في هذا المكان قالت يظهر انها على سفر . ثم دبت من قائدها فساءلة عن سر ام المؤمنين

فقال انها شاخصة الى المدينة

فقال اسماء وما العمل الآن هل نرجع معها ام نفضل في طريقنا الى مكة  
قالت سئري في ذلك متى التفتينا بها وهي ترشدنا فاذا امرنا بالرجوع معها رجعت  
او ارادت ان ندخل مكة دخلنا

قالت هل ننظر رفيقتنا لدخل مع ام نسبق اليها  
قالت ارى ان ندخل قبلة محذرة ان تكون في مسرعة في القيام فلا تمكن من مخاطبتهم  
قالت وهل تعرفها قبلاً  
قالت اعرفها جيداً وقد عشت في منزل والدها رحمه الله وكثيراً ما حملت  
على عاتقي وهي طفلة فاني احب اليها حوالا والد  
قالت فلندخل عليها

قالت هلم بنا وسنت امامها  
فتبعنا اسماء حتى دتنا من السطاط فاستأذنتنا في الدخول فأذن لها . فدخلت  
وكلاما هاتبة الوقوف بين يدي زوج الي

اما اسماء فكانت على شجاعها وثبات جاشها قد شعرت عند دخولها السطاط  
بمخففان قلبها وزاد خفتانها حتى احمرت وجنتها ثم امنعت لونها رهبة من لقاء ام المؤمنين  
وكانت عانسة جالسة الاربعاء على وسادة من الخزفي صدر الخيمة . فنظرت  
اسماء اليها فاذا في رمة مميثة الجسم عيناها تلالاً من صحة وذكاء فوثها حاجبان  
متقاربان بشيران الى ما اودعه الخالق فيها من الالفة والميعة . وقد تجابت بحلباس  
من الحرير يغطي كل انطابها فوقه نقاب يكسو رأسها فزينت جلالاً وعظمة

فاستأذنت اسماء بمظهرها لمشايبتها محمد احنى لايشك الناظر اليها انها اخنة .  
وكانت قد طلعت قبل دخولها عليها انها في نحو الثالثة والاربعين من عمرها فلما رأته  
خيل لها انها في ما دون اثلاثين لما في وجهها من نور الصحة والجمال

فلما دخلنا الخيمة حينها وهمت العجوز بتبيل بدعا فسمعتها عانسة وقالت اهلا  
بك يا خالة اهلا بك . وامرتها بالجلوس فجلست وتقدمت اسماء بوقار وحشمة وثبات  
بدعا ووقفت منأدبة حتى اذنت لها بالجلوس فجلست مطرفة لانتكلم وقد ذهبت عن  
جسارها لمول ذلك اللقاء.

فنظرت عائشة الى العموز واتسمت اسماً ما يكاد يكون اختصاصياً كأن في نفسها امرأً تتخوفه او كأنها مشتغلة بالمخاطر بأمر هام . ثم قالت « مرحباً بك يا خالة ما الذي جاء بك الى هذا المكان كيف فارقت محمداً »

قالت فارقت في خير وعافية وقد بعني اليك بين النداء لتقيم عندك وديعة لثمة ربنا بأبي . قالت ذلك وتبست

فنظرت عائشة الى اساء فاعجبها ما فيها من الجمال والحلية وأدركت ما علا وحيتها من اطلال الحواء عند ذكر محمد أنها تحبه فوسمت ونظرت الى العموز فاشارت العموز بعينها اشارة أكدت عليها

فقالت لاساء اهلاً بالصيفة العزيزة وديعة اخي فاست اذاً اخي  
فبالفت اساء بالاطراق خجلاً وتورّدت وجنتاها ولم تجب  
فقالت عائشة اظنكنا جنبنا لتقيا عندي في مكة  
قالت العموز نعم يا مولائي

قالت ولكنني شاخصة الآن الى المدينة على ان ذلك لا يمنع مسيركا الى منزلي  
هيكه ربنا اعود او اذا شئنا سرنا معي الى المدينة . ثم التفت الى اساء وقالت ما مالك  
لا تتكلمين يا اساء

فرفضت اساء راسها وقالت « لي عذر بتلعثم لساني لمنوي بن بدي ام المؤمنين  
زوج الرسول ( صلعم ) »

فاجدتها عائشة قائلة ولكلك ستكونين من ذوي قرمانا باذن الله فلا يجب ان  
تهبي . اهلاً بك ومرحباً

فقالت العموز وهي تريد ان تعيب بأساء « واخبر مولائي ان اساء بت يزيد  
الاموي من بني امية لم تأت المدينة الا منذ بضعة اشهر وكانت مقبلة في المنام فهي لا  
تعرف عادة اهل الحجاز »

فقالت عائشة مها يكن من اصلها فهي لا تلبث ان تصير حجازية



## الفصل الخامس والثلاثون

﴿ انقلاب سريع ﴾ -

وسكنت عائشة هنية وهي مغطبة الوجه ثم استأنفت الحديث فأتته وهل جننا  
في رفاق أم مع فافلة

فالت أبا جننا مع عيد بن أبي سلمة أحد أخوالك  
فلما سمعت عائشة اسمها اجطلت بغنة وقالت ولين هو  
فالت هو آت قريباً

فلم تصبر عائشة على انتظاره فتأدت بعض الذين في بابها وإمرته أن يأتيه وأرخت  
النقاب ولبتت صائمة وهما صامتان هائبتان حتى دخل عيد . فلما دخل ثم بتبيل  
يد عائشة فبغته وقالت اهلاً بالخال قل ما وراءك كيف فارقت المدينة  
قال فارقتها وقد قُتل عثمان ويقول غائباً

فلما سمعت ذلك انقطعت حاجبها وظهر الفضب على وجهها فنفرست في عيد  
والشرر يكاد يتطاهر من حديثها وإساءة تراقب ذلك فيها من خلال النقاب وقد  
ذهلت لما بدا منها

أما عائشة فلم تصبر على انعام حديثه . فقالت وهي كآبتها تحفز للنهوض  
« ثم صعل ما ذا »

فلم يستغرب عيد ما بدا منها ولعله كان يتوقعه فقال « اجتمعوا على بيعة علي »  
فبغت عائشة من مجلسها ثم وقتت برهة وأطرقت وقد أسكت طرف نقابها  
وشدته كآبتها تهلحله ثم رفعت رأسها بغنة وإشارت يدها إلى السماء ثم إلى الأرض  
وقالت « ليت هن انطبقت على هن أن تم الامر لصاحبك » قالت ذلك وخرجت  
مسرعة وهي تقول « ردوني ردوني إلى مكة . قُتل والله عثمان مظلوماً والله لا طلب  
بدو » فبغنت إساءة لما رأت من اهتمام عائشة في الامر إلى هذا الحد وإساءة ما سمعته  
من التعريض بعلي ولكن التهب منها عن الكلام

أما عيد فما زال ثابت الجأش والظاهرائة كان على بيعة ما سبدو من أم المؤمنين  
فاعد لكل خطاب جهراً فاستوقفتها وقال لها « ولم والله إن أول من أمال

حرفة لانت<sup>(١)</sup> ولقد كنتِ تقولين انتلالي نعلًا فقد كفر<sup>(٢)</sup> «<sup>(٣)</sup> ألم تخرجي فبص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشعره لما طلعتِ بأعمال عثمان وتقولين « هذا فبيضة وشعره لم يبل وقد يلي ديبته<sup>(٤)</sup> »<sup>(٥)</sup>

فلما سمعتِ عائشة ذلك حولت وجهها نحوه وقالت « انهم استنابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وتقولين الاخير خير من قولي الاول » قالت ذلك وامرت رجلا ان يمشي الاحمال للرجوع الى مكة . فظفر اليها عبد . وهي خارجه وانشد

فمنك البداء ومنك العسر \* ومنك الرياح ومنك المطر  
وانتِ امرت بفنسل الامام \* وقلت لنا انه قد كفر  
فهبنا اطعناك في قتلوه \* وقائله عندنا من امر  
ولم يمتط السقف من فوقنا \* ولم يتكف شمسا والتمر  
وقد بايع الناس ذا ندرا \* بزبل اللبأ وبقيم الصفر  
وبليس للحرب انوابها \* وما من وفي مثل من قد عدر

فلم نعباً عائشة بتولوه فتركها وانصرف

اما اسماء فلبت هي والعجوز وكان على رأسها الطير لاندبان خطاباً . وكانت اسماء قد همت بجواب عائشة ولكنها خافت غضبها فرأت من الحكمة والعقل ان تؤجل ذلك الى فرصة اخرى

فلما تبأت الاحمال بعثت عائشة الى العجوز واسماء فركننا معها وسار الجميع قاصدين البيت المحرام واسماء صامتة وقد ادهشها ما رأت من قبح عائشة فنته لامر لم تكن شوقعة . على انها مالت كل الميل لسامع الادلة على صحة قولها في منزل عثمان وهو الامر الذي ما زال يشغل بالها ولكنها كانت من الجهة الثانية تخاف ان يثبت قناعة ظلماً فجدت ما يدعوها الى التباعد عن محمد وقاها لابطاوعها على ذلك ففقت سافة الطريق غارقة في هذه الهواجس ولم تنبه الا وقد اطلت على مكة فاشرفت على الكعبة وهي في وسطها كأنها ملك وسائر الابنية حولها اجناد . ولم يصب فيل حتى وصل ركبه الى مسجد الكعبة فترجلت عائشة من هودجها وترجل الجميع وسارت هي نوا الى الحجر<sup>(٦)</sup> فاستنرت فيه . وهو مصدبة محوطة بمخاض الى دون الصدر من

ما تركت قریش من الكعبة وانصرت في بنيان الكعبة عنه<sup>(١)</sup> ويقال ان فيو قبر سارة . فلما رأتها اساء دخلت الحجر دخلت في اثرها والعجوز معها ولكنها لم تكلمها لعظم ما حالها من غضبها

## الفصل السادس والثلاثون

### الطلب بدم عثمان

وما كادت عائشة تدخل الحجر حتى اجتمع الناس حولها وفي مقدمتهم عبدالله ابن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة . وشاهدت اساء . بينهم جماعة من بني امية من غادر المدينة بعد مقتل عثمان لكن مروان لم يكن معهم . أما عائشة فلم تصبر على ما فرأى يو من التحية والاجلال فوفقت فيهم وقالت وم سكوت بصغون لمقالها وكانت جهورية الصوت<sup>(٢)</sup> « ايها الناس ان الغنظام من اهل الامصار واهل المياه وعبيد اهل المدينة . اجتمعوا على هذا الرجل المتنول ظلماً وغموا عليه باستعمال من حدثت سنة وقد استعمل امثالهم من كان قديماً ومواقع من الحمى حماها لم فتابعهم وترع لم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام واخذوا المال الحرام . والله لاصعب عثمان خبير من طبايق الارض امثالهم ولو ان الذي اعتدى يو عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه او الثوب من درنو<sup>(٣)</sup> »

فما انتت كلامها حتى هاج الناس وماجوا ثم تصدى عبدالله بن عامر الحضرمي وقال والناس يسمون • ها انا اول طالب » وكان هو اول من اجاب الدعوى الى الطلب بدم عثمان

وكانت اساء لا تزاد من ذلك الا نجيماً ولم تنقه لهذا الامر سبياً معقولاً . فالتفت الى العجوز بجانبها فرأها صائنة مطرقة وقد امتنع لونها وارتجبت شفتاها فلما رأته اساء . نظرت اليها غضت على شفتها تلمس سكوتها فأدركت اساء . ان في الامر سراً لا نستطيع ان نتوحيه يو

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب ف اشارت عائشة الى الناس ان ينصرفوا فصرفوا وخرجت هي تانس منزلاً وسارت اساء في أثرها وقد نفذ صبرها لادهاشها ما رأته في ذلك اليوم من الغرائب وقد عولت ان تغتم اول فرصة للاستنهام عن سب ذلك

فوصل الجميع الى منزل عائشة في العشاء فمدت لهم الاطعمة فتناولوا العشاء ولم ينجراً العجوز ولا اساء على مجالستها في تلك الليلة فباتا في بعض حجر المنزل واساء تنظر الغد لتقابل عائشة وتستطلعها الحقيقية

فلما اصبح الصباح نهضت اساء والعجوز فلما جلسنا قالت اساء لقد ادهشي امرٌ لم يبق لي صبرٌ على السكوت عنه وليس لي من يفرج كربتي - واك قالت قولي ما تريدن

قالت لقد سمعت من ام المؤمنين كلاماً بوخدمته المجاهرة بعداؤي امير المؤمنين علي بن ابي طالب والذي اعلمه ان علياً ان عم الرسول (صلم) وعائشة زوجة الرسول وقد كنت اتوقع وفاقاً بينها على صلاح الامة فرأيت بالعكس ولم افهم السب فتفتحت العجوز واجالت بعينها وانفضت كنيها كأنها تقول « لا يعنيني » ان « لا يعني البحث في ذلك » - اما ملاح وجها فكانت تدل على انها تعرف سباً محاول كناية فتوسلت اليها اساء ان تنصح لها عه

فلما اتمت عليها قالت ان في الامر سرّاً قل من يعرفه - واي ولكنني اخاف ان ابرح و

فانصرفت اساء لسامع الدبيب وجرت نفسها على البساط حتى التصفت بها وقالت بالله ألا فرجت كربتي بكلمة وافي اعدك بالكتمان

فالتفت العجوز بئمة ويسرة وهي تحاذران بسمها احدٌ وادنت شعنها من اذن اساء وهمت بالكلام ثم اجعلت بغنة ورجعت عنها واصغت فاذا هي تسمع صوتاً خارج الغرفة فاصتفا فسمعت وقع اقدام خفيفة فانبعدت العجوز اختفاء لما كانت نهمٌ ثم سمعت قارعاً يقرع الباب وجارية تادبها فنهضت وفتحت الباب فدخلت الجارية واذا هي حبشية فحنها ثم قالت ان مولاتي ام المؤمنين تدعوكا الى غرفتها



## الفصل السابع والثلاثون

﴿ الامام علي ومقتل عثمان ﴾

فَسَرَتْ اِسْمَاءُ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ عَلَى اَمَلٍ اَنْ تَسْكُنَ مِنْ اسْتِطْلَاعِ شَيْءٍ فَهَبْنَا وَدَخَلْنَا عَلَيْهَا فَاِذَا هِيَ جَالِسَةٌ عَلَى طَنْفَةِ مِنَ السَّجَادِ الثَّمِينِ وَقَدْ خَلَعَتْ الْجِلْبَابَ فَبَانَتْ اَنْوَالُهَا الزَّاهِيَةَ فَرَادَتْهَا رَوْتًا وَبِهَاءً وَبَانَ مَعْصَاهَا وَعَنْفَهَا وَعَلِيهَا الدَّمَائِحُ وَالْاَسَاوِرُ وَالْعُقُودُ مَا يَذْمُلُ الْبَصْرَ وَيَزِيدُهَا جَمَالًا . عَلَى اَنَّهَا كَانَتْ لَا تَزَالُ مُقَابِلَةَ الْوَجْهِ وَقَدْ طَلَبَهَا الْهَيْبَةُ فَلَمَّا دَخَلْنَا قَبَلْنَا بِرِجْلِهَا وَجَلَسْنَا عَلَى وَسَائِدٍ مِنَ الدَّمَسِّ الْمَلَوَّنِ بِالْعَرَبِ مِنْهَا . قَلْبَتْ بِرَهْمَةٍ لَا تَسْكُمُ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ تُوَجِّهُ خَطَايَاهَا اِلَى الْعَجُوزِ « كَيْفَ قَتَلُوا عُمَانَ يَا خَالَةَ » قَالَتْ قَتَلُوهُ فِي دَارِهِ بَعْدَ اَنْ احْرَقُوا الْبَابَ وَالسَّقِيْفَةَ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ عُرْوَةَ قَالَتْ وَمَنْ قَتَلَهُ وَكَيْفَ

فَسَكَتَ الْعَجُوزُ بِرَهْمَةٍ ثُمَّ قَالَتْ لَا اَعْطِي قَادِرَةَ عَلَى وَصْفِ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ كَمَا نَصَحَا اِسْمَاءُ . وَقَدْ شَهِدَتْ الْقَتْلَ بِنِسْبَةِ لَانِهَا كَانَتْ فِي دَارِهِ سَاعَةَ مَقْتَلِهِ فَحَوَّلَتْ عَائِشَةُ نَظَرَهَا اِلَى اِسْمَاءَ بِاِهْتِمَامٍ وَقَالَتْ « هَلْ كُنْتَ فِي الدَّارِ سَاعَةَ الْقَتْلِ » قَالَتْ نَعَمْ يَا مَوْلَاتِي قَالَتْ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ

فَشَقِيَّ عَلَى اِسْمَاءَ اَنْ تَقْصُ الْوَاقِعَةَ كَمَا جَرَتْ لَانِهَا نَسِيَتْ مَحْضًا وَلَكِنَّهَا لَمْ تَرَ بَدَأَ مِنْ الْمَجْرِبَاتِ فَقَالَتْ اِنْ اَلْحَدِيثُ لَوْ اُرِدْتُ بِسَطِّهِ لَطَالَ بِنَا الْمَقَامِ وَلَكِنِّي اَقُولُ بِالِاخْتِصَارِ اِنَّهُمْ اسْتَبَاوُا كَمَا قُلْتِ فَنَابَ ثُمَّ رَجِعُوا لَنْدِ نَصَحَ لِي عَلِيٌّ اَنْ يَصْمُ اَذْيُوْعْنَ سَاعَ مَشُورَاتِ كَاتِبِهِ وَاَنْ عَمْرُو مَرْطَانَ فَلَمْ يَصْغِ فَعَادَ اِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ وَعَلِمَ النَّارُونَ ذَلِكَ فَطَلَبُوا اِلَيْهِ اَنْ يَسْلِمَهُمْ مَرْطَانَ وَيَعُودُوا فَاَبَى فَمَهْمًا يَمْتَزِلُوْا وَدَخَلُوْا عَنُقُ وَقَتَلُوْا . قَالَتْ وَمَنْ قَتَلَهُ

قَالَتْ اِسْتَانَ لَا اَعْرِفُهَا وَلَكِنَّهَا مِنْ صَعَالِيكِ الْعَرَبِ لَبِسَ اَحَدُ مِنْهَا مِنَ الصَّعَالِيَةِ اَوْ اَوْلَادِهَا فَنَأْوَهَتْ عَائِشَةَ وَحَرَفَتْ اِسْمَانِيَا وَقَالَتْ وَكَيْفَ بَنُوِي الصَّعَالِيكِ عَلَى قَتْلِ الْخَلِيْفَةِ

وكبار الصحابة ينظرون ولا يهزؤون ولا يهزأون ساكنًا ولا يدافعون عنه بسيف أو لسان  
فلم ترَ أساءه بنًا من الدفاع فقالت انهم يا مولاتي قد دافعوا عنه جهدهم واعلم  
ان عليًا ارسل ابنه الحسن والحسين الى دار الخليفة وكذلك فعل سائر الصحابة ولقد  
رأيتهم هناك يدفعون الناس عن بايو حتى تلتطخ وجه الحسن بالدم . ولكن الخليفة  
رحمة الله معهم عن الدفاع واستخلفهم ان لا يفعلوا

فنبست عائشة ابتسامًا يذف عن استخفاف بحديث اساءة وقد استغربت  
اعتقادها دفاع الصحابة عن عثمان وقالت أصدقين ان عليًا لو اراد ان يدفع الناس  
عن عثمان لم يستطع دفعهم . ولكنه فعل ما فعله . . . . . وسكنت كأنها ضاقت ذرعًا  
عن الخوض في تفاصيل الموضوع ولم تكذبهم بانمام الحديث حتى ابتدرها اساءة فائلة  
اسحبي لي يا مولاتي ان اودى شهادة لا اسحبي ان اصرح بها امام الدين العظيم .  
ان عليًا بريء من دم عثمان بل هو اول نافع على هذه الفتنة لاعتقاده انها ستكون سببًا  
في تشتت شمل الاسلام ويظهر ان اعتقاده كاد يتحقق لا سح الله

قالت اراك يا بنتي تنظرين الى ظواهر الامور دون بواطنها أتعلم ان عليًا  
بما له من النفوذ في اهل المدينة اذا اراد الدفاع عن عثمان لا يستطيعه

قالت عرفتُ بقينا انه اول غاضب على الثائمين بهذه الثورة ولقد سمعته ذات ليلة  
يناجي رسول الله ( صلعم ) على قبره يشكو اليه ما اصاب امته من النشنة بعك وكان  
وجودي هناك صدفة فسمعت كلامًا ينبت له الصغرى مخلة شهي البكاء اسفًا على حال  
الاسلام . ان عليًا يا مولاتي مخلص في قوله وفعله ولا لوم عليه ولعلك اذا وجهت اللوم  
على الثائمين او العرضين على القتل ان تجدي وجهك للوم . قالت ذلك وهي لا تزال

هاهمة موقفها بين يدي ام المؤمنين فما اتمت كلامها حتى تصيب العرق من جبينها  
فهبّت عائشة من مجلسها وقالت وقد اخذ منها الغضب مأخذًا عظيمًا . ان اولئك  
الفتنة قد ارتكبوا انما عظيمًا لا مشاحة فيه ولكن معظمهم لا يدركون عاقبة ما يعملون .  
وانما حرضهم على هذا المنكر شيوخهم وروساؤهم فانك تفتهم في امور اهلها ولا اجمل  
شيئًا تعلية . . . . . وسكنت برهة واساء مطرقة وقد حارت في الجواب . فاستأثنت عائشة  
الحديث فقالت « ولقد بلغني ان اخي محمدًا كان في جملة المفرورين » ثم خفضت  
صوتها وقالت وهي ثاني يدها على الوسادة لتتكي عليها « ولكنه لا يلام لانه ربيب علي »

فلما سمعت اسماء ذلك نارت في قلبها نار القهقريه وارادت الدفاع عن محمد فحافت ان ترتكب الكذب فليست صاعقة ونظرت الى العجوز فرأها قد تغيرت سمعتها خوفاً ورهبة وظلّ الجميع سكوتاً برهة لانتموه احساناً بكلمة حتى عادت عائشة الى الكلام فنظرت الى اسماء وقالت وهي تحاول اخفاء غضبها وتسكين عواطفها « لا أنكر ان عثمان اخطأ في بعض احوال تصرفوه في خلافته وأكثه خطأ لا يستوجب عليه غير اللوم والصيحة لا القتل »

فأجبت اسماء ان نسمع رأي عائشة في ما ارتكبه عثمان من الخطأ فقالت « وهذا ما سمعته من اخيك محمد ولكنه يعتقد ان خطأ اعظم من ذلك كثيراً »  
قالت وقد عادت الى النضوب ان محمد لا يعرف ما اعرفه ولو حضر الآن لمجادلته في الامر وينت له خطأً بالبرهان . ولم تكذب كلامها حتى دخلت بعض العجوزي وهي تقول ان بعض الامراء في الباب . فلما سمعت اسماء ذلك نظرت الى عائشة فرأها توقف عن رد الجارية فادركت انها راغبة في مقابلة القادمين فهضت واستأذنت في الانصراف الى حجرتها فأذنت لها وخرجت العجوز في اثرها وكلاهما صانعتان تنكران فيما سمعناه

## الفصل الثامن والثلاثون

### ﴿ البرداء ﴾

وأحست اسماء حال خروجها بقشعريرة شديدة ولم تكذب نصل حجرتها حتى اصابتها البرداء فالتصت الفراش والبرداء تتزايد في اعضائها فغطتها العجوز واجلسها في الفراش وجلست هي الى جانبها وجعلت يدها فاذا هي باردة كالثلج فغطتها بالاحرمة والاحلقة وهي لا ترداد الا اعتفاً فانشغل بال العجوز وسألها عما تشربون فقالت انها تحس بارغما في اعضائها وارتماش في كل جوارحها قالت ذلك واسنانها تصادم لسفة الارتماش . فارادت العجوز ان تخفف عنها فقالت لها لا بأس عليك يا بنية اقلتك اصبت بذلك على اثر النصب الذي قاسيناه في اثناء الطريق

فلم تجبها اسماء وغلب عليها السكوت فلبثت صامتة والعجوز الى جانبها تفكر في حيلة تخفف بها عنها ولم يمض قليل حتى خنت عنها البرداء واحمر وجهها احمراراً شديداً . فجبتهما العجوز فاذا هي شديدة الحرارة فخننت الاغطية عنها وخرجت تستشير اهل الدار في علاج تصنه لها . فاشارت عليها بعض النساء بعسل نشربه مزوجاً بالماء فجابتهما بقدرح من مزيجوه فلم ترض ان تتناول منه شيئاً . فتقدمت اليها وقبلتها في جبينها ونوست اليها ان تشرب ذلك العسل فلم تجبها ثم ما لبثت ان رأت الدموع تتناثر من عينيها وهي تحاول امساكها . فجباهلت العجوز ولحمت عليها ان تشرب فلم ترد اسماء الا بكاء ولم تعد نالك عن الشهيق وقد اجمرت عيناها وذبلت اجفانها واشتدت عليها الحمى اشتداداً عظيماً

فحارت العجوز في امرها وودت ان تخبر ام المؤمنين بذلك ولكنها تذكرت الشغلا بمن قدم عليها من الامراء فلبثت بجانب الفراش تنظر الى اسماء وبكائها ولا تتكلم

ثم سكنت اسماء وانقضت جنبها كأن العاس قد غلب عليها ففرحت العجوز بنامها فتركها وخرجت لعلها نأى من تشويره في معالجتها ولم تك تخرج حتى سمعت اسماء تتكلم فظننها تدعوها فأسرعت اليها فاذا هي بهذي وقد كسنت الغطاء عنها وانحسر درعها وقبصها عن صدرها وتكشفت آكامها لفرط ثقلها وهي غارقة في النوم فارادت العجوز ان تغطيها وتصلح الثوبها فخافت ان تميظ ولكنها دنت من الفراش لترفع الغطاء الى صدرها فرأت الحجاب في عنقها ورسم الصليب على معصها . فبغنت وتأملت وجهها فاتبهت الى شيء فيه غير ملامح العرب الهضة واعادت النظر الى الرسم على معصها فاذا هو رسم الصليب وتحننت ان الحجاب من احبة النصارى فاستغربت الامر ثم تذكرت ان اسماء قلما كانت تبالي بالتحجب في مخاطبتها بعد ان غيرة فقاتلت في نفسها هل هي نصرانية ام ربييت بين النصارى في الشام

وكانت اسماء في اثناء ذلك ساكنة مستغرقة في النوم وقد اطبق جنبها وتوردت وجتها واسرع تنفسها من شدة الحمى حتى كانت تنفس لثماً ونفها متبوح فازاحت الغطاء الى صدرها خوفاً عليها من البرد فمعصتها بهذي فاصغت لهدباتها لعلها تستطلع شيئاً من سرها فاذا هي تقول « أماء يا أماء يا مرم ... آه يا علي يا ابا

الحسن كيف ضاع ذلك السرُّ . . . . . نعال يا حيبي يا محمد . . . لا لا اذا كنت  
 قتلت عثمان فانت بعيدٌ عني . . . . لا لابل نعال يا منيبي ورجائي ان اسلك آخر  
 لنظ خرج من بين شفتي امي قبل وفاتها . . آء يا اماء . . من هو ابي اخبريني . قولي  
 لي هل هو حي بعد ام سبقتك الى العالم الآخر . . . » ثم خفضت صوتها ونجج لسانها فلم  
 تعد تنهم العجوز شيئاً من كلامها واخيراً سكنت سكوتاً تاماً واستغرقت في النوم . فجلست  
 العجوز بالقرب من الفراش وهي تودُّ ان تبسها لتتحقق حال الحمى ولكنها خافت ان  
 تزعجها فلبثت صامتة تفكر بما سمعته منها وتبجب لجلها والدها

## الفصل التاسع والثلاثون

### ﴿ أم الفضل ﴾

وقيا هي في ذلك اذ جاءت بعض الجوارى مسرعة وهي تقول « ان ام الفضل  
 قادمة لتراك »

فلما سمعت اسم ام الفضل تحفزت للمرافقتها وقد سررت بتدومها . وبعد هنيهة اقبلت  
 ام الفضل تمشي الموبناة لا يسمع لمشيها صوت . وكانت في نحو السنين من عمرها فهتت  
 العجوز وحينها وقبلتها ودخلت بها الى الغرفة ودعتها للجلوس على البساط

فقالته ام الفضل وهي لم تنظر الى فراش اساء بعد « اني اسم في هذه الحجرة راحة  
 الحمى والتفتت الى الفراش وقالت من هو المريض عندك »

قالت لقد جئتني في ساعة ضيق فمسك ان تفرجني عني  
 قالت انما جئت لاسألك عن مقتل الخليفة رحمه الله وما آكل اليه الامر بعد  
 فقد همني امرٌ كثيراً وسمعت بتدومك فاسرعت اليك . فاخبرني اولاً من هو  
 المريض معك

قالت هي فتاة جئت بها من المدينة باعزاز من ابن اخنك محمد بن ابي بكر لتقيم  
 بضعة ايام عند اخنوا المؤمنين ريثما نرى ما يكون  
 قالت وما علاقة ابن اخني بها

فالتفت العجوز الى فراش اساء وهي تخاف ان تستيقظ فتسمع كلامها ودنت من ام الفضل وهمست في اذنها انه بنوي ان يكتب كتاباً عليها وارادت ام الفضل ان تمنهم العجوز عن اتصال مفضل عثمان فاذا باسماء تنأى ثم اذارت رأسها نحوها وفتحت عينها . فهضت العجوز اليها وجست يدها فاذا هي مبتلة بالمرق وقد خنت الحمى قليلاً فقالت لها كيف تزين نسك يا بنية فاشارت برأسها وعينها انها في راحة ثم رأت ام الفضل فاستحمت منها وارادت الجلوس فهضت ام الفضل اليها وهي تقول لا تزغبي نسك يا ابنتي . قالت ذلك ودنت منها

فتوسطت العجوز بينها وقالت اظنك تستأنين بلقاء ام الفضل وهي لباية حالة محمد بن ابي بكر اخت امو ولزيدك تعربقاً بانها اول من اسلم بهد خديجة وهي ايضاً زوج العباس عم النبي واخت ميمونة زوج النبي ( صلعم ) ومن اولادها عبد الله ابن عباس من خاصة امير المؤمنين علي بن ابي طالب بل هو ابن عمو وابن عم الرسول ( صلعم ) واظنك شاهدتو غير مرة في مجلس علي اولملك رأيتو في دار عثمان فقد تردد اليو وهو محصور حتى اتدبه ان يخرج بالناس<sup>(١)</sup>

فلما سمعت اساء انها حالة محمد استأنست بها ولما علمت انها زوج عم النبي وأم عبد الله ابن عباس زاد احترامها لها فجلمت وهي تمسح العرق عن جبينها ورحبت بها فاسرعت ام الفضل وقبيلتها وقالت اهلاً بك كيف فارقت محمدًا فحجبت اساء لسؤالها عن محمد وهي تحسبها لا تعرف علاقتها به . فلما رأت العجوز استفراها ضحكت وقالت لا تستغري يا اساء ما نسألك عنه لانها عالة بكل شيء وهل يخفى القدر

فاسرقت اساء خجلاً ولم تجب فجلمت ام الفضل الى جانب العجوز على البساط بالقرب من الفراش وقالت لها بصوت مخفض كأنها تخاذر ان يسمعا احد « هل قابلت ام المؤمنين وكيف لقيتها » قالت لقيتها نائمة على قنطرة عثمان ولا ادري ما تنوي قالت علمت انها في يوم وصولها مكة دعت الناس للطلب بدم عثمان وكان اول

من اجابها منهم عامل هذه المدينة

قالت نعم انها فعلت ذلك وقد شهدت كلامها وكلامه ومعها اسماء ولكنها لا اظنها تنوي اخراج ذلك من القوة الى الفعل

فاجبت ام الفضل ابناساً يمازجه استغراباً وقالت « وما الذي حملك على هذا الظن؟ » والثنت الى اسماء فرأتها مشتغلة بالالتعاف وقد أحمت بقشعريرة على اثر نهوضها وحبسها سبل بالمرق . فادنت ام الفضل منها من اذن العجوز وخففت صوتها وقالت « أهلك تجهلين ما في نفسها على امير المؤمنين »

فعضت العجوز على شفتها وإشارت بعينها انها لا تريد الخوض في هذا الشأن امام اسماء مع انها ارادت ان تطلقها عليه مرة ولكنها ندمت وبدلت الموضوع وقالت « اذن فظنين انها تنوي اخراج ذلك الى حيز الفعل »

فتطاولت ام الفضل بعثها نحو الباب حتى أطلت على الدار مخافة ان يكون احد قريباً فيسمع كلامها وقالت « لا بد لما من ذلك فان اهل مكة بدوا واحدة في هذا الامر وفيهم بنو امية الذين هربوا من المدينة وعلقت ان الزبير وطلحة قادمان الى هنا وكل منهم طامع في الخلافة لنفسه وقد سار قوم لا يستحاث اهل البصرة وآخرون للكوفة وغيرهم تحريض اهل اليمن وآخرون الى الشام »

فابتدرها العجوز قائلة اما اهل الشام فلا يجناجون الى تحريض وفيهم معاوية ابن عم عثمان رحمه الله وقد حملوا اليه قبض عثمان الملتطخ بالدم واصابع نائلة ليعيها اهل الشام على التائبين

فتهدت ام الفضل وتأنوت وقد عظم عليها ما تحقوة من عظم الفتنة حتى تآثر الدمع من عينيها وظلت صامتة

## الفصل الاربعون

### ﴿ دعوى الناس على عثمان ﴾

واما اسماء فكانت في اثناء ذلك مضطربة الحواس نسمع الحديث ولا تنوي على جواب فلما رأت ام الفضل تبكي تذكرت بكاء علي عند قبر النبي في تلك الليلة التي رأت

فيها محمداً لأول مرة . فانتقل ذهنها الى محمد وما يعترض آمافا فهو من امر النبوي من مثل عثمان . وكانت لما سمعت كلام عائشة قد اغلبت على محمد وكادت تتحقق ما سمعته لولم يتم في قلبها ما يبرئه وهو المحب . . . على انها ما زالت ترد سماع دفاعه او دفاع من يقول بقوله ويرى مقتل عثمان . فلما رأت سعة علم ام الفضل في تاريخ الاسلام وقد رافقت كل حوادثه وسمعت اسبابها ونتائجها كلها بصوت ممتنع من تأثير الضعف والحسني فاشبهت ام الفضل واصفت لمفالمها . فقالت اسماء ان في نفسي شيئاً لا صبر لي عليه

قالت وما هو

قالت لقد شهدت مقتل الخليفة عثمان رحمه الله وسمعت دعوى الناس عليه ولكني تحفت من حوادث كثيرة انهم ظلموه وان الذنب ليس له وانما هو لمروان ابن عمه فقد كان كاتبه يتصرف في شؤونه كيف شاء . ولكن ابن اخنك ( تريد محمداً ) ولم تذكر اسماء حياء ) بزعم انه يستوجب القتل ولقد جادلته في الامر فوعظني بتأييد رأيي في فرصة اخرى

فلما سمعت ام الفضل كلامها تنهدت ثم قالت لقد وقعت على خير فاني اعرف عثمان قبل اسلامه واعرف ترجمة حاله ما استرمتها وما ظهر وهي لا تخلوما يعجز الاحزاب عليه وبشيء الضعفاء واطنه لومني بوزير او مشير عاقل او كاتب غير مرطون لما بلغ الامر الى ما بلغ اليه . والبك ما ارتكبه عثمان ما هاج غضب الصحابة عليه

( ١ ) ان الصحابة كما تعلمين م الذين قاموا بصرح الاسلام وتأيد دعوتهم منذ اول ظهوره فهم اولي من سوام بولاية الامصار وتولي الاعمال وكانوا كذلك على عهد صهري رحمه الله وعهد الامام عمر بن الخطاب فلما تولى عثمان عزل اولئك الصحابة وولى آخرين من ذوي قرابته كما فعل بعمر بن العاص في ولاية مصر وهو الذي فتحها وغرس الاسلام فيها فعزله وولى مكانه اخاه عبد الله بن ابي سرح ( اخا عثمان من الرضاة ) وعبد الله هذا كان في جملة الذين ارتدوا بعد اسلامهم ولحقوا بالمشركون فاهدر النبي دمه وعثمان اخذ له الامان بعد فتح مكة

( ٢ ) ان عثمان اسرف اسرافاً شديداً بيت المال وكان يعطي منه اماناً من

فراجه طردم النبي ( صلعم ) ولا يفرنك ما يقال عن تقشفه وزهده في طعامه  
 ( ٢ ) انه اساء جماعة من اعلام الصحابة وذوي المقامات السامية في الاسلام  
 منهم عبدالله بن مسعود وابو ذر الغفاري وتقام عن اولادهم وانتهك حرمة كعب بن  
 عبة الهزلي وحرمة الاشتر القمي في امور بطول شرحها  
 ( ٤ ) انه زاد كثيراً من الضرائب على الاسواق وحسب سوق المدينة في بعض ما  
 يباع وبشئى فقال لا يشتري منه احد النوى حتى يشتري وكيلة ويفرغ من شراء ما  
 يحتاج اليه عثمان . وحسب الجبر من ان تجري فيه سنة الآ في تجارته  
 ( ٥ ) انه اقطع اصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الاسلام ما لم يكن له فعلة (١)  
 وهناك امور اخرى نسبها اليه كخالفه الجماعة في اتمام الصلاة بيني وانزاده  
 باقوال شاذة ونحو ذلك

ولكن لاصحابه حجباً يدافعون بها عنه وهي طويلة لو اردت ذكرها لطال  
 بنا الكلام (٢)

وكانت ام الفضل تنكح بصوت منخفض واساء تطاول نحوها وكلها آذان لسامع  
 حديثها فاطمان بالما لانها رأت لهدى عذراً في عملها وهي مبالغة من بادى الرأي لتبرئته  
 فأحست عند سماع كلام ام الفضل كأنها التت عن ظهرها حملاً ثقبلاً . ولكنها نعت  
 من الاصفاء واحست بدوار وغثيان فاستلقت على ظهرها وقد امتنع لونها ولم تنه بكلمة  
 فلما رأت العجوز اصفرارها علمت انها أصيبت بدوار من شدة الجوع لانها لم تذق طعاماً  
 في ذلك اليوم . فنادتها فأجابته ولم تنتع عينها لثقة الدوار . فقالت لها العجوز ألا  
 نشرين قليلاً من العسل فانه دواء شاقك لك

فأشارت اساء بمجاجيبها ان « لا » ولم تنكح فحارت العجوز في امرها واستشارت

ام الفضل في ماذا تفعل  
 فقالت دعها تمام الآن

فصبرت حتى تحققت انها ناست فتركها في الغرفة وخرجت وام الفضل معها ولم  
 يبق لها صبر على تفصيل حادثة عثمان . فنزلنا من الدار وعانشة لا تزال في غرفتها وعندها

(١) تاريخ الحبيب ج ٢ ( ٢ ) في تاريخ الحبيب بد ذكر مقتل عثمان كلام طويل  
 في ما ادعوه عليه والدفاع عنه فليراجع هناك

الامراء فحولنا الى بستان فيه نخلات متقاربة تحتمها ظلٌ كثيرٌ فشاهدنا هناك خيولاً  
وجمالاً ومعها الخدم وقد شدوها الى جذوع النخل فحولنا الى نخلات منفردة في طرف  
الستان جلسنا اليها واخذت العجوز نفس ما تعرفه عن مقتل عثمان وكلامها تحاذران  
ان تعلم ام المؤمنين بما يدور بينها

فلما فرغت العجوز من حديثها قالت ام الفضل رحم الله عثمان وابد علياً فاني لا  
ارى خيراً منه لولاية امر المسلمين لقرابتو وعلو وفضلو وشجاعته وسبقه الى الاسلام  
ولكن ابني عبدالله ( عبدالله بن عباس ) بمقداته ضعف الرأي ' ' ولكنه مع ذلك  
بخلة على كل من يلها سواء وقد خاطبته في ذلك فل عودتو الى المدينة اس قرأته  
فرحاً بخلافة الامام علي

قالت وهل كان لا يزال هنا منذ جاء للحج

قالت نعم ان عثمان وهو محصور امر ان يهيج بالناس كما تعلمين ' ' فجاء وقُتل  
عثمان وهو غائب ولما بلغته قتله وولاية علي مع ما يتوقعه من الخلاف بسبب ذلك  
اسرع ليكون بين يديه لعله ينعمه في شيء

وتذكرت العجوز حال اماء فقالت وماذا ترين ان افعل باسما ومرضا

قالت اظنها تشفي غداً ولا بد من شربها العسل

فقالت سأحمل ام المؤمنين على ان تسبها اياه

## الفصل الحادي والاربعون

### ﴿ شرب العسل ﴾

وقياها في الحديث رأنا الفلمان في حركة وم بمرجون الخيول والجمال  
يهتوبا للركوب فعلمنا ان الامراء اوشكوا الخروج من عند ام المؤمنين فنهضت  
ام الفضل وودعت العجوز وانصرفت على بئلة كان خادمها يتظرها بها بالقرب  
من البستان

أما العجوز فظاهرت أنها انما نزلت الى البستان لتستقي من البئر . وفيها هي بالقرب من باب الدار سمعت جلبة ثم رأت جمهوراً خارجين من الدار معظمهم من بني أمية وعلى وجوههم سيات الظفر ولم تجد بينهم احداً تعرفه فتحت ربنا خرجوا وانصرفوا ودخلت تطلب هجرة أسماء . وهي في قلبي لئلا تكون قد افانقت في اثناء غيابها فوجدت الهجرة مفتوحة وعند بابها خفتُ عرفت انه خوف ام المؤمنين فابقت انها جاءت لتنفذ أسماء . فأسرعت حتى دخلت الهجرة فاذا هي واقفة عند رأس أسماء . ولما رأتها ام المؤمنين داخله وعلى وجهها امارات البغنة اشارت اليها بأناملها وشتمتها ان نثني الموبيا وإن لا تخاف . فأبطأت في خطاها حتى دنت من أسماء فأرغمتها قائمة وقد كلال العرق جبينها فالتفت عائشة الى العجوز وسألها عن حالها فقالت انها شعرت بالبرداء منذ خرجنا من عندك ثم اصابتها الحمى كما ترى

قالت اسقياها العسل

قالت جئت اليها بقدر من ( وإشارت الى القدر ) فلم تشرب  
قالت هاؤنا انا اسقياها اياه فانه خير دواء . والتفت الى أسماء فأرغمتها فترك وهي تمسح العرق عن وجهها بكنيتها فدنيت من فراشها ففتحت أسماء عينها ولما رأت ام المؤمنين اجملت وبهضت للجمال وقد توردت وجنتها . فقالت لما عائشة لا تزعمي تمسك يا بنية وجست يدها فانما هي لا تزال حارة وقد ذبلت عينها واحمرنا من شدة الحمى

فقالت لها عائشة ألم تشربي العسل يا أسماء

قالت لا اشتهي طعاماً يا مولاتي ولا حلواً

قالت انما هو دواء فيه شفاء للناس وقد سمعت رسول الله ( صلعم ) يقول

« الشفاء في ثلاث شربة عسل وشربة عجم وكية نار وايها امي عن الكي » (١١)

وزد على ذلك انه ( صلعم ) كان يهجم الحلو والعسل . قالت ذلك وتناولت القدر

ودفعت الى أسماء . فتناولته ولم يعد في امكانها الا شربة فشرته ولم يمس قليل حتى

احس برطوبة حلقها . واوصتها عائشة ان تتناول شيئاً من لبن الابل فأطاعت وبعد

شرب اللبن اتعمت فجلست في الفراش . ورغبت الى ام المؤمنين ان تمسك عندها

لأنها استشرت بها وابتدأت منذ رأها ان تشر بمن في صحتها  
 فقالت عائشة بل ارى ان تنزل الى البستان نستظل بالعرش لاني نويت من  
 الحياء وتزاح الناس علي في هذا اليوم . واظن تزولك الى هناك بيديك  
 قالت اني انشرف بمراقة ام المؤمنين واستأنس بهما . فهنض ولما وقفت اساء  
 أحست بضعف قلل شتاً من حركتها وظهر عليها الذبول ولكنة زادها هبة وجمالاً  
 ومشت عائشة امامها وهي صامتة والجلال والوقار يفشيانها وسارنا في اثرها وقد  
 هالما سكونها حتى وصلنا البستان وهو محاط بسور من سعف النخل في وسطه عريش  
 مصنوع من الجريد يستظل به وقد نصب فيه مقاعد من الجريد والخشب . فدخلت  
 وجلسن فيه ولم المؤمنون لا تزال صامتة ثم دعيتها للجلوس فجلستنا متاًدبين وفي نفس  
 كل منها شيء ففكر فيه ولكل بشاغلن بما يسمعه من حريف سعف النخل لا اشتداد  
 الريح في ذلك اليوم

## الفصل الثاني والأربعون

### ﴿ طلحة والزبير ﴾

ولم يكدي يستحب بهن الجلوس حتى سمعن جهوراً وصهلاً وعلية فاقطبت عائشة  
 حاجبها تطلماً لما يأتيها من اخبار القادمين وما علم ان دخل بعض الخدم وعليو  
 امارات الدعشة

فقالت ما وراك يا غلام

قال ان ركباً قادمين من المدينة وفيهم طلحة والزبير يتنمون المتول بين يديك .  
 فلما سمعت اساء ذلك بغتت وظهرت البغته على وجهها وتحفزت للنهوض والعود الى  
 البيت لتجلى ام المؤمنين بالقادمين

فقالت لما عائشة ( وقد تغير وجهها ) « لا ارى حاجة الى دخولك البيت الآن  
 ولانا رأيت ان لا تحضرا مجلسنا فاجلسا وراء هنا العريش

فهنضنا وتحولنا الى منعد وراء العريش جلسنا طويو وقد سررت اساء بيقامها هناك  
 لعلها ان طلحة والزبير قدما من المدينة بعدنا ولا بد من خبر جديد جاء به او انها

جاءا في امر بهما الاطلاع عليه لعلائقو بالامام علي وهي تعلم انها بايما علياً مكرهين  
فلبتت مستتره يجدار العريش واصاحت بسهما وهي تنظر من خلال الجريد الى من  
يدخل العريش

فامرت عائشة بدخول طلحة والزبير وارخت ثيابها وبعد هنيهة قدما وهما  
لا يزالان بتياب السفر وقد علاها الغبار ومعهما رجال آخرون

فدخلوا ولا طلحة بصدره العريض ولحيته البيضاء الكثيفة مع قصره وقد ازداد وجهه  
حمرة من عطائه السفر ومال الى السمرة من اثر الشمس وكانت اساء قد شاهدته غير مرة  
في المدينة فلم تستغرب. وكذلك الزبير وهو يمتاز عن طلحة بخفة عضله وقلة شعر لحيته<sup>(١)</sup>  
فدخلوا ودخل في اثرها ابناهما فقالوا السلام عليك يا ام المؤمنين

قالت « وعليكم السلام يا اصحاب الرسول وغلبة المهاجرين وخيانة الاسلام »  
وامرهم بالجلوس فجلسوا على مقعد ومطرفون لا ينظرون اليها اجلالاً لحرمتها . فبعد  
ان استراحوا خاطبت طلحة والزبير قائلة

من اين اتينا

فاجابها طلحة جننا من المدينة

قالت كيف فارقتماها

قال « انا تحمّلنا هراباً من غوثنا . واعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً  
ولا ينكرون باطلاً ولا ينعون انفسهم »<sup>(٢)</sup> قال ذلك وعلائم الغضب تبدو من خلال  
حديثه والزبير همهم بالكلام كأنه لم يكف بها فاقاله طلحة

فقلت كيف يتدل عثمان وانتم تنظرون

قال الزبير والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد دافعنا عنه باولادنا وانفسنا ولكن  
الغوثنا . غلبت علينا فلم نمنع قدراً واقماً

قالت ثم بايعتم وانتم راضون

قالا بصوت واحد لم نمانع الا والسيف على اعناقنا وما نحن راضون بهك المبايعة

(١) امد اللباب (٢) ابن خادون ج ٢ - تنبيه ١ كل ما ورد من الاشارات الى

ابن الاثير في ذيل الصفحات الماضية من هذه الرواية انما هي من جزئي الثالث وان ورد سواها في

بعضها اية الجزء الثاني

قالت انهمضوا اذا الى هذه العوثا . وطالبوا بدم ذلك الرجل المتبول

قالا اما جئنا لذلك

فقالت وقد جاءنا ايضاً عبد الله بن عامر ابن خال عنان وعامة على البصرة ولما  
سمع يقتلوا حمل ما في بيت المال وجاء اليها وكذلك بعلي بن منية جاء من  
اليمين ومعه مائة دينار وستائة الف درهم وقد اتاح في الاصلح <sup>(١)</sup> وقد كاد  
عندي اليوم

ولم تترك كلامها حتى جاءها غلام يبيها يتدوم ابن عامر وان منية فقالت  
ليدخلوا . فدخل اولاً ابن عامر وهو شاب في الثلاثين من عمره وعلوه جنة حمراء <sup>(٢)</sup> ثم  
دخل بعلي بن منية وهو يمشي عرجاً وقد كسر فخذه في طريقه من اليمن وكان قد سمع يقتل  
عثمان فاقبل لبصرة فستط عن بعيره في الطريق فانكسرت فخذه <sup>(٣)</sup> فجاء برجاله  
ومالوا . فلما دخل ابن عامر وان منية لما على الخنجر والزير فقال طلعة لان منية مالي  
اراك نمشي عرجاً

قال كسرت رجلي وانا قادم لبصرة عثمان ولكن معي المال والرجال قوموا بها  
للاخذ بالنار

فقال الزبير لهم بنا الى الشام

فاعترضه ابن عامر قائلاً ما لنا والشام وفيها معاوية وهو بكبركوهوا ولكي اري  
ان تأتوا البصرة فان لي بها صنائع ولم في ثلثة هوى وم مبالون لما بعنو <sup>(٤)</sup> فقالوا فبجك  
الله المك تريد السنة ولكن دعنا من ذلك ولنسر الى البصرة . فتم الرأي على ان يهربوا  
الى البصرة يدعون من بها للطالب بدم عثمان ويهضونهم كما انهمضوا اهل مكة

وكانت اماء . سمع حديثهم من وراء العريش فلما علمت بما تم اجامهم عليه عظم  
عليها الامر وتحققت ان السنة واقعة لا ريب فيها فائتر ذلك في نفسها فاضطربت  
وخفق قلبها وثار الحمية في رأسها حتى كادت تنهم بالتهوض والدخول على  
الجمع . فادركت العجز اضطرابها فامسكت يدها فاذا هي ترتش من عظم  
الاضطراب فهمت في اذنها ان لا تضطرب لئلا تضرب بجمتها

(١) يراد من التاريخ انهم جاءوا بعد ذلك بضعة اشهر ولكن الرواية اخذت ذكرها بها

(٢) اسد الغابة (٣) اسد الغابة (٤) بن الاثير ج ٣

فقال لا صبر لي على ما اسع و ما بر بدون الانتفاض على الامام علي بعد ان  
بايعوه ورأيهم بعيني وقد بايعوا وانصبوا على الطاعة  
فجعلت تخفف عنها وهي تغفر للقيام

## الفصل الثالث والاربعون

### ﴿ الاجماع على الطلب ﴾

وفيا هي ثم بذلك سمعت صوتاً ارتعدت له كل جوارحها فاصفت واذا هو  
صوت مروان وقد دخل العريش وقيل ان يلقي النعيه خاطب طلحة والزبير قائلاً  
وهو يضحك « على ايكما اسأ بالامارة واؤذن بالصلاة » ( اي ايكما سيكون امر  
المؤمنين )

فأجابته عبد الله بن الزبير « على اي » ( يعني اباہ الزبير ) فاعترضه محمد بن  
طلحة وقال « بل على اي » ( يعني اباہ طلحة ) فضحك مروان وقال بل اجعلوا  
الخلافة في ولد عثمان لانكم انما خرجتم فتلون بدمو . فقال طلحة كيف تدع شيوخ  
المهاجرين وتجعلها لابنائهم . فقال وهو يتعمم « لا اراني اسى الا لاخراجها من بني  
عبد مناف » ( ) قال ذلك ولم يسمعه احد ولكنهم تبيتوا ما في ضمير

فاجتدرته ام المؤمنين فائتة « أريد أن تفرق امرنا يا مروان ليرى الناس ابن  
اخوتي » ( تعني عبد الله بن الزبير )

فلما سمعت اماء كلام مروان لم تعد تستطيع صبراً وخصوصاً لما رأت عائشة  
تصرخ . فنهضت واسرعت الى العريش واخذت المجمع وهي ترنجف وقد امتنع لونها  
فلما رآها الناس بنتوا لجسارها وكان طلحة والزبير يعرفانها فبهتوا جميعاً ولم يتكلموا  
اما هي فوقفت بقلب لايهاب الموت ونظرت الى مروان وقالت « اما ككاك  
يا مروان ما القيت من الفتنة في المدينة اما ككاك انك سبيت مقتل الخليفة حتى جئت  
تلقي الشقاق بين بقية الصحابة ووالله لولا حرمة ام المؤمنين لمدرت دمك بين يديها  
الا ترجع عن عملك حتى يهلك المسلمين بالفتنة ويقتل بعضهم بهضاً » قالت ذلك

وصوتها يرتجف ولما فرغت من كلامها حولت وجهها الى أم المؤمنين لتري ما يدومها فلما سمع النجوم كلامها لبثوا جميعاً صائنين وهي ترتعد وتنبغل فاجابها مروان وهو يضحك وقال « تقولين اني قتلت الخليفة ولم تنتله الا صاحبك محمد ربيب علي وسوف يلتقي كل منها جزاء ما جتته يداه »

فالت « لا تذكر ابن ابي بكر شقيق ام المؤمنين ولا تلتفظ باسم ابن ابي طالب امير المؤمنين والله لو انا بيننا الآن لتلعثم لسالك ولا اقول فتلك لانا لا بلوث حمامة يدهك »

فأراد مروان ان يجيبها فاسكتته ام المؤمنين قائلة « انذكر اخي محمداً يا مروان اسكت وانسرت با اسماء تخفي عنك انك مريضة لا تعيبي دمك اذهبي الى فراشك » وكانت الصبوز واقفة بجانبها فاسكتها يدها وخرجت بها من العريش وهي تكاد تقع لفرط ارتعاشها . فلما خرجنا من البستان صاحبت اسماء بالصبوز قائلة اخرجني بي من هذه المدينة اني لا استطيع البقاء فيها  
فالت والى ابن نذهب يا ابنتي  
فالت سوري بي الى يثرب

فالت كيف نذهب وماذا نعمل بام المؤمنين اذا اقتضتلك ولم نجدك  
فالت لا ادري ماذا نعمل ولكني لا استطيع البقاء هنا ولا بد لي من الذهاب الى المدينة

فالت لا نستطيع الذهاب اليها الآن  
فالت اذهبي بي الى منزل آخر غير هذا المنزل  
فالت اتذهبن الى ام الفضل  
فالت هيا بنا اليها . فالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها لشدة غيظها  
وكانت الصبوز قد عرفت منزل ام الفضل فسارت بها الرو  
فلما لغبننا طرود استقبلتها ام الفضل باثة وقد استغربت مجيئها مع ما في وجه اسماء من اثر الضعف وظواهر الاضطراب

اما اسماء فلم تكذ تصل المنزل حتى عاودتها الحمى واصابها الدوار فالتست الاستلقاء على مصطبة امام البيت فدعتها ام الفضل الى الغرفة فأبت فأنتها بوسادة

وغطاه فلم نشأ الرقاد وقالت وقد توردت وجتاها من شدة الحسب « اغفلوني الى المدينة احموني الى الامام علي لاجبة بما تأمر به الناس عليو . . . انهم نواظروا على الطلب بدم عثمان . ولو انهم التمسوا ذلك من قائلو لمذريام ولكنهم يتسوتوا من الامام علي واما اعلم الناس ببراءة ساحنو » قالت ذلك وهي لا تتالك عن البكاء اما ام الفضل فامتغربت قولها وثق عليها عظم تأثرها وحافت عليها عاقبة ذلك وناقت لسامع الخبر فقالت ما الذي حدث بعد خروجي من عنديم فنصت العجز عليها ما جرى في العريش

فأجملت ام الفضل وصاحت وبلاء لقد عقلت التنة لبت عبد الله ( ابنها عبد الله ابن العباس ) لم يذهب بعد لا كفة حمل هذا الخبر الى علي

فما احد اسما - دعوني امضي بهذا الخبر بنفسي دعوني اسير للجهاد دفاعاً عن المنهم زوراً ان علياً يا قوم بريء من دم عثمان فكيف يطالبونو ؟

فقالت ام الفضل دعي هذا الي فاني مرسله رسولا الى علي بكل ما وقع . قالت ذلك ودعت بعض الخدم فجاها ما برجل من جهة يدعي ظفر استأجرته ان يحمل كتابها الى علي بالخبر ( ) فركب هجينة وساروا اسما نعيمة بنظرها وهي تود ان تكون على رحا وازادت ان تحمله كلاماً الى محمد فتمتها الجاء على انها عولت على اللحاق بحالها تارتها الحسب

فلنتركها في حالها ولنرجع الى المدينة لنرى ماذا تم لعهد بعدها

## الفصل الرابع والاربعون

### ﴿ تفريق العمال على الامصار ﴾

تركنا محمداً وقد ودع اسما عند ركوبها الى مكة وطاد وفي نفسه شيء اغلق راحته لا يدري ما هو وقد فاته ان سهم الفراق . واما هو فقد كان محسب قلقاً ما يخافه من مناظر علي اسما . ولو كان . اظفر غير الحسن بن علي لمان عليو

الغضب منه . ولم يكن يخاف حسناً لأنه ابن أمير المؤمنين ولكنه كان مجتهداً كبيراً  
وقد ربا معاً في حجر الامام علي . ففضى مسافة الطريق وهو عارق في لبحج  
المهاجر . وما زاده قلنا ارساله اسما على هذه الصورة وقد شغلته الغيرة قبل سفرها عن  
تدبير الامر حتى قدره . فوقع في حيرة لا يدري ما يجيب به الحسن اذا سأله عن اسما .  
ولا كيف يعذرا او يفعل سبباً لسفرها وشعر اساعتو بنقل الحب وشدة سلطانو فعول  
نظروا الى الطريق الذي سارت فيه اسما فاذا هي قد توارت عن النظر فحدثت عنه  
ان يمرج الى مكان ينضي فيه نهاره قبل الذهاب الى منزل علي مخافة ان يظهر  
حاله عند ملاقاتو الحسن وهو لا يزال مضطرباً . ولكنه لم يجد عذراً لتخلو بيوتهم  
والناس يتألبون جماعات ووجداناً من كل صوب بأمر من منزل الامام علي وهم بين  
أمل وخائف وناصر وناقم . وقد علم محمد ان علياً بايعه الناس وفيهم من يضر السوء  
ففضى برهة تنفاذة المهاجر وهو يبني فلم يشعر الا وهو ياب الامام علي فرأى  
الناس قد تكاثروا حوله والخبول في بستاو والجمال منقولة الى جذوع النخل والحكم  
والصيد وقوف بينها . فنذكر هول ما يشغل علياً ويبدو في ذلك الحين من مهام  
الخلافة فمان عليه مشاغبة الحسن في تلك الشؤون ربما يرى ما ينتهي اليه الامر .  
فدخل الدار وهو يلتمس والدته وقد عول على مكاشفتها بما في نفوسها لهيئة  
علي ما يتخوفه . فدخل حجرتها فاذا هي جالسة وحدها والواضع الاهتمام تلوح على وجهها  
ولكنها حالماً رأت هتت له فحياها فرأت في وجهه اقباضاً فابدرته فانه ما لي اراك  
منفض النفس يا محمد

قال وهو يبالغها ما في نفسي شيء غير ما نحن فيه

قالت وماذا جرى هل انت خائف من مصير هذه الخلافة

قال لا اقول اني خائف ولكنني ارى المركب حسناً فان طلعت والزبر لم يبايعا  
الا كرهاً والكوفيون والبحريون على رأبها فأخشى ان يدعوا الناس الى تنقض المبايعه  
قالت لا تخف من ذلك فقد تم الامر لابي الحسن وحوله نخبه من الصحابة يشدون  
ازرة فاذا احسنوا الرأي في مشورتو استفام له الامر باذن الله

قال لا بفرتك كثرة العدد وفيهم من يضر غير ما يظهر . . . آه ليت ان خالتي

عبداه هنا ( عبداه بن عباس ) فان له رأياً سديباً وهو ان عم أمير المؤمنين

قالت العلة لا يزال غائباً في مكة منذ ما ر اليها

قال نعم

قالت ولكن لنا بالمغيرة بن شعبة خير مشور وقد بلغني انه دخل على امير المؤمنين اليوم ولا يزالان في خلوة منذ الصباح لا تدرني ما دار بينهما

فقال ان المغيرة يا ابا من حيرة الصحابة اصحاب الرأي والدعاء ولا يخفى عليك

انه احد دعاه العرب الاربعة

قالت ومن هم الثلاثة الآخرون

قال هم معاوية بن ابي سفيان وعمر بن العاص وزيد بن ابي

## الفصل الخامس والاربعون

### ﴿ المغيرة بن شعبة ﴾

ولم يتم كلامه حتى سمع وقع اقدام خارج فخرج عرف انها خطوات الحسن فركبت ولكنه نظاهر بالاهتمام وقال هذا اخي الحسن فلندعه لعله يخبرنا بما دار بين الامام

علي والمغيرة

قالت ادعه فخرج محمد ليدعوه فاذا هو داخل فاجتده محمد بالسلام - فحياه

الحسن ولم يزد على السلام شيئاً - فانشغل خاطر محمد بخفاة ان يكون في ندمه شيء.

فقال له املاً باخي ابن امير المؤمنين لقد كنا في حديث هذه الخلافة ونحن في شوق

لاستطلاع ما دار بين مولاي ابي الحسن والمغيرة

فجلس الحسن على وسادة بالقرب من الباب وتنازل باصلاح عانته ولم ذبل

فقطانوه وهز رأسه ولم يجيب

فازداد انشغال خاطر محمد وظهر الاضطراب على وجهه فقدم نحوه وهو يتجاهل

وايح عليه ان يطلعه على جلية الخبر وهو يخاف ان يسمع منه لوماً او عناباً بشأن اسماه

فاذا به قد زفر زفرة شديدة وقال نسا لي عن حديث المغيرة وهو حديث ذو شجون

قال محمد وما فاعسى ان يكون

قال « ان المذبة صاحب رأي وحزم ولكن والذي لم يصف اليه فقد سمعت كلمة  
 وأعجبي رأيه ولكن ابره المؤمنين لم يهتبه فكيف وقولوه لم يصفه على ما اراد وان يكن  
 رأيه الصواب وهو من اعظم دعاه هذه الامة »

فقال محمد ا وقد ارتاح باله من قبيل اساءه وما هو الرأي الذي رأه  
 قال انت تعلم يا اخي ان بعض الناس بايعونا على دخول ( يريد ثلثة والزبير )  
 ولا يخفى عليك ان خوفنا ليس من اهل المدينة ولا من اهل مكة وانما نحن خائفون  
 من شمال الامصار في مصر والشام والكوفة والبصرة وانشد هؤلاء بعضاً واكثرهم عداوة  
 لنا معاوية بن ابي سفيان في الشام وهو كما تعلم ابن عم عثمان وكان من اكبر اصهاره  
 وكذلك ابن عامر في البصرة وهو ابن خال عثمان

قال محمد نعم

قال فأشار المعبدة على والذي ان يخفي شمال عثمان هؤلاء على اعيالم لنرى ما يكون  
 بعد ان يستقيم لنا الامر فابي والذي عليه ذلك وقال كلاً فلما رأه مصراً على رأيه  
 قال له « اعزل من شئت وانرك معاوية فان فيه جرأة وهو في اهل الشام واليك حجة  
 في اثباته وكان عمر بن الخطاب قد ولاء الشام قبل عثمان » فاقسم والذي ان لا  
 يستعمل معاوية يومين فخرج المعبدة ولم يزد حرفاً

فقال محمد انظرن المذبة صهيلاً

قال نعم انه رأى الرأي الصواب لان سكوتنا عن معاوية ورفاقه يسكتهم ربنا  
 نرى ما تأول ابو الحمال

فالت اساءة محمد نهل ربنا بأخي ابن اخي عبد الله بن عباس فانه لا يلبث  
 ان يعود من مكة والامام بصفي لكلامه

قال الحسن لا اظنه مصعباً لاني آتيت منه اصراً شديداً فلصبر لعل ابن  
 عباس يتقلب عليه قال ذلك وسكت هتبه بفكر ثم انبسطت اسرته بفتنة كانه تذكر  
 امر اسرته وقال وهو ينسب ان الخلافة ومشاكلها شغلني عن امر آخر ذكرته لك  
 تلجها وكنت عازماً على مخاطبة والذي هو اليوم فامسكني عن ذلك اشتغاله  
 بالمذبة وحدبته

فادرك محمد انه يريد خطبة اماء. فكادت البغثة تظهر على وجهه ولكنه تجاهل  
 وقال وماذا عسى ان يكون ذلك الامر يا اخي  
 قال لا اظنك تجهل ما في نفسي عن اماء تلك الناة الاموية التي نزلت عندنا .  
 ( وحول وجهه الى ام محمد . . . وقال ) انها يا خالتي بارعة في الجمال وفي وجهها  
 مهابة يتدر ان تري مثلها في النساء .

فارتبك محمد في امره لا بدري بماذا يحسب ولكنه تجلد وقال وهو يتظاهر بعدم  
 الاكتراث لماذا لم تقل لي ذلك قبل سفرها  
 فبغت الحسن وقال الي ابن سافرت  
 قال سافرت الى مكة في صباح هذا اليوم  
 قال وكيف وما الذي حملها على السرور من سافر بها وهي وحيدة  
 قال انها سافرت مع عجز من ذوات فراشي ورجل من بني اللبث من اخوال  
 اختي ام المؤمنين

فقطب الحسن وجهه وقد استغرب ذلك وقال وما الذي حملها على السفر  
 قال سمعتها تقول انها تنزل البعد عن المدينة في اثناء هذا الاضطراب وطالما  
 كانت تود التعرف بام المؤمنين فاطمة سارت لتنضي عندها بضعة ايام ثم تعود  
 فاطرق الحسن مقل يترك ثم قال لا بأس من ذهابها الآن وسأغتنم اول فرصة  
 مجلوها والذي فاعرض طربو خطبتها لي فاذا لم تكن قد جاءت نبعت في استفدائها .  
 قال ذلك وخرج

وظل محمد جالساً وقد علمه البغثة واستمع لونه فلاحظت والدته فهو ذلك فقالت  
 يظهر انك اهتمت بمحدث الحسن

فتنهده ولم يحسب

فقالت مالك لا تحسب

فتردد بين ان يكشف لها سره او يظل على كتمانها ولكنه لم يعد يستطيع صبراً على  
 الكتمان فقال لقد هممت بالامر اكثر مما اظن  
 قالت ولماذا

قال ان الناة التي ذكرها اخي الحسن مخطوبة

قالت ولن

قال لي

قالت ما تقول . . .

قال هذا هو الواقع

قالت وكيف يعالها هو نفسه

قال لامة لا يدري ذلك

قالت ولماذا لم تخبرني بحضنها قبل الآن

قال عزمت على ذلك وحننت بها اليك فلم اجدك

قالت وما العمل الآن

قال لا ادري وساصبر . قال ذلك وحرق اسما

قالت أنكدر اخاك الحسن من اجلها

قال معاذ الله ان اكدره وامت تعلمين - هي الة ولاخي سارى ما بائي و انتدر

ثم خرج وقد اخذ التلق منه ما خذا عظيماً

## الفصل السادس والأربعون

﴿ عبد الله بن عباس ﴾

ومضت ابام والحسن يترقب فرصة يخاطب بها والده بشأن اسما . فلم ير الى ذلك سبيلاً لاستفهامه جميعاً في تنسيق الحال وتطلب الاحوال . فان الامام عتباً ما رح منده ولي الخلافة لا يبدأ له بال وعمال الا صار أكثرهم . فممن عليه وله في مواضع المعرفه لحف شيئاً من فتنهم ولكنه اصر على استفهامهم بهال ممن يثق بهم وانتهى من رجاله وكان الحسن فوق ذلك الاستفهام هائلاً . فباعتة وانتهى بامر الخليفة وم في تلك الشواغل لتلا بجيل له انه انشغل بالحسب عن الخلافة . فلاح له ان يتضرر بهي . عبد الله ان عباس فربسنة في الامر لما يعلم من دالو غنى وانته . وذكر ذلك لحمد من أبي بكر فلم يجها ولكنه قلق وزادت غيرته . فلما سمع عهد بهي . عبد الله بن عباس اراد ان يشغله مجدبت الخلافة عن المناوضة بامر الخليفة فاسرع الو قبل ان يعلم الحسن بهي

وأباً بما كان من حديث المغيرة بن شعبه وما اشار به على الامام علي الى ان قال  
وقد كنا في انتظار مجيئك لعلك تنفي الامام عن عزمي فقد اصرت على خلع حال عثمان  
وم كما ترى غير راضين ولم احزاب وخصوصاً معاوية

فقال عبد الله ان المغيرة واقفه مصعب ونعم الرأي رأيه  
فقال محمد وهذا الذي نراه جميعنا فما العمل

قال اني ذاهب الى علي الساعه . قال ذلك وبهض وقد همة الامر كثيراً لانه  
كان شديد الغيرة على الاسلام مع قرابته من الرسول والامام  
وكان في حدود الاربعين من العمر جميل الوجه ايض الاذن مشرباً صفة جسيماً  
وسياً صبح الوجه فصيح اللسان ( ) وكان اعلم الناس بالحديث والشعر والعربية  
سديد الرأي عالماً بتفسير القرآن وبكل علم من علوم تلك الايام لم يدرك احد من  
اهل زمانه ما ادركه من كل ذلك . فلما سمع كلام محمد اسرع الى عثمان وجينو  
وسار بهرع الى منزل الامام علي ومحمد يتبعه وهو لم يكن يتوقع اسرعه في الذهاب  
الى علي بهذا المقدار

فوصلا الى الدار فرأيا المغيرة بن شعبة خارجاً من حجر الامام علي وكان في  
خلوة معه . فقال عبدالله ل محمد اراه جاءه ثانية ام هذه هي خلوته التي ذكرتها لي  
قال بل هذه غيرها ولا تدري ما جاء به

وفيا هما في ذلك جاء الحسن وكان ذاهباً في شأن فلما رأى عبدالله بقت ووقف  
وسلم عليه ودعا لليلوس في حمرة وهو يريد ان يذكر له امر الخطبة فراء في شائل  
آخر وقد اسرع الى حجر الامام علي فدخل هو ومحمد في اثر

فلما اقبل عبدالله على الامام علي حياه بعبه الخلافه قائلاً السلام عليك يا امير  
المؤمنين وكاست هنا اول مرة رآه بها بعد الخلافه . فرد علي عليه ورحب به  
وقال وطلبك السلام يا ابن عم الرسول ( صلعم ) قال ذلك والانتباض ظاهر على  
وجهه كما انه كان في جدال عنيف . فمشى عبدالله حتى جلس الى جايه وجلس الحسن  
ومحمد في بعض جوارب الفرقة والحسن يرى في خاطر ابن عباس شيئاً وكان يود ان  
يجلوسه قبل دخوله على والك

## الفصل السابع والأربعون

## ﴿ علي وابن عباس ﴾

وبعد ان جلسوا هنيهة وكل يتفكر في امر يهيمه قال ابن عباس رأيت المغيبة خارجاً من عندك فهل جاءك برأي جديد فاني اعتقد دهابة وسداد رأيو  
قال علي وقد كنت اعتقد ذلك قبو حتى جاءني منذ ايام بشور علي ان اقر معاوية وسائر رجال عمان على اعالمهم . وانت تعلم انهم كانوا من اعظم المقاومين لنا والثقة انما قامت والمخيلة عمان رحمة الله انما قتل بسبيهم فكيف اجيبهم . فأبيت الا اعلم فتقدم الي ان اتخي معاوية فقط على الشام فأقسمت اني لا استعمله يومين فخرج من عدي يوشذ وانا اعرف قبو انه بود اني محلي . ثم عاد الي الآن فقال لي « اني اشرت عليك اول مرة بالذي اشرت وخالفتني قبو ثم رأيت بعد ذلك ان تصنع الذي رأيت فتعلم وتسلمين بن ثقي به فقد كفى الله وهم اهون شوكة ما كان » فاجبني رجوعه الى رأبي فلما سمع ابن عباس كلام الامام تبسم وقال انظن يا ابن عمي ان المغيبة قال في هذه المرة ما يمتنع

قال علي وماذا اذن

قال « اعلم يا امير المؤمنين انه في المرة الاولى نصحتك وفي هذه المرة غشك لان معاوية واصحابه اهل دنيا فمضى ثبتم لا بالون من ولي هذا الامر متى تعزلم يقولون اخذ هذا الامر بنهر شوري وهو قتل صاحبنا ( عثمان ) ويولون عليك فتنتفض عليك الشام واهل العراق مع اني لا آمن طلحة والزهران بكرًا عليك . وانا اشير عليك ايضاً ان تثبت معاوية فاذا ما بع لك فعلي ان اقلعه من متزلو . » وكان ابن عباس يتكلم وعلي مطرق وهو مغضب الوجه وقد اقلته ذلك الامر كثيراً . واما الحسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس وقلباها برقصان فرحا على امل ان يتبع الامام علي باقرار معاوية خوفاً من الحرب . فلما فرغ ابن عباس من كلامه لنا يتظران ما يتوله علي فاذا هو لا يزال مطرقاً عاباً والسكوت ساند في تلك الجمرة لا يبدأ احد

بإسلام حتى لقد يجاذر أحدهم إذا فاجأه السعال أن يتصنع - وبعد عنبه رفع الإمام علي رأسه ونظر إلى ابن عباس وبنه على قبضة سنيو وقال « والله لا أعلو إلى السيف » ثم رد بنه إلى الخيز وجعل يشطها بأعابيه ويقول

وما مية أن متها غير عاجز \* بعار إذا ما غالت النفس غولها

فلما سمع ابن عباس كلامه ورأى ما بدأ علي وجهه من إمارات الغضب هاب منظره ولكنه شق عليه أن يسير الإمام على ذلك الرأي لعلو بما يتوقعه من عواقب الأمر وكانت له دالة ووجهة عند فقال له « أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحرب خدعة »

فقال علي « بلى »

قال « أما والله لئن اطعني لأصدرتهم بعد ورد ولأنزكنهم بنظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نصان عليك ولا أم لك » وما فرغ من كلامه حتى اندى المرق جبهة حبة وشيرة ولكنه لم يكذب فرغ حتى ابتدره علي قائلاً « يا ابن عباس لست من هنالك ولا من هنات معاوية في شيء »

قال ابن عباس « اطعني والحق بمانك يبع واغلق بابك عليك فان الحرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليعملنك اللس دم عثمان غدًا »

وكان ابن عباس يتكلم وملاح وجه علي وحركانه تدلان على انه غير مقتنع فلما فرغ ابن عباس من كلامه قال له علي « نشر علي واري فاذا عصمتك فاطعني » فقال ابن عباس وهو يري رأسه اجلالاً اقول ان ابسر ما لك عدي الطاعة » فقال علي « تدبر إلى المنام فقد وليتكم »

قال ابن عباس « ما هذا يرأي فان معاوية رجل من بني امية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن ان يضرب عني نامة لعثمان وإن ادنى ما هو صانع ان يجيبي فيحك علي لدرابتي منك وإن كل ما حول عليك حمل علي ولكن أكتب إلى معاوية فنه وند » فطلع علي كلامه قائلاً « لا والله لا كان هذا ابنا »

فسكت ابن عباس وليت صامتاً برهة ثم استأذن وخرج وخرج في اثر الحسن  
ومحمد وكان على رؤوسهم الطير . اما علي فأمر للحال في اغاذه عاله الى الامصار فبعث  
عثمان بن حنيفة على البصرة وعمار بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس ( اخا  
عبدالله ) على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيفة على الشام

## الفصل الثامن والأربعون

### ﴿ خلاف معاوية ﴾

وقضى علي في ذلك اياماً لا يخلو مجلسه من الامراء للغوض في هذه الشؤون فلم  
ير الحسن سيلاً الى مفتاحه في شأن اساء علي انه هو نفسه كان في شاغل عظيم من تلك  
الامور . فلما فرغ علي من تربيته العمال وقيل ورود الناس على بابي رأى الحسن ان  
مخاطبة في الامر وكان يطلع محمداً على ما ينوبه ولا يعلم ما في خاطره من امر امامه  
وكان محمد اذا خاطبه الحسن في هذا الشأن حدثه نفسه ان يطلعه على ما يكنه ضميراً  
ولكنه امسك عن ذلك مخافة ان يكدر الحسن وهو يحبه حباً شديداً . ففرض اياماً  
واسابيع لا بدري ما ذا يعمل وكان اذا فاتحه الحسن في عزوه على مخاطبة والدك في  
الامر سكت او غير الموضوع

ففي ذات يوم جاء الحسن الى محمد وكان خارجاً من حجرتي الى المسجد وقال له  
ارى والدي قد فرغ من ارسال العمال الى الامصار ولا ارى وقتاً اصالح من هذا لمخاطبتي  
بشأن اساء ولكني ارجوان تساعدني او تكلمه عني بشأنها

فاحذر محمد في امر لا بدري ما يجيبه وقلبه ينفذ غيره ولكن حبه الحسن غلب على  
ما يمشاه الناس من عوامل الغيرة وعظم عليه الامر ولم يجب علي انه تشاغل بالنظر  
الى الافق كأنه يرى شيئاً . فقال له الحسن ما رأيتك يا اخي ما بالك لا تجيبني هل  
أكلم والدي او تكلمه انت عني ما بالك لا تجيبني

فتظاهر محمد بانشغاله بشيخ براه خارج سور المدينة وتناول بنفقاً كأنه  
يتأمله وينتسره فيه وقال اني منشغل بهجان اراه قادماً بسرعة البرق نحو المدينة

وكان في رسول

فالتفت الحسن فرأى هجاناً مقيلاً عن بعد ولكنه لم يتبينه جيداً

فقال ومن هذا الرسول يا نزي

قال محمد ( وقد سرّ لتغيير الموضوع ) اني والحق يقال لا ارى رسولا قادمًا اليها

الا وانا أخاف ان يأتينا بخبر سوء ولا احوال العمال الذين ارسلهم امير المؤمنين الا

راجعين التفهري اجارا الله من عواقب الفتنة

فقال الحسن ومن ابن تظن هذا الرسول قادمًا

قال يجبل لي من جهة مسير ان قادم من الشام فلعله رسول معاوية وماذا نرجو

من رسول يأتي من معاوية

قال الحسن دعنا نلاقوه ونسأله عن هو

قال محمد هلم بنا واذا كان رسولا من معاوية فالامر اما انتهى الى السلم واما

الى الحرب لان امير المؤمنين كتب اليه منذ ثلاثة اشهر ' ' ولا تدري ما يكون

جوابه . قال ذلك ومشيا وكان الرسول قد دخل المدينة فلما دنا منها نرسا فربوا فاذا

هو رجل من بني عيس تدل قيفانته على انه من اهل الشام وقد التف بالعبادة وتلثم

بالكفوية وعلاء الغبار وتعب جملة لمجاهدته في سوقه تعجيبا لوصولو وعجبا لامر لانه حالما

دخل المدينة مدّ يده الى جيبي واستخرج طومارا وهو صخرة مضمومة قبض عليها من اسفلها

ورفعها والناس يتبعونه وهم ينظرون الى الطومار فاستوقفه محمد قائلاً من انت

قال رسول من معاوية بن ابي سفيان

قال الى من

قال الى امير المؤمنين

قال الحسن وماذا تحمل اليه

قال هذا الكتاب و اشار الى الطومار

فقال سر الى امير المؤمنين انه في داره . فسار وسارا في أربع وهما في شاطل هما

قد يكون في ذلك الكتاب ولولا حرمة امير المؤمنين لفضا الحتم تشوقا للاطلاع

على ما فيه

ووصل الرسول الى دار علي واشتغل بعقل جملة فسفة محمد والحسن الى الخليفة  
وكان متكئا في حجره فاعطاهُ بقدم الرسول فلما سمع خبره جالس وقد هم  
استفدته اليه

فدخل معه جمهور وعلي جالس ومحمد والحسن وغيرها من الصحابة بين يديه  
فقدم الرسول غير هائب ذلك المجلس وقد رفع الطومار بين يديه فهم بعض الوقوف  
ان يتناولوه منه فأبى إلا ان يسلمه للامام علي يديه

فمد الامام يده وتناول الطومار فقرأ على خصامه « من معاوية الى علي » فنفض  
الحتم وفتح الطومار والناس صامتون لما سبلى عليهم فلم يجد فيه شيئا فبغت وظهرت  
البغضة والغضب على وجهه والتفت الى الرسول وقال له « ما وراءك »  
قال « آمَنَ انا »

قال « نعم ان الرسول لا يقتل » قال « تركت ورائي قوما لا يرضون الا بالنود »  
قال علي « من »

قال « من خبط رقبتك . وتركك سبعم الف شيخ نيكى تحت قبهص عنان ومن  
منصوب لم قد البوع مبر دمشق »<sup>(١)</sup>

فنظر علي اليه نظرا اشرفا والدمعة وقال « امسى يطلون دم عنان . اللهم  
الذي ابرأ اليك من دم عنان قد نجى والله قتلة عنان الا ان يشاء الله »<sup>(٢)</sup> قال ذلك  
وحول وجهه عن الرسول كأنه لم يعد يستطيع ان يراه وأشار اليه ان يخرج  
فقال أخرج وانا آمَنُ قال « وانت آمَنُ » فغض الرجل برءاءه فاعترضه

بعض رجال علي وهموا بقتله فصاح فيهم علي ومنعهم فنجى العبي وهو لا يصدق  
وأشار الامام بعد ذلك الى الناس فخرجوا وخلا باولاده وفيهم محمد بن ابي  
بكر وبعث الى عبد الله بن عباس وقال لم « قد سمعتم ما قال معاوية فلم يبق تحت  
يد من القتال فتهبوا » فقالوا بصوت واحد « انا معك أي سرت وما نتدبها اليه فانا  
طوع امرك » فجد جدا دفع اولاده . لمحمد بن الحنفية اخي الحسن من ابيو وولي عد  
الله بن عباس ميمته وعمرو بن ابي سلمة ميسرته . وشاغل اهل المدينة في بادىء الرأي  
ولكنهم اطاعوا اخيرا<sup>(٣)</sup>

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن خلدون ج ٢ (٣) ابن الاثير ج ٣

وقضى عليّ أياً ما في اعداد المعدات ومحمد والحسن في مقدمة العاملين . اما محمد فلما تحقق وقوع الحرب وتجنيد الجند ولم يتدبّر امر المؤمنين للقتال صغرت نفسه وتذكر انه من رأى قتل عثمان فهو أولى بالمسير الى الحرب فنارت في نفسه نار الحمية ولم ير لها شفاء الا بالمسير الى التذال فسار الى عليّ يطلب اليه ارساله في تلك الحملة . وفيما هو سائر تذكر اماه . وبعدها وهو لا يعلم ما جرى لها فحدثته نفسه ان يتقاعد عن المسير الى الحرب وهو لم يتدبّر اليها . ولكنه لم يكذب بتصور ذلك حتى اعترضه وجوب الدفاع عن علي لانه كان في جملة الذين جرؤوا عليه ذلك البار

## الفصل التاسع والاربعون

### ﴿ حرب أخرى ﴾

وما زال سائراً حتى دخل على عليّ فراه يخظر في غرفه ذهاباً وإياباً وليس في الغرفة سواه . ورأى في يده رقعة بياؤها ويعيد تلاوتها وقد أخذ منه التلقى ما خذاً عظيماً . فباب الدخول عليه وظل واقفاً عند الباب يتردد بين ان يدخل او يعود فلهذه عليّ فناده فدخل وحياءً فرد التحية وهو مقتضب الوجه . فهمّ محمد بمفاجئته ولكنه ترهب عساً ان يسمع منه خبراً جديداً . فصبر هنيهة وعليّ يخظر في ارض الغرفة حتى وقف الى نافذة من نوافذها وأخذ ينظر الى الافق وهو غارق في بحار التأمل ثم حوّل وجهه الى محمد بفتنة وقال « ابن هو الحسن »

قال لا ادري يا مولاي لعله في المسجد فهل من امر اضيق لامير المؤمنين  
قال ساطلعك على ما حدث ولكن ما الذي جئت به اني ارى في وجهك خبراً  
قال انما جئت التمس من سيدي ابي الحسن ان يساويني باهل الثقة من رجاله  
قال وما ذا تعني  
قال اعني انك امرت الناس بالتأهب للحرب وعينت الفواد والامراء ولم تأمرني  
بالمسير معهم وانا اولي منهم بيهة الحرب  
فتبسم الامام عليّ تبسماً يمازجه قلبي وقال بورك فيك يا ابن اول الخلفاء لانت

عندي كأحد اولادي ولكنني انذت سبيك محمدًا ( ابن الحنفية ) في هذه الحملة  
وإستبقينك لمهمة اخرى

قال اني طوع ارادتك واراني مع ذلك مكلماً باحتفال جهد هذه الحرب أكثر  
من سواي

قال لا نستعمل يا بني انك ستلاقي طريقاً تسير فيه الى حرب اخرى لان  
الطرق كثيرة

فتوسم محمد من وراء ذلك امرًا مكتومًا فقال وماذا يعني مولاي بالحرب  
الاخرى وهل حدث ما يدعو الى حرب

فالتى علي تلك الرقعة اليد وقال اقرأ هذه الرقعة التي أنثني الساعة فانها  
تنبئك بالخير اليقين

فتناولها محمد ونظر فيها فاذا هي كتاب ام الفضل من مكة تنبئ الامام طيباً  
باجتماع طلحة والزبير وام المؤمنين علي الطلب بدم عثمان وانهم يهاجروا للسير  
الى البصرة

فبغت محمد وتلا الرقعة ثانية وثالثة وهو لا يتكلم . ونحو علي الى مصحف علي  
منضدة امامه فتناوله وجعل يقلب في صفحاته

فاراد محمد ان بكلمة فرآه يقلب صفحات القرآن قلبت صامتاً وقد هالة  
ما احاط بهن الخلافة من البلاء وتذكر اخنثه واساءه عندها

وفيا هو يفكر نحو علي اليو وييد سواك يتشاكل بو وهو يقول « ارايت يا محمد  
ما عملت بنا اخنك »

فقال محمد اني لا اعجب من عملها ولا اكاد اصدق انها تحمله . الم يعلم امير المؤمنين  
شيئاً غير ما في هذه الرقعة

قال ألا يكنينا ما فيها

قال وما الذي حملهم على ذلك

قال أنسأني يا محمد عن السب وقد انبا تكم بهن العواقب قبل حدوثها . كم  
قلت لكم دعوا هذا الرجل وشأنه لا تتلوه لان قتله سيكون سبباً لثنته عظمي اطعم  
بعضهم في الخلافة لانهم . فلو ظل عثمان حياً لم يكن ثمت ما بيعت على هذه الحروب

وقد بايعوني وأنا اعلم انهم يضمرون غير ما يظهرون فان ظلمة والزبير يريدانها كل  
 منها لنفسه دون سواه فيها في انقسام عليها ولو اتحدنا في مقاومتي . وسئري اذا ما غلبا  
 عليا ان الحرب ستقوم بينها حتى ينفي احدها الآخر ويقتل الالف من المسلمين ولو  
 اعلم ان تنازلي عن الخلافة يخمد الفتنة لتنازلت عنها منذ اليوم . ولكنني اعلم انها تصعب  
 بعدي فوضى كل منهم بتطلبها لنفسه . ناهيك عن معاوية في الشام وما في خاطر من  
 الطمع في هذا الامر ولا يفرتك ما يدعيه من الطلب بدم عثمان وهو لو همه امره لنصره  
 قبل ان يقتل . ولكنه اتخذ فتنة ذريعة الى الناس الخلافة لنفسه مع علوه اني اولي  
 الناس بها . فالغيرة على الاسلام وحدها تدعوني الى الدفاع عن خلافتي لعلمهم يجتمعون  
 على بيعتي فقمم الفتنة . واما خروجها من يدي طوعاً او كرهاً فانه يدعو الى فتنة  
 عظمي اخشى ان تنضي على الاسلام والعباد بالله

ولم يكده علي بن كلاب حتى نطق العرق من جبينه على الحينو واحمرت عيناه  
 وتناثرت منها دمعان اخلطنا بالعرق وتجلت في وجهه ملامح تشبه عما قام في  
 نفسه من الغيرة على الاسلام وتعاضلت هيبته حتى لم يعد محمد يستطيع النظر اليه هيباً  
 من غضبه وتخيلاً من نفسه لانه كان في جملة الذين يرون قتل عثمان . فليت برهة  
 صامتاً وعلي يمسح العرق عن جبينه وينفضه عن الحينو

وبعد السكوت برهة قال محمد يظهر يا مولاي ان اخي لم نعم لهذا الامر الا  
 مدفوعة بخرى طلحة والزبير فقد خرجا من المدينة غاضبين واني لأرجو اذا لقبها  
 ان احوطها عن عزمها . ولكنني لم افهم الحكمة في مسيرهم الى البصرة دون سواها  
 قال اظنهم رأوا اهل المدينة بايعوني فاستهضوا اهل مكة علي نقض البيعة  
 وساروا يفعلون مثل ذلك في البصرة والكوفة

قال محمد وهل سألت الرسول عن تفصيل الامر

قال لم اسأله الا قليلاً

فقال انا ذن لي ان اكله واستنهم عن التفصيل

قال لا اتيق انه يعلم تفصيلاً ولكنني ارى ان انتدبك للسير الى مكة تستطلع  
 سر الامر بنفسك وانت اولي الناس بذلك لان اخنك ام المؤمنين في جملة النائمين يو  
 فسر محمد لك المهمة سروراً عظيماً لانه يخدم بها الاسلام ويرضي بها الامام

ويستطلع حال أسماء

فاجاب قائلاً ليك يا مولاي اني سائر الساعة وارجو ان احول اختي عن هذا العزم اذ قد يكون طلحة والزبير هما اللذان حرصاها عليه . وهل تريد ان يعلم احد بمسيري

قال لا أرى ان يعلم به احد سر مجرسة الله

قال هل تأذن لي بمقابلة الرسول الذي حمل هذا الكتاب اليك اسأله بعض الاسئلة

قال اسأله انه في دار الاضياف

فخرج محمد وهو لا يزال مندهناً طول ذلك المنبر ولكن لقباء أسماء كان بهون عليه بعض الشفاء . فسار الى دار الاضياف فلقي الرسول فعرفه فسأله عن مجوزه هل لقيها في مكة

فاخبره انه رآها يوم سارع عند ام الفضل ومعهما فتاة مريضة

فقال محمد وهل تعرف تلك الفتاة

قال لا اعرفها لانها غريبة الدار ولكنني علمت انها جاءت مكة مع تلك العجوز وكانت تقيم في منزل ام المؤمنين ثم انتقلت الى بيت ام الفضل ورأيتها تشكومن حتى شديداً

فاحس محمد بنار انقذت في اعضائه وخاف ان تكون أسماء قد اصببت بسوء فاصبح مدفوعاً الى الاسراع في المسير بدافع من قوبين خدمة امير المؤمنين والبحت عن أسماء

## الفصل الخمسون

﴿ خواطر وهو اجس ﴾

فخرج لساعته وودع عائلاً ولم يعلم احد بهتمته وركب هيمناً واصطحب خادماً من بعض الديبة وركب قاصداً مكة وهو يود ان يطير اليها على اجنحة النسيم . فبات تلك

الليلة في قباء. فتذكر اول مرة رأى فيها اسماء تندب أمها واصبح قبل الفجر على هيئته يطوي السهل والوعر وهو لا يصدق انه يصل مكة ويرى اسماء حية

على انه لم يكذب بخلافه بنفسه في تلك الصحراء حتى تصور ما يحدث بالخلافة من الاخطار الهائلة التي تستلزم صبراً وانقطاعاً عن كل عمل سواها . فلام عواطفه لانفصالها بالحب وعول اذا لقي اسماء ان يعاها على الاقتران ولكنه يشترط عليها ان لا يكون ذلك الا بعد انتصار الامام علي في حروبه على ان يكون ذلك نذراً عليها

وكان كلما اقترب من مكة تعاطف ذلك الامر لديه وثارته فيه المحبة الاسلامية والغيرة على الامام علي وهان عليه أمر الحب وعواطفه . فلم يحلُ باله من هذه الهواجس لحظة وتذكر ناصح اسماء وما انبأت به من عواقب تلك الفتنة وكم حرضت الناس على الكف عن عثمان وقالت ببراءة ساحنو فعظمت في عينيه وازدادت إعجاباً بتعقلها وحسن نظرها وايقن انهم لو انصاعوا الى رأيها لكانوا في شئ عن تلك الحروب

فرض طريقة كثة في مثل هذه الاخطار وهو مع ذلك يستحس جملة لا بلغت منه ولا يسره مخافة ان يضع الوقت فامسى وهو لا يزال على بضعة اميال من مكة فشق عليه المبيت خارجها وعول على مواصلة السير حتى يدخلها ولو ليلاً . فاشارة عليه خادمة ان يستريح هنيئة ويرجع الجميل ريثما يطلع الفجر فيسيران في ظلو . فاستحسن الرأي فنزلا في مكان رأيا عنده بيتاً حقيقاً عند بابو شيخ نوسد حصيراً من سعف النخل وامامه جرار واكواب من الخشب يسقي بها من المارة في تلك الصحراء .

فنزلا على الشيخ وحياء فرحب به ونادى ابنة له وعبالاً ليقدموا لضيفهم ما يحتاج اليه من الماء او العلف للجمال . فعهد محمد بتدبير ذلك الى خادمه وصعد الى رابية خلا فيها بنفسه وقد غابت الشمس فتعول نظره من تلقاء نفسه الى مغيبها في الافق وكان الجوصافياً وقد ظهر الشفق بالوانه من خلال الغصان السنت المتفرقة على آكمة هناك وقد هدأ الجولاهب الهواه الا لطننا لا يسمع له هبوب . وارت الطيور الى اعشاشها الا الخناش فانه خرج يطاير بسرعه

فاتكأ محمد على بساط فرشته له خادمة وعيناه شاخصتان الى الافق يراقب تلونه فما زالت الوانة تتحول من الرهو الى الكمود حتى يحيم الظلام واوقد الشيخ ناراً يهتدي بها المارة الى ذلك المستنى . ففرق محمد في هواجسه حتى غاب وجدانه فنبهه

ضرب مرة عند قدميه فوقف وأرسل نظره إلى الأفق عن بعد فرأى أشباحاً مارة تنرس فيها فاذا هي بضعة جمال بينها هودج وعليها أناس قد حجب البعد هيباتهم وأسرعوا في المسير فحتمل له من جهة مديرهم انهم خارجون من مكة يريدون المدينة أو نحوها . فتوقع محمد ان يروا بذلك المستفي كجاري العادة في من ير هناك لعله يستطلع منهم شيئاً عن حال مكة قبل وصوله اليها فاذا هم قد وصلوا السير عن بعد ولم يعرجوا . فظنهم من طلائع جند مكة السائرين إلى البصرة فلما تواروا عن بصره ولم ير أحداً في اثرهم علم انهم ليسوا من الطلائع . ولكنه عجب لخروجهم من مكة في ذلك الليل وأسراعهم في المسير في غير الطريق العام كما انهم سائرون خلسة وودلوانه يعلم من م . ولكن الظلام حجبهم عنه فعاد إلى هواجسو

ولم تمض هنيهة حتى طلع القمر من وراء تلك الأكمة كأنه رقيب جاء للبحث عن لصوص الظلام فلما اطل عليها بادرت إلى الفرار إلا ما كان منها قريباً ولم يستطع فراراً فاختبأ وراء التلال وفي اعماق الاودية ثم لحق برفاقو وتلاشى . وأشرق القمر وهو دون البدر وقد ابيض وجهه وسطع نوره فمرك ما في نفس محمد فتأدى خادماً فيها العجن وودع الشيخ بعد ان اكرمه وركب فاصداً مكة

## الفصل الحادي والخمسون

### ﴿ البغنة ﴾

ولم يسر ساعة حتى اطل على مكة وهي في منبسط من الارض تحديق بها الجبال من كل ناحية فطلع على أكمة وتأمل بيوتها بضوء القمر فأول ما استلقت نظره منها الكعبة . وكان يتوقع ان يرى مضارب او جنوداً في مكة او حولها فلم ير شيئاً فواصل السير يريد منزل ام المؤمنين فمر بالاسواق فلم يجد ما كان ينتظره من الحركة والحلبة والازدحام حتى وصل بيت اخيه فترجل عند باب وقمره فاطل عليه عهد حبشي عرف من صوته انه من عبيد ام المؤمنين فناداه باسمه ففتح له الباب فدخل فرأى المنزل هادئاً فساء له عن ام المؤمنين فقال انها خرجت من مكة بالاس

قال وإلى ابن

قال ألم تسمع بما اجمعوا عليه

قال وهل ساروا الى البصرة

قال نعم

فسأله عن سار معها فأنبأه بما كان فاستعاذ بالله وأسف لوصولو بعد خروجهم وإراد العبد ان يحلّ جملة ويهيّ له الطعام فقال لا تفعل اني خارج في حاجة وربما اعود . وإمر خادمه ان يمكث هناك ربّما يرجع ويخرج وهو لا يزال بلباس السفر قاصداً بيت أم الفضل وهو يكاد يتعثر باذيال السرعة مشيتو فوصل منزلهما فرآه مغلقاً وقد أظننت مصابيحهم فظنن اهله نياماً فتردد في ان يوقظهم او يصبر الى الغد ولكن شوقه لرؤية اسماة هوّن عليه ايظاهم . فدنا من الباب وأسك بجملتي وشدها فرأى الباب موصداً ففرعه فرعاً شديداً فاجابه البستاني فقال افتح افتح له فسأله عن أم الفضل قال انها ذهبت الى فراشها واطمأنت لم تنم بعد

قال قل لها ان ابن اخنك محمداً جاء

فلما علم البستاني انه ابن ابي بكر هرب الى مصباح اثاره ودعا محمداً للجلوس على المصطبة ودخل الى أم الفضل فاخبرها فأسرعت اليه وقد علمتها البغنة وصاحت قبل ان يجيها قائلة ما الذي جاء بك يا محمد . وابن كنت

فجيب للفتها وقال اني قادم من مكة . ابن اسماة

قال كيف تسألني عنها وقد بعثت في استنقدها

قال الى ابن

قالت ألم تبعث اليها كتاباً تستقدمها به اليك

فقال ومن قال لك ذلك

قالت لم يقل لي احد ولكنني رأيت رسولك ومعك كتابك دفعه اليها عند العصر وكانت لا تزال ضعيفة فلم تصبر الى الغد بل ركبت حالاً وهي لضعفها لا تتوى على السفر

قال ماذا تقولين هل سافرت اسماة . انهم زوروا الكتاب عن لساني . من

تجاسران يفعل ذلك . من هو ذلك النذل الذي ارتكب هذه الخيانة

فلطمت أم الفضل يداً بيد وصاحت ما تقول يا محمد  
 فبهت محمد لحظة ثم قال من أي الطرق سافرت  
 قالت سافرت في هذا الطريق المؤدي إلى المدينة  
 فذكر محمد الأشباح التي رآها خارج مكة وقال لقد لقيتها والله في طريقي ولكنني  
 لم أعرفها يا لبني اعترضت ذلك الركب وهي معهم . ولو كانت صحيحة ما خنت عليها  
 بأسا ولكنك تقولين أنها مريضة فاخشى اذا اخرجوها ان تموت غرظاً . لا حول ولا  
 قوة الا بالله . . . من يا ترى فعل ذلك . . . وصحت برهة يفكر فلم يستطع ادراك  
 سر الامر ثم هب من مكانه وقال استودعك الله يا خاله وخرج  
 فقالت تمهل يا محمد لترى

قال ان الوقت ثمين دعيني اتعقب الركب الذين رأيتهم في طريقي لعلي اظفر  
 بها معهم . ولم يكذب يخرج من الباب حتى وقف بغتة كأن شيئاً اعترضه . فعاد إلى أم  
 الفضل فاستنهبها عن المحملة ووجهه مسدوداً فتصت عليه الخبر مختصراً فوعى كل ذلك  
 في ذهنه وعرج مسرعاً يتنصت الطريق الذي رأى اولئك الركب سائرين فيه  
 فمر بجنادمو في منزل اخنو قرآه غارقاً في النوم من شدة التعب وقد ارسل  
 الجبال إلى المربط للشرب والعلف فابتظله وامره ان يهباً للرجوع فهض وعيناه  
 لا تتفتحان من شدة العباس . وعلم اهل المنزل بحجتي . فحمد فجاءه قيم الدار يدعو  
 إلى الطعام فاعتذر انه لا يستطيع البقاء هناك

فقال ولكن الجبال تحتاج إلى الراحة واستهله ريثما يهيئ له طعاماً فاتبعه انه  
 لا بد له من الاستراحة هنيهة ريثما ترتاح الجبال فاذن باعداد الطعام فجاءوه بها  
 حضر فاكل وهو يستحث الخادم في الناهب للمسير . وبعد هنيهة ركب وسار بأسرع  
 ما يمكنه . وكان الثمر قد تكبد السماء والجوق قد صفا فالتبس الطريق الذي ظن  
 الركب قد ساروا فيه ففضى برهة لا يتكلم ولا يسمع صوتاً الا جعير الجبال مرة بعد  
 اخرى . فانتصف الليل والخادم يتوقع ان يسمع امره بالنزول للبيت فلم يبرأ من  
 الا استخفافاً ثم رآه يطلب طريقاً غير الذي جاؤا فيه فنبهه إلى ذلك مخافة ان يكون  
 قد اخطأ المييل . فاجابه انه يعرف الطرق ولا يحتاج إلى تنبيه فسكت وظل سائراً  
 فوصلا إلى مكان يتصل فيه الطريق إلى شعبتين احدها تتصل بطريق المدينة  
 والاخرى تنتهي إلى طريق البصرع فوقف هناك ووقف خادمه وكلاهما صامتان

## الفصل الثاني والخمسون

## ﴿ قيافة الاثر ﴾

واما الخادم فكان مع استفرايو ما رآه من غضب محمد وقلوه لا يحسر على الاستفهام منه عما يفعله . فلما وقف عند المفرق وقف معه ومولا يتكلم وكان من النباهة والذكاء على جانب عظيم عارفاً الاسفار خبيراً بالطرق وفروعها وكان حاذقاً في القيافة وخصوصاً قيافة الأثر فلما رأى مولا قلناً ادرك انه ينش عن ضائع فاراد ان يستطلع ما في نفسه فقال ما بال سيدي واقفنا الا يرى ان يامرني بخدمة أو ذبيها فلما سمع محمد كلامه اتبه وتذكر مهارته في استطلاع آثار الاقدام فقال في نفسه لعل هذا الرجل يتعنا باختياره

وكان الخادم كهلًا عمركه الدهر وقضى معظم ايامه في الاسفار وتحمل الاخطار وكان طويل القامة مربع الحركة فلما بهالي التعب ولا يخاف الموت فقال له محمد ألك مهارة في قيافة الاثر يا مسعود

قال نعم يا مولاي اني من امهر القائمين

قال أنرى على هذا الرمل اثرًا المشاة او فرسان وهل نستطيع تحقق ذلك في ضوء القمر

قال نعم يا مولاي . ونرجل عن راحته وجعل يتفرد في رمال الطريق كأنه يقرأ كتاباً او يضرب حساباً ومحمد واقف بالقرب منه يراقب حركاته فرآه يتفلح بخفة ولباقة فلما يضع قدمه الأخرى يرى انها لا تفسد اثرًا سابقاً . وما زال يروح ويحين . وهو يتفرد ويمد ويحسب ويتيسر بأشبهاره واصابعه ويراقب جهة الاقدام او الخفاف او الحوافر ومحمد يحسب لما يبدو من خنثه وحذاقته حتى كاد يمل الا انتظار وادرك مسعود قلقله فقال ( وهو لا يزال يتفرد في الرمال ) لا تفزع يا مولاي من طول الانتظار فاني ارى ارتباكاً في الراكب الذين مرط من هذا المكان وكانهم وقف في برهة يروحون ويحينون وربما تضاربوا او تحاوروا فاصبر هنيئة ان الله مع الصابرين وعاد مسعود الى عمله وهو يمشي الترفصاء ويحني رأسه يتفرد في الرمال حتى يكاد

بلامس وجهه الارض

قضى في ذلك ساعة ومحمد كأنه واقف على النار وربما خجل له لعظم قلقه ان الليل كاد ينقض . وفيما هو في قلقه رأى مسعوداً انتصب بغتة ونجدب وتمطى كأنه تعب من الفرصاء والانحاء ومشي اليه فنقدم محمد نحوه وهو يقول ما رأيت با عم قال ان الآثار تشابهت علي لا خلاطها ولكنني علمت مع ذلك انها آثار قافلة صغيرة مؤلفة من بضعة جمال بينها جملان يسيران متواليين كأنهما يحملان هودجاً او نحوه ومعها عدة مشاة من الرجال اكثرهم يحملون رماحاً لاني ارى آثار كماهاها بجانب الاقدام . ويظهر يا مولاي ان الراكب وقف هنا وتردد في المسير على غير نظام وربما وقع بينهم جدال او خصام بذلك على ذلك ما في آثار اقدامهم من عدم الانتظام مع كثرة الابعار التي تراها متجمعة ولكن يظهر انهم انقلبو اخبراً على المسير في هذا الطريق

فقال محمد والى اين يودي

قال يودي الى البصرة او الكوفة

فسكت محمد وقد ترحج عنه انهم هم الراكب الذين رأهم في اول ذلك الليل عن بعد فاعمل فكرته وقد حدثت نفس ان يبيع تلك الآثار فخاف ان يشغله ذلك عن المهمة التي جاء بها الى مكة . فوقف صامتاً يتردد بين ان يطلع مسعوداً على سر الامر او يظل على كتمان فظهر في أمر ثم قال بغتة وما ظنك يا مسعود بالزمن الذي مروا به هل هو بعيد

قال اظنهم مروا في اوائل الليل منذ اربع ساعات او خمس وهم سائرون

على عجل

فقال وهل نظننا اذا اقتفينا اثرهم ندرهم

قال اذا ظلوا هم في مسيرهم لا نظننا ندرهم الا بعد يومين او ثلاثة . قال ذلك

وقدم مل من كتمان محمد عنه الغرض من هذا البحث فمؤمل على استطلاع السر

فقال هل يرى مولاي ان يطلعني على ما هم من هذا الراكب لعلني استطيع خدمة

له في شيء

قال يعني يا مسعود من هذا الراكب امر كبير . هل تعرف خادمنا العجوز التي

كانت في المدينة

قال فم اعرفها

قال انها جاءت مع فتاة اموية الى مكة وانامت عند اخي ام المؤمنين فلما اجمع اهل مكة على المسير الى البصرة جاءها اناس بكتاب مزور عن لساني يدعونها الى المدينة فسارنا معهم في غروب هذا اليوم ولا ادري من تجراً على هذا الفعل ولا الى اين ساروا بهما - ولكن يظهر ما بينة قياتك انهم هم الركب الذين مرطوا بينا المكان الليلة

فقال مسعود هل ترى ان اخي اثم وآنك بالخبر واذا استطعت اتقادها فقلت فاستحسن محمد رأيه واثني على غيرته واوصاه ان يحتفظ بنفسه وحرصه على الاسراع وودعه وركب هيبته ونحوه الى المدينة

## الفصل الثالث والخمسون

### هو حجة علي على البصرة

اما الامام علي فانه خلا دنموا بعد خروج محمد من غرته ففكر بما هم فيه فرأى من المحرم ان يجول عزمة عن الشام الى البصرة فاستشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقوه على ذلك فدعا وجوه اهل المدينة وخطب فيهم فحمد الله واثني عليه ثم قال « ان آخر هذا الامر لا يصلح الا بها صلح اركه فانصروا الله بصركم ووصلح امركم » فرأى ثاقلاً منهم وقد كان يتوقع ثابته وبعضة فلم يقل ذلك شيئاً من عزيمته . على ان جماعة من الصحابة قدموا انفسهم للدفاع عنه واستنجدوا الناس فعادوا الى نصرته فعبى العصابة التي نعيها لاهل الشام آخر ربيع آخر سنة ست وثلاثين وانضم اليه من نشط من الكوفيين . وفيها هوفي الاستمدا قدم محمد بن ابي بكر وانباها بها كان من خروج عائشة والحمة والزيبر ومن معهم الى البصرة فعمل على المسير واستنجد . وكان الناس يتوقعون ان يرسل الحمة ويبقى هوفي المدينة حفظاً

لسطوتها فيها . فلما رأى ركب في مقدمة الحملة تقدم اليه عبد الله من سلام فاخذ بصنابو وقال « يا امير المؤمنين لا تخرج منها فوالله ان خرجت منها لن يعود اليها سلطان المسلمين »

فقال علي لا بد من خروجي

فنكملت الحملة واجتمعت في الرملة على ثلاثة اميال من المدينة ' ' ' وهما كيهما على للفروج ومحمد والحسن معهم . وكان الحسن في اثناء ذلك مشتغلاً بهم الخلافه عن كل شاعل وربما مرت اساءه في ذهنه فيضرب نفسه الى ما بعد هذه المشاعل اما محمد فانه استبطاً خادمه وهو لا يدري ما صار اليه وشغل باله عليه على انه سر لم يره هو في تلك الحملة لعنه يعلم شيئاً عن اساءه

ولما اجتمع جند علي في الرملة جاءه رجال من طي واسد وانضموا الي جنده فاشتد ازراءه على ان الحسن لم يكن راضياً بخروج والده في تلك الحملة بنفسه فلما رآه عازماً على ذلك قال له « لقد امرتك فعصيتني فقتل عدواً بعد صديقه لا ناصر لك » فقال له علي « انك لا تزال تخن عيني الجارية وما الذي امرتني فعصيتك » قال « امرتك يوم احبط بعثان ان تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ثم امرتك يوم قتل ان لا تباع حتى تأتيت وفود العرب وبيعة اهل كل مصر فانهم لن ينطمعوا امرأ دولك فابيت علي وامرتك حين خرجت هذه المرأة وهذا الرجلان ان تجلس في بيتك حتى يصطلمحوا فان كان النمامد كان علي يدغورك فعصيتني في ذلك كلوه »

فقال « اي بني اما قولك لو خرجت من المدينة حتى احبط بعثان فوالله لقد احبط بنا كما احبط و . واما قولك لا تباع حتى يباع اهل الامصار فان الامر امر اهل المدينة وكرهنا ان يوضع هذا الامر ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى احداً احق بهذا الامر مني فباع الناس ابا بكر الصديق فباعته ثم ان ابا بكر انتقل الى رحمة الله وما أرى احداً احق بهذا الامر مني فباع الناس عمر فباعته ثم ان عمر انتقل الى رحمة الله وما أرى احداً احق بهذا الامر مني فباعني سبهاً من سنة اسمهم فباع الناس عثمان فباعته ثم سار الناس الى عثمان فقتلوه وباعوني ملائعين غير كرهين فانا مقاتل كل من خالني بمن

اطعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . وأما قولك ان اجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير فكيف لي بما قد لزمني او من تربدني اتربدي ان اكون كالضغ اني يحاط بها وبها ل ليست ههنا حتى يجلب عرقوبها حتى يخرج واذا لم انظر فيا يلزمي من هذا الامر وبمبني فمن نظر فبو فكف عنك يا بني هـ

وفي الرتبة اعلى علي حركه فجعل ابنه محمد من الخفية صاحب الرتبة كما كان عند عزمهم على الشام واعطوا لعلي ناقة حمراء يركب عليها ويقود وراه فرسا كبتا

## الفصل الرابع والخمسون

﴿ مسعود والعبوز ﴾

أما محمد بن ابي بكر فكان في شغل عظيم من امر الحرب والاستعداد لها ولكنه كان كلما خلا لحظة يذكر اسماء وكلما رأى قادمًا من سفر طه مسعودًا فلما ابطأ مسعود في القوم خاف ان تكون اسماء اصببت بسوءه وكلما تصور ذلك هبَّ حياءً واقصر بدنا وود لو انه يذهب في مهمة الى البصرة او الكوفة لعله يلتقها او يسمع بغيرها فيعلمن باله

فبات ذات ليلة في خيمته وقد تسلط عليه الفتنى للافتكار في ما هم فيه من الصرة للامام علي وما يتوقعونه من البلاء . فعظم عليه الامر وتسلط عليه الفتنى ولاح له ان يتنص الى الذهاب بنفسه الى الصرة يستنهض اهلها لصرة الامام وعوّل ان يكر في الصباح مخاطبة الامام في ذلك

ولم يكذب بخص اجفائه حتى سمع صوتًا خارج الخيمة يشبه صوت مسعود فهبَّ من فراشه وناداه فاجاب ليك ودخل وهو لا يزال في ثياب السر ودخلت في اثر امرأته لم يرفها محمد في يادى الراى لضعف نور الصباح ولكنه ما لبث ان تبين انها العبوز فبغت وتذكر اسماء فقال ما وراهك يا خالة ابن اسماء .  
فالت اعلمها الآن في البصرة او الكوفة او لا ادري اين هي

قال وكيف تركتها وجهت وحدك  
 قالت جئت بأمرها وسأقص عليك الخبر بعد ان استريح . قالت ذلك وتمهدت  
 من شدة التعب فخطب محمد مسعوداً قائلاً وابن لثبها يا مسعود وما الذي دعا الى  
 تفبيك كل هذه المدة

قال طال عليّ الامد في البحث عن ذلك الركب وكأني غيروا طريقهم ونعرجوا  
 في مسيرهم فنشأبت عليّ الجهات التي ظننتهم ساروا فيها ففضبت ايأماً في ذلك حتى  
 كدت ادرك البصرة ورأيت جيش ام المؤمنين عن بعد . ثم تحوّلت الى طريق آخر  
 فعثرت على هذه الخالة سامة وحدها فسررت بها فساءلها عن اسماء ومكانها فقالت  
 ان الركب ساروا بها ولا تدري اين هم وان اسماء هي التي بعثت بها اليك برسالة لا  
 ادري ما مفادها وكنت عازماً على مواصلة البحث عنها فمعتني فجئت بها اليك  
 فحسب محمد لذلك والتفت الى العجوز وقال قصي علينا الخبر يا خالة من اولو  
 الى آخره

فجلست وكانت قد استراحت واخذت في سرد الحديث فقالت أقص عليك  
 خبرنا منذ ودّعنا في المدينة وسرنا الى مكة  
 قال كلاً فقد سمعت خلاصة ذلك الخبر من خالتي ام الفضل ولكنني اريد الاطلاع  
 على كيفية خروجكم من مكة

قالت « كانت اسماء مريضة عند ام الفضل وهي على مثل الجهد في انتظار امر  
 منك في الانتقال الى المدينة لانها اصحبت بعد ما شاهدت من تأليب اهل مكة على  
 الطلب بدم عثمان لا تستطيع الاقامة فيها . وكانت مع ضعفها كلما ذكرت علماً والحرب  
 والانتصار له تشدد ونقوى حتى يجئ لي انما ننتاق النزول الى ساحة الوغى دفاعاً  
 عن الامام عليّ لشدة اعتقادها بهراءه من دم عثمان . وكانت كلما ذكرت ذلك تبكي  
 وتجرق اسنانها غيضاً لتعودها في مكة بالرغم عنها . واشتد ذلك فيها خاصة يوم خروج  
 اخنك ورجائها من مكة يريدون البصرة للطلب بدم عثمان فانها اصحبت في ذلك  
 اليوم وليس بها بأس لئيرط ما حاج من عواطفها رغبة في المسير الى المدينة وانما  
 كان يقعداها عن ذلك قولك يوم وداعها انك ستبعث اليها من يستقدمها . فبعد  
 سفر ام المؤمنين بيوم او يومين جاءنا رسول بكتاب زعم انه منك ولم تذكر اسماء ثم

قراءته حتى هبت من فراشها وقد اشرق وجهها وأرقت أسرتها وقالت هيا بنا يا خالة  
الى المدينة فان محمداً بعث من يحملنا اليها . فنظرت الى الرسول فلم اذكر اني اعرفه  
فقلت له وابن الجبال والاحمال . قال هي خارج مكة وقد سرحناها للراحة . فلم  
يعجبي كلامه لاني لم اعرفه وكانت خالتك ام الفضل جالسة فساء لها عنه فقالت انها  
لا تعرفه . فغضت باسها وحذرتها من المسير مع اناس لا تعرفهم . فابت الآ الركوب  
حالا وقالت انها لا تبالي أباً كانوا وإنما غرضها الخروج من ذلك السجن . فاطعتها  
وخرجنا والرجل يسير امامنا واسماء لا تزال ضعيفة من عواقب الحمى التي اصابها  
وكتبت قبل خروجنا من بيت ام الفضل قد عرضت عليها ان يذهب ذلك الرسول  
فياً تبنا بالجبال الى البيت فنركب من هناك فلم نستطع صبراً وأبت الآ المسير حالاً  
فوصلنا الى المكان الذي اشار اليه الرسول فرأينا هناك هودجاً على جبلين وجمالاً  
اخرى وبضعة رجال لم اعرف احداً منهم فازددت خوفاً ونهت اسماء الى ذلك  
فلم تنبه كأن رغبها في المسير اليك اسكرتها واعمت بصورتها . فركبنا والحخدم في ركابنا  
حتى اتينا مكاناً تنصل فيه الطريق الى شعبين وهناك رأينا أُناساً مسلمين ينتظرون  
وصولنا وفيهم شاب بلباس ثمين كأنه سيدهم فلما وصلنا المنرق وقفت جماننا ودنا  
الرجال برباحهم فتحققنا وقوع الخيانة . وكان الليل قد سدل نقابو فلم نعرف احداً من  
هؤلاء فلما رأيناهم تحولوا من طريق المدينة الى طريق البصر فقلت الى ابن اتم  
ذاهبون بنا . قالوا الى حيث نشاء . فهالني جناه ذلك الجواب ونظرت الى اسماء  
بضوء القمر فاذا هي ثابتة الجاش مع ضعفاها وقد كت واياها في الهودج معاً وحالما  
تحولنا في ذلك الطريق ازلوني من الهودج وحملنا على حمل واحد واركبوني الجمل  
الآخر فاطعت بالرغم عني وتهددوني وأنا لا اجيب "

وكانت العجوز تنكلم ومحمد مصغر يتناول بعنف لسانه ثم الحديث وقد ظهرت

البغاة على وجهه



## الفصل الخامس والخمسون

## ﴿ اسماء في الاسر ﴾

ثم قالت العجوز « ومازلنا سائرين مسرعين طول ذلك الليل فلما اصبحنا وتبينت الوجوه تأملت أولئك الرجال جيداً فأريت بينهم واحداً تذكرت اني رأيت في جملة الخدم في بيت اخنك ام المؤمنين وتأملت الشاب الذي ذكرت لباسه الفاخر فاذا هو ذو جمال باهر وقبافة حسنة فظننته سيدهم ولم اعرف من هو ولكنني سمعتم بنادوته « سعيد » ويظهر من قبافته انه من اهل البصرة

« ولم تكذب استخرج جمالنا حتى جاء هذا الرجل الى هودج اسماء وانا انظر اليه من بعد واسمع بعض كلامه ففهمت انه يسألهما كيف ترى تنسها وهل هي لا تزال تفضل المدينة واهلها على سواهم ورأيت منه احتناءً عظيماً بها فامر لها بطعام فاخر وجعل كل رجاله في خدمتها »

فقاطعها محمد قائلاً وهل أكلت من طعامها واجابت على كلامه

قالت العجوز « اعلم يا بني اني لم اشاهد في حياتي كلها لا في الجاهلية ولا في الاسلام فتاة ولا شاباً اثبت جاشاً من اسماء ولا اصبر على المكارة منها فقد كانت مع ضعفها وترقبها بالخطر الذي وقعت فيه ساكنة القلب لم يبدئ على وجهها شيء من دلائل الخوف والاضطراب وقد لحظت لما كان ذلك الشاب يخاطبها انها كانت تجيبه بكلام وان كنت لم اسمعه فقد ادركت على أثره في وجه الشاب بهيباً وخوفاً منها . وكان الخطر زاد اسماء هيبه وجلالاً وزادها الضعف حسناً وجمالاً . واما انا فقد كنت خائفة القلب مضطربة الحواس لا أكاد استطيع الوقوف لشد الارتعاش وهي جالسة في هودجها والكل ياتسون امرها وخصوصاً سعيد فقد رأيت يسعى في تلبية كل اشارة\*

فقال محمد ثانية لم تجيبي يا خالة على سؤالي هل أكلت من طعامهم

قالت لا ياسيدي لم اشاهدها تأكل ولكنني لا اظنها استطاعت البقاء بلا طعام

قال ثم ماذا

قالت العجوز « ولم نسترح قليلاً حتى نهض الركب وسرنا نطوي الابداء ووجهتنا

العراق وأنا لا ادري ماذا اعمل . واظن اساء لو رأيت فائدة من الدفاع لنعلت ولكنها وجدت نفسها عزلاً . لا سلاح معها وحوطها رجال مدججون بالحرب والسيوف والرمح وقد احسنت بسكويتها ونصبرها ولكنني عجبت كيف استطاعت ذلك بدون ان يبدو عليها الخوف وقد كنت اراها كل مسافة الطريق ساكنة تتأمل كأنها تكرر في طريقة للنجاة

« واما سعيد الذي هو السبب في ارتكاب هذه الخيانة على ما يظهر واظنه فعل ذلك رغبة في الحصول على اساء فقد رأيتُه هاتباً مخاطبتها وربما هم ان يخاطبها بشيء في نفسه فاذا دنا من هودجها ارتج عايره فيتظاهر بامر آخر . ففضيت اليوم الثاني وأنا اود الدنو من اساء لعلنا نتشاور في سبيل النجاة فلم استطع لانهم كانوا يجاملون التفريق بيننا عنوة . فبتنا تلك الليلة واصبحنا وقد مالت هذه الحال فلاح لي اخيراً ان أظواهر بالتعب والمرض لعلمهم بسحوني في هواجسها وارى ما يكون فشكوت الما في بطني وعجزاً عن الركوب فقال سيد القوم انركوها في الطريق وسبروا .. فصحت دعوني انظر ابنتي دعوني اودعها . واخذت في البكاء فسمعتني اساء فطلبت ان تراني فعملوني اليها فاجلستني في هودجها وارخت ستائر ومشي الركب بنا فلما خلونا سألتها عما في نفسها فتهدت وقالت « اعلمي يا خالة اني في حال لم اقع عمري في مثلها وأنا اعلم الناس بما يجردني من الخطر ولكنني لا ارى الخوف يجديني نفعاً ولا انا استطاع دفاعاً ولو كان في يدي عصا اوسيف وكانوا ثلاثة او اربعة ما حسبت لهم حساباً ولكنكم عشقتم مسجون وأنا وحدي ولا سلاح معي . على اني سأرى ما يكون من امرهم فطالما كانت معاملتهم اياي على هذه الصورة اساءهم واسير معهم واذا تغيرت تغيرت والظاهر انهم سائرون بنا الى معسكرام المؤمنين واظن هذا الشاب المغرور من جملة رجالها وقد لاح لي انه طامع بي فليطعم ما شاء اما انا فاني سائرة معه حتى اجد لي سبيلاً اتجو به ولكنني احب ان ابغ حبيبي عمداً شيئاً في نفسي فكيف العمل » فقلت لها انا ابغته اباه فان هؤلاء الرجال بدون التخلص مني فاذا انا تظاهرت بحجب التخلف عنهم خلفوني وساروا بقولي لي ما تريدن . فقالت ساكنة لك ذلك في كتاب توصايو اليه قلت حسناً . وسرنا هنيهة ثم وقف الركب وجاء ذلك الشاب فرفع الستر عن الهودج وقال لي انزلي من هذا الهودج ان الجهل لا يستطيع حملك فشكوت له ابغبت

والمرض . فقال لا يعني . فقالت له اسماء تمهل ربنا نصل الى مكان نستريح فيه جميعاً  
فاذا لم تقدر هنك المخالة على الركوب معنا تركناها او اوصلناها الى قافلة تسير بها . وكانت  
اسماء تنكلم والشاب ينظر اليها وقد هام بها ولم تزده انفتها إلا حباً . وكأنها سحرته  
فاصابه خيل فقال حسناً فوصلنا في المساء الى مكان فيه آبار وشجر فنزلنا جميعاً  
ونصلى الخيام فطلبت اسماء المخلوة بنسبها فتركوها واجلسني خارج خلوتها لتلاً بدهما  
احد فقضت هناك ساعة حتى انشغل بالي عليها ثم خرجت اليّ وقد احمرّت عينها  
وتبللت ويدها مندبل قطعته من قبرصها دفعة اليّ وقالت احفظني بهذا الكتاب وادفنيه  
الى محمد اذا لقيته . فتناولته وخيأتة بين اثوابي وأنا احاذر ان يراني أحد . فقالت  
لي اسرعي في المسير الى محمد ما استطعت

« فنظرت الى الانبي فرأيت قافلة كآنها قادمة نحونا فعلمت ان ركبتا سيرجل قبل  
وصولها خوفاً من عبون الرقباء فتظاهرت بالي لا استطيع الركوب ولا المشي فلما رأى  
اصحابنا القافلة قادمة تهباً الى الرحيل فطلبوا اليّ ان اركب او امشي فاعتذرت فقالوا  
اذا نبقين هنا . قلت ابني ولكنني طلبت ان اودع اسماء فاذنوا لي والحل عليّ بالاسراع  
فضممتها وقبالتها مراراً وبكيت وبكيت ولكنني سمعت منها كلاماً عزاني على فراقها  
وطأن قلبي عليها فقد قالت « لا تخافي عليّ يا خالتي فاني ارجوان يكون اسري هذا  
سبباً في خدمة عظيمة اقوم بها للامام علي ومحمد وعلى الله اتكالي » ولم أكد اجبها حتى  
اقلع جملها وساروهي تلننت اليّ وتبسم وأنا ابكي . فظللت وحدي انتظر وصول القافلة  
فاذا هي غير قادمة تحوي لى سائرة في طريق آخر فنهضت اسعى في اثرها وما زلت  
اسير تارة وحدي وطوراً اعطوب راعياً او ماشياً وطوراً اركب وآونة امشي حتى  
لقيت مسعوداً على ما قصة عليك »

## الفصل السادس والخمسون

﴿ كتاب اسماء وتوارد الخواطر ﴾

ولم تنرغ العجوز من قصتها حتى نعتت ومحمد شاخص اليها فلما فرغت من

الحدیث قال لما ابن هو كذاب اساء فانو  
فدت يدها الى جيبها واستخرجته وكانت قد خاطفة بياطن ثوبها كرقعة ودفعته  
اليوفتساولة فاذا هو قطعة من قميص اساء . فاستأنس به وادنى المصباح منه ونظر  
فاذا فيو كناية بمداد احمر بحرف لم يالنه لقرىو من الككل النبطي الذي كان يكتب  
به عرب الشام فرأى قرءانه تحتاج الى زمن . فاورأ الى مسعود ان يذهب بالهوز  
الى مكان تخرج فيو واظن خبته وجلس الى جانب المصباح وطلق يقرأ  
فاذا فيو :

« اكتب اليك هذا بمداد من دمي اذ لا يبيل لي الى غيره وانا في صحراء فاحلة  
وحولي اناس لا ادري غرضهم من اسري على ايهم لن ينالوني وطراً . وقد علمت  
ايهم سائرون بي الى معسكر ام المؤمنين بالهرة واظنهم من رجال تلك الحملة .  
لا تجزع يا محمد ولا تخف على اساء . فانها بحول الرب لا تخشى باساً

« ولما اكتب هذا اليك لا تنك بحالي وادعوك الى عهد نعتك بيننا نجعله نذراً  
علينا على ان تكون اعمالنا وحواسنا وقولنا كلها مكرمة لخدمة امير المؤمنين ان عم  
الرسول ( صلعم ) منهم ظلاماً بدم عثمان واما مات اعلم الناس ببراءة . فطينا التيام  
بصره فاذا فرغنا من هذه الشؤون والسنام الامر نظرنا في انفسنا واجننا داعي قلوبنا  
« هذا ما ادعوك اليه وارجوان تعاهد بين علي ولا اضلك تخالفي فيو واما منذ  
الآن ساعة في هذا المبل وارجوان يكون اسري هذا مساعداً على هذه الخدمة فانت  
تعمل من جوة وانا من جهة اخرى . . . . . سالاني ام المؤمنين واتبعها براءة الامام من  
دم عثمان . . . آه يا ليتها كانت معنا ليلة وجدناه بكى عند قبر الرسول ( آه من تلك  
الليلة كم لقيت فيها من الاهوال ) وسمناء ويندب الاسلام ويخوف وقوع الفتنة لعلها  
تعتقد براءته . اقول ذلك وانعله اذا قطعت العقبة الروع التي اراها في بيبي وانا  
مسء فاني اموت شهيدة العفاف والذيرة على الاسلام والنصرة للامام علي رجل هذه الامة  
اقول ثانية اني ادعوك الى التحالف على نصرة الامام علي والانتصاع الى ذلك بكل  
حواسنا وعواطفنا فاذا فرغنا منه على غير وفوز فكرنا بانفسنا والسلام »

« اساء »

ولم يفرغ محمد من تلاوة ذلك الكتاب حتى استأقلمه حمية وطمع اعجاباً باساء .

واستغرب نوارد الخواطر بينها وبينه فلم ينالك عن تبديل كتابها والثناء على حبتها  
ولكن ما زال خائناً عليها من غائلة ذلك الاسر  
وقضى بقية ليلته في مثل هذه المواجس وقد مال بكليته الى المسير في مهمة الى  
الوراق لعله ياتي اساءة فيبتدعها من الاسر

## الفصل السابع والخمسون

### ﴿ عثمان بن حنيف ﴾

فأصبح في اليوم التالي وخرج يلتمس فسطاط الامام علي لعله يسمع خيراً جديداً  
فدخل علوه فرأى في مجلس جماعة من الصحابة يحدون في مام نيو من الاحوال  
ويتشاورون في ماذا يعملون والامام منقلب الوجه ينكر في ما قام من التفتة  
وفياهم في ذلك دخل بعض الخدم مبهوتين نسال علي ما وراءك  
قال ان في الباب ركبا فادمن من البصرة وفيهم رجل ملثم  
قال فليدخل كيرم

فدخل رجل ملثم الوجه حيا الامام عليا وكشف عن وجهه فاذا هو احاط  
الوجه اماط لا شعر في لحيته ولا شاربه ولا حاجبه ولا اشفار عينيه (١) فانكر  
علي وتأمله وقال من الرجل

قال هو عثمان بن حنيف عاملك على البصرة

فبنت الامام وقال وما الذي اصابك

قال بعثني بلجة فجننتك اسرد (٢)

قال علي أصبت اجراً وخيراً احك لنا خبرك وما دعا الى تنف شعر وجهك  
على ما ترى

قال بعثني يا مولاي عاملاً على البصرة فلتدكي الناس وسروا بخلافة الامام علي  
ثم ما لبثت ان سمعت بحدث اهل البصرة يا مرحدث ان كتباً وردت علي بعضهم من  
ام المؤمنين تدعوم بها الى الاخذ بامر عثمان ولها قدمت من مكة واقامت في الحفير

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن الاثير ج ٣ : وتبين انه جاءه في ذي قار

على بضع ليل من البصر<sup>١</sup> تتنظر الجواب فهني الامر كثيراً فبعثت رجلين احدهما رجل عامه والاخر رجل خاصة يسألانها عما تريد فعادة التي واخبراني ان ام المؤمنين وطلحة والزبير مصرور على العلب بدم عثمان ملك وان الاخيرين لم يبايعاك الا كرهاً . فشاورت رجالي فقال بعضهم تنصرم وقال آخرون تردهم ورأيت لهم نصراً . في البصر فغنت اتساع الخرق ثم طلعت ان عائشة جاءت المربد وهو السوق خارج البصر ومعها رجالها . فخرجت اليها بنسي ومعها بعض اهل البصر ممن يرون رأبي فلما انتهت الى المسكر سألتهم عن غرضهم فوقف طلحة وتكلم بنضائل الخليفة عثمان والحك على الاخذ بناؤرو ثم قام الزبير مثل ذلك فصادق رجالها على اتقوالها فقلت لها بايعتم علياً وجنتم تنولون . فوقفت عند ذلك ام المؤمنين واقفت خطاباً حرصت فيه الامس على الطلب بدم عثمان وقالت قولاً كثيراً وكان لكلامها تأثير شديد على كل من سمعها حتى ان جماعة كبيرة من رجالي مالوا اليها . ثم اشدت اللجاج بين الرجال وانتشبت الحرب فقتل من رجالي جماعة كبيرة فتنادينا الى الصلح وتواعدنا على ان يبعثوا الى المدينة فان كان طلحة والزبير اكرها على البيعة سلست اليهم الامر والا فانها يرجعان فبعثت اليهم وفدًا في ذلك

فقال علي<sup>٢</sup> وقد اجابهم اهل المدينة انها بايعا طائعين قال عثمان نعم يا مولاي جاءهم الوفد بذلك فأنكروا وبعثوا الي<sup>٣</sup> وكانت ليلة ذات رباح ومطر ساروا فيها الى المسجد وقت صلاة العشاء فأرسلت بعض رجالي لا ترى ماذا يريدون فقتلوه ثم جاؤا الي<sup>٤</sup> واخرجوني وتنفوا لحيتي وشعر حاجبي واشفار عيني<sup>٥</sup> كما ترى فبعثت بالخبر كما وقع

فقال علي<sup>٦</sup> انا لله وانا اليه راجعون وكيف اهل البصر الآن قال ان سوادهم مع ام المؤمنين

فاطرق علي<sup>٧</sup> وكل من في مجلسه سكوت يتنظرون ما يبدو منه فظل ساكتاً حتى شعر الناس انه يريد ان يخلو بخاصة فخرجوا جميعاً وفي جمانهم محمد بن ابي بكر وقد ساءه تعاظم الامر الى هذا الحد ولم يكذبك خبيثة حتى جاءه رسول<sup>٨</sup> يستقدمه الى علي فاسرع اليه فلم ير عنده الا محمد بن جعفر فدخل وحياه وهو يتوقع ان يسمع منه

امراً جديداً فلم بكلمه حتى جلس على وسادة بجانب محمد بن جعفر وبه جلوس  
خاطبة الامام علي قاتلاً ولاهتمام ظاهر وجه « اتدري لما دعوتك »  
قال خيراً ان شاء الله

قال قد سمعت ما فعلت اخنك وطلحة والزبير في البصره فقد ساوتوا عاملنا وحضوا  
الناس على حربنا لاننا على زعمهم قتلنا عثمان وانت تعلم ان اهل الكوفة حزب كبير  
بهنا استنفارهم ليكونوا معنا في هذه الحرب اذا كان لابد منها وقد اتدبتك است  
وانت اخي هذا لتسيرا الى ابي موسى الاشعري عاملنا على الكوفة تمتنفران الناس  
لتصرح الحق

فوقف محمد وقد امتلاً حبه وقال اتنا طوع امرك وان الدفاع عن الحق ونصره  
امور المؤمنين فرض واجب علينا

قال عليؑ ناهبا واخرجنا الى ابي موسى<sup>(١)</sup> واقرأ هذا الكتاب على الناس ودعواهم  
الى الاصلاح فاننا لا نريد سواء واننا هب للمسير في تركنا واستعين الله في نصره الحق  
وكبح جماح الباطل

فخرجنا وتاهبا للمسير فلنتركها سائرين في هذه المهمة ولنعد للبحث عن اسما.

## الفصل الثامن والخمسون

### ﴿ الفتك باسماء ﴾

اما اسماء فقد كان السبب في اسرها ان احد كبار اهل البصره من جاوذا ومع  
ابن عامر الى مكة شاهداها ساعة وقوفها في العريش ومخاطبتها مروان بتلك  
الجسارة مع ما كان يغلي في حباها من المهابة والجمال فوقعت من نسيه موقعاً عظيماً .  
وعلق قلبه بها . وكان من اهل اليسار والبنخ فلما انقض المجلس سأل عنها فاخبره  
بعض الذين اطلعوا على حديثها سرّاً من خدم ام المؤمنين انها محتطوبة لمحمد بن  
ابي بكر وانها باقية في مكة تنتظر امره بالذهاب الى المدينة فحدثته نسيه ان يحتفظها

(١) ابن خادون وغيره

ويغويها بحدو وبنزوجها وهو يعتقد انها لا تلبث ان ترى جماله وتعلم بجاهه وغناه حتى يموت وتفضله على محمد فيحظى بها ويتم من محمد لثمنه على عثمان . فاصطاع ذلك الكتاب عن امان محمد وبعت به مع بعض رجاله حتى اغوى اسماء على الخروج من مكة وكان هو في انتظارها مع بقية رجاله عند منقذ الطريق فسار بها كما تقدم وهو تارة يستعطفها باللين وطوراً يعدها بالسعادة ربثا يصل بها البصر وخيل له في بادىء الرأي انها مالت اليه لولا آسفة من سكوتها ونصيرها ولم يعلم انها انما فعلت ذلك حزمًا وتعلاً وكان بود الخالص من العجوز فيسمر له ذلك على اهون سبيل كما تقدم . ففضى اياماً في مسيرين وهو بمرج في الطرق روحة وجيئة بلبس رضاها قبل الوصول الى البصرة فلما دننا من البصرة عرج في طريق بنتي بالكوفة وكان له فيها منازل وصنائع

واما هي فكانت تفكر في طريقة للنجاة وكثيراً ما حدثتها نفسها ان تجافية وتظهر احتقارها له ولكنها كانت تعود فتصبر نفسها مخافة الذمك فلما صاروا على مقربة من الكوفة لم يرَ بدءاً من الوقوف على عزمها فصبر حتى سدل الليل نقابة وجاءها وهي مستلقية في الهودج الناساً للراحة وقد عظم عليها ما لاثمة في ذلك الامر وكان بجانب الهودج نار او قدوها للاستضاءة فرفع ستار الهودج فانتبهت اسماء وجلست وبما رأت سعيداً استعادت بالله اما هو فحياها بلطف وقال لها ألا نظنين البصرة خيراً من المدينة يا اسماء

فاطرقت ولم تجيب فحبا سعيد امامها ومد يده الى معصمها واراد ان يمسه ويتكلم وهو ينظر الى وجهها وقد انعكست عنه اشعة طيب النار . فلم يكك يمسه يدها حتى اجنلت وجذبها من بين انامله وبالغت في الاطراق

فقال لها ما بالكم يا مليحة ألا ترالين تجافيني وانت تعلمين اني امره عليك فهل انت خائفة ان لا تلاقيني في منزل محبك الاكرام الذي يلبس بك . واكتفك لا تلبسين ان تنزلي في بيتك بالبصرة او في الكوفة حتى تشعري بالمعادة التي تنتظرك هناك ما لا يتأتى لاحد سواي ان يهلك اياه فهناك تجدني المخدم والحشم والدور والمنازل والحمل والماشية والملابس الفاخرة وكل اسباب الراحة . . . ألا تمنين عليّ بنظرة تدل على رضاك

وكان سعيد يتكلم وعينا اسماء شاخصتان الى تلك النار الموقدة بجانب هودجها ولا يحاكبها في ذلك الليل الهادي. الا نيران قلبها المنفذة حباً للحمد وغيرة على الاسلام وقد ازدادت انقاداً وحنّة لما سمعته من كلام ذلك الشاب وازادت ان توبخه وتردعه ولكنها علمت انها اذا فعلت ذلك عرضت نفسها للخطر السريع فتهدت وظلت صامتة

اما هو فظن نهدها دليلاً على تأثرها من كلامه فاجسم وسحف نحوها وهو لا يزال جاثياً ومد يدك ليمسك اناملها وهمم بالكلم فاجذبت يدها منه ونظرت اليه والشر يكاد يتطاير من عينيها ثم اعرضت عنه وهي تحرق اسنانها. فاجسم هو وهش وقال بنغمة الحسب اللولمان « بالله ألا رحمت قلباً قيدته بسلاسل هواك . الا رمته بلفنته . ألا بردت لظاء بكلمة . قولني يا اسماء . . . قولني انك راضية في عبداً رقاُ وانا اكرس حياتي لخدمتك . والله اني لم اقل هذا لأحد قبلك . . . . تعطيني بالله وارقي كفى سكوتاً واعراضاً . . . . اعلمي يا مليحة انني انما اريد سعادتك وان الله ساقني اليك لحسن حظك وحظي . وان ابن ابي بكر ليس اهلاً لك ولا هو يستحقك وسوف ترين ما يجعل يو اذا احدم القتال وتصادمت النبال »

فلم تعد اسماء تستطيع صبراً على ذلك بعد ان سمعت التعريض بمحمد وحدثتها نفسها ان تصفعه على وجهه ولكنها كالت غيظها بالرغم عنها وعمدت الى توبيخه فقالت بنغم واطىء وصوت رخيم « اني لا اراك اهلاً للتزال »  
فسر سعيد لكلامها وان يكن توبيخاً لانه لانه رجا ان يتصل بالحديث معها الى استرضائها فقال « وما ادراك يا فاتني اني غير اهل لذلك »

قالت وهي تنظر اليه نظر التوبيخ « لان الرجل الذي يقطع النياقي والفتار طلباً للثأر او نصرة للفق على ما تزعمون لا يرتكب جريمة التزوير ومن كان حراً صادقاً يلتقى الرجال في حومة الوغى لا يخاطب فتاة لا يعرفها بل هو يعلم انها تحب سواء »

فحس الرجل رأسه عند كلامها وقال « لقد صدقت ايها العذراء اني ارتكبت التزوير ولكنني لم افعل ذلك في عمري كفو غير هذه المرة وما فعلته الا التماساً لتربك اذ لم يكن لي اليه غير هذا السبيل فأنا استغفر منك عن هذا الذنب »  
قالت « انك انما اذنبت الى غيري فان كنت رجلاً فالتق محمداً واستغفره فاما

ان يفرلك واما ان يرازك فترى من هو الرجل «

فجلس سعيد ودنا منها حتى كاد يلامسها ومد يديه فقبض بواحدة على زندها وجعل الاخرى على ثيابها واراد ان يترعها فجدت بدعا منه ووقنت وقد اخذ الغضب منها مأخذاً عظيماً وقالت « ابعده عني ولا يفرتك سكوتي ومرضي والله انا مددت يدك اليّ كسرتها نصين «

فضحك سعيد وقال « لا تفضي يا حبيبي فاني لم افعل شيئاً يفضيك ولكني استرضيك واستعطفك فافيتي من غنالك ولا ترضي نعمة انم الله بها عليك «  
قالت وهي تمخر للخروج من المودج « اذا كنت ترعم انك تريد رضاي فاعلم انك تطلب عيباً . وانا حدثتك نفسك بوطر نغيو فاعلم انها تحدثك باطلاً وان احتراقي في هذه النار ايسر عليّ ما تدعوني اليه «

فقال وقد حار في امره وهو بكظم غيظه ولا يزال يرجو رضاها « نهلي يا حبيبي وتبصري في ما اقوله لك ولا ترضي النعمة التي اعرضها عليك باسم الحب . . . . «  
قالت بنفحة جافية « لا تطلق بالحب فانك تتكلم باطلاً ولا تستعظم قوتك ونستكثر جالك فان ذلك لا يرهني «

## الفصل التاسع والخمسون

### \* الاصرار على الفتك \*

فلما رأى منها هذا الاصرار وقف على قدميه بفتنة وصاح فيها صيحة دوت لما الاودية في ذلك الليل الهادي وانتهرها قائلاً « اراك قد بالفت في الفتحة واستغفنت بي وانت تعلمين انك اسيرة بين يديّ « قال ذلك وامسك بيديها وجذبها اليه فشرعت كأن قوتها تضاعفت ونسبت ضعفا ومرضا وانفضت من بين يده ورفست برجلها فارساً ساطعاً على الارض واعرضت بوجهها عنه

فهب من وقعته وصاح برجاله فجهروا حول اساء وقبض بعضهم على يديها والبعض الآخر على كفيها فتملصت من بين ايديهم وصاحت فيهم قائلة « عار عليكم وانتم رجال مسلمون ان تجهروا على فتاة عزلاء لا سلاح معها «

فصاح سعيد فيهم « قيدوا هذه الخائنة وشدوا ساعديها »  
 فقالت « ما الخائن إلا أنت يا نذل الرجال أنظن الفيود تقيد شيئاً من حربي »  
 قالت ذلك وهمت بعضاً من عصي المودج استلنها وهجمت على الرجال فنفروا من  
 امامها ثم عادوا وتكاثروا عليها وفيها في تحاول مدافعهم عثرت رجلها بعقال الجمل  
 فوقعت على الارض فاسرعوا اليها وحاموا حولها كما تحوم النور حول الجثة وشدوا  
 وثاقها وهي لا تبالي بما يفعلون وسعيد واقف ينتفض من شدة الغيظ وامرهم ان  
 يلتوها في المودج ويربطوها به ففعلوا

فلما أيقنت امها بالخطر القريب تفرقت الدموع في عينيها وصاحت « آء  
 يا محمد ابن أنت . . . يا ويل الاندال اللئام الذين لا ذمة لهم ولا ذمام »  
 فلما سمعها سعيد تنادي محمداً ضحك ضحكة بينا لظها ارتعاش الغضب وقال  
 « لا تذكرني محمداً ولا ترجي نجاة من هذا الاسر » ثم امر رجالة فنزقوا فندا منها وهي  
 في تلك الحال وعاد الحيا للملابنة والملاطنة فقال « كيف ترين نفسك الآن الا ترجعين  
 عن غيوك وتقبلين بنصهتي . ها انك اسيرة بين يدي وحياتك رهينة اشاركني الا اذا  
 اجبت سؤالي فتصبرين انت الامة الناهية . . . قولي انك رضيت بي . قولي انك تحبيني »  
 فصاحت به قائلة « لا لا لا احبك اذهب عني يا شيطان ولا ترني وجيئك »  
 قال « الا ترالين على عبادك وروحك في قبضة يدي »

قالت لا تهددني بالموت فانه خير ما اتوقعه . . . اقتلني وارحني من هذه الحياة  
 قال لا لا اقتلك بل اذيتك العذاب . . . لا بل اعيد النصح ثانية وادعوك  
 الى حبي . قال ذلك وجلس عند رأسها ومد يده الى شعرها ولم يكذب بسسه حتى اقتشر  
 جسمها وانتفضت وكان الوثاق محلولاً من بعض اطرافه فتخلصت يدها فاستخرجت  
 ذراعها ودفعت يده بعنف فخاف ان تنك به فجرد حسامه وهوم به عليها فوقفت  
 وذراعها الاخرى لا تزال مشدودة فاخططت السيف من يده فتطاعت به بقية الكيال  
 واغارت عليه ففر من امامها ونادى رجالة فاسرعوا اليها فاصابت احدم  
 بضربة على عنقه فغرقت قبلاً وهمت بالباقيين فتكاثروا عليها وهبثوا بالرمح  
 والحراب والسيوف فاصابها سنان في زندها فوقع السيف من يدها ووقعت على الارض  
 مغشياً عليها من شدة الألم فاسرعوا اليها وكنوها وهي لا نعي . فلما رآها سعيد غابئة

امر بالماء فرشوها به حتى افاقت . فقال اتركوها الآن ربنا نستريح وهو يحسب انها ستدعن لاسر . فسكت عنها برهة وهو جالس بالقرب منها يعلل نفسه برضاها بعد ما اصابها من الضحك

واما هي فكانت لا ترداد الا نفرة منه وبأسا من الحياة ولما رأت ما هي فيه من الخطر الاكيد علم عليها الامر فلم تنالك عن البكاء والتهيب فدنا سعيد منها وقال بنغمة الظافر " والآن يا اسماء كيف ترين نفسك " قالت لا اراني الا ازداد نفورا منك اذهب من امام عيني قال يا للعجب ابعد هذا كلو لا تزالين ترجين خلاصا

" قالت " لا لا ارجو خلاصا ولا اطلب غير الموت فانه غاية ما ارجوه ولكن آه . . . . " قالت ذلك وعادت الى البكاء وهي تقول " ابن انت يا محمد . . . ارني وجهك قبل المات ولو لحظانة "

فلما سمعها تذكر محمدا انقادت الغيرة في قلبه وعول على الفتيك بها فجرد حسامه ووقف فوق رأسها . فنظرت الى السيف وضوء اللهب يتعكس عنه فيلعب فابنتت انه قاتلها لا محالة فصاحت " ابن انت يا محمد يا ابن ابي بكر زودني بنظرة منك قبل المات "

فقال سعيد " انظري اني اقبلك الآن لا لا تعالي نفسك بهذه الامنية فاني ساميتك صلحا " وأشار الى بعض الوقوف من رجاله فرفعوها عن الارض واقفوها الى شجرة من السنتط الصقولا ظهرها بها وشدها اليها شدة وثقاً وكان في جرع الشجرة ثوات واشواك اصابت يديها فألمتها لكنهما لم تكن تبالي بشيء في جانب ما شعرت به من الشوق لرؤية محمد في آخر ساعة من ساعات الدنيا عندها . فاسفت كيف انها سنارق الحياة ولا تراه . وكانت تنكر في ذلك وهي تنظر الى ذلك الافق المظلم الذي لا يبر فيه غير تلك النار الموقدة بين يديها

اما سعيد فتركها مشدودة الى السنتطة وذهب هو ورجالها ياتمسون الراحة او المنام وظلت هي مصلوبة تنظر تارة الى الافق وطورا الى السماء وآونة الى النار امامها وهي غارقة في بحار الهواجس وحدثتها نفسها ان تلبس لسعيد وتعد خيرا ربنا ترى ما يحيي به التندر ولكنها علمت انه لا يكفي من رضاها بالكلام فقط فعادت الى هواجسها

وهي تنظر الى النار فرأيتها قد اخذت بالحدود فخافت ان تنطفئ. ولا يبقى ما يؤانسها . على ان خودها جعل الافق أكثر ظيورا لديها فقد كانت لا ترى فيه الا ظلاما دامسا فلما خمدت النار ظهر في اطرافه بعض الاشباح من الشجر ان اللال وكانت انرط قلقها تحسب الاشباح اناسا قادمين لاتقاذها

## انفصل الستون

### ﴿ باب الفرج ﴾

وفيما هي تنظر الى الافق رأت هناك اشباحا تحرك ففترست جيدا فاذا هي هجن وافراس قليلة عليها رجال فاستأنتهم وهمتان تستصرخهم فتمتها الائمة وعزة النفس ففالت في نفسها « اذا كان لي نصيب بالحياة اتى اولئك الركب لاتقاذي بالهام من الله »

اما سعيد فقد كان ساهرا وهو يتوقع ان تسترضيه اساء فرأى عند الافق اشباحا وعلم ان ناره ستهديهم اليه فامر باطنائها فلما رأت اساء الرجال يهون باطناء النار ايدت امهم خائفون ففالت في نفسها عسى ان تقع عاقبة خوفهم على رؤوسهم واستبشرت بالفرج . على انها لم تكذب تنعل حتى رأت سعيدا قادما نحوها والحسام مجرد في يده وصاح فيها وهو يحسبها لا ترى احدا قادما وقال « هل لان قلبك الان ام ماذا » فلم تجب . فقال « قولني . . . اجبي . . . ان حيانك بين شئتيك فاما ان تصبري سعيدة واما ان يجرى دمك على جزع هذه الشجرة . . . قولني حالا »

فخبرت بماذا تجيبه وهي تعلم انها اذا اجابت بالرفض ضربها بالحسام وهي مشدودة الوثاق فرأت الماطلة خير ذريعة لبعائها ربنا يصل اولئك الركب عسائم ان يفجدها . فلم تجب

فادرك سعيد قصدتها وخاف اذا انتظر جوابها ان يصل الركب فشرع الحسام يده وصاح بها « قولني حالا فاما ان اسمع صوت قبولك واما ان سمعي صوت حسامي على عنقك »

فغظ عليها هذا التهديد وهجرها التعلل فقالت « لا لالا لارضى . . . فاضرب عني والله يجزي الذالمين . . . ثم صاحت آه يا محمد يا ابن ابي بكر ابن انت . . . آه لو تعلم مصير اسماء »

فلما سمع سعيد رفضها نزل بالسيف على عنقها ولكنها لئسوا واضطرابوا حاد سبها قليلاً فوقع على كتفها ولم يصب غير الخيال وهب مجدولة من الياف الخليل فغطاها ولم يزد فتمتل وتناق اسماء وهي لا تدري وكانت تتوقع المحام فلما رأته ونافها محلولاً ظنت نفسها في منام ولكنها ما لبثت ان ادركت انه اخطأ الضرب فقولت اليوهي كالاسد الكاسر لفرط غيظها منه فلما رأى انه الاقبحا زاد فشك وصاح برجاله فتكاثروا حولها مجراهم وسودهم فصاحت فيهم « اما فيكم من برى الذمام ونجاف من الله » قالت ذلك ولاحت منها التنانة فرأت الركب قد اصبحوا على قاب قوسين منها ولم تكدهم تلك الصيحة حتى سمعت صوتاً كالرعد القاصف وقع في اذنها وقوع الماء على قلب الدان ألا وهو صوت محمد بن ابي بكر يقول « ليك يا اسماء لقد جاءك النرج . . . اعداً يا ابنا ذال »

أما هؤلاء فحالما سمعوا صوت محمد ورأوا معه رجلاً آخرين حولوا وجوههم وأركبوا الى الفرار بما استطاعوا حمله ولم ينص هيبه حتى غابوا عن الابصار وقد تركوا اسلامهم وبعض جمالم والمودج

ولا تسل عن اسماء وما حل بها لما سمعت صوت محمد فانها لبثت مدة صامتة تحسب نفسها في منام حتى دناها ونادها « اسماء » فقالت « محمد . آه ابن كنت يا حبيبي أعمل الله بعثك بمجيرة لعاني ام انا في منام »

قال « بل انت في بنظرة . ما الذي اصابك . هل فيك من بأس »

قالت لا بأس بي غير جرح خفيف في زندي اصابي واما ادافع هؤلاء اللثام ولولا لنتنهم جميعاً ولكن السيف سقط من يدي وعثرت بعقال الجمل فشدها ونافى . قالت ذلك والتفتت فرأت مع محمد رجلاً آخر لم تعرفه ففجعت لما ابده من عواطف المحب فأدرك محمد ما بها فقال « لا نستغري رفاقي فان هذا محمد بن جعفر ابن اخي امير المؤمنين وهؤلاء خدم ساترون في ركابنا الى الكوفة وقد جئنا بهمة في خدمة امير المؤمنين فاجلسي الان واسترعي وقصي علينا خبرك » فجلست وجلما

ومحمد ابن جعفر يعجب لما يبدون من همه تلك التثاء وكان قد سمع من محمد عن حديثها وغيره على الامام وعلى الاسلام فاحبها بمجرد السماع فلما رأى فيها تلك المحبة سر لسامع حديثها فجلسوا وقصت اسما ما جرى لها وهما شاخصان بزادان اعجاباً .  
وقص محمد ما تم له بعد مجيء كتابها وقصوا بقية ذلك الليل بالاحاديث وقبل الفجر اغمضت اجفانهم ساعة فاستراحوا فلما انبلج الصبح وافاقوا من منامهم نظروا الى ما حولهم فاذنا ببقايا الهارين وفيها كثير من الزراد والآنية وجثة ملقاة عن بعد فنظر محمد اليها وسأل اسما عنها فقالت انه احد اولئك الطغام ادركته بضربة ذهبت بجياتو .

فقال بورك فيك ففحن الآن ذاهبون الى الكوفة وهي على مقربة منا فهل بنا اليها نقضي مهنتنا ثم نبعث بك الى المدينة تقيدين فيها ربنا تنقضي الحرب فقالت وهي تنظر اليه نظر العاتب « العل كتناي لم يصلك »

قال بلى وصلني

قالت فكيف تدعوني الى الإقامة في المدينة وقد عاهدت نفسي على نصره الامام علي جهد طاقتي

قال لقد جاهدت وسعلك وانت مريضة

قالت لا بأس بي باذن الله

قال فلنذهب معاً الى الكوفة ثم نرى ما يكون

قالت لا ارى في ذهابي اليها فائدة

قال ماذا اذا

قالت « انت تسير في مهنتك واما انا فاني اسير الى اخنك ام المؤمنين في البصر عساي ان اتوفى الى اقناعها ببراءة الامام علي فتكف عن الحرب حجماً لدماء المسلمين وفراراً من سوء العقبى . ان الامر لا عظم ما تصوره يا محمد وقد آليت على نفسي ان اضحي كل شيء في سبيل دفع هذه التثنة »

فاجبب محمد ومحمد بجيبها فقال لها ابن ابي بكر « ولكنني لا اظن سعيك الا ذاهباً عبثاً »

قالت علي السعي وعلى الله التدبير . . . وابن هي الطريق الى البصر

قال اذا كان لا بد من ذهابك اليها فاني اصحبك بخير من رجالي يسير في خدمتك الى حيث تشائين . قال ذلك ونادى مسعوداً وكان في جملة من صحبه في هذا السفر فاجاب مسرطاً فقال محمد هذه اسماء التي حملت الي كتابها انها سائرة الى البصرة فاوصلها الى معسكر ام المؤمنين وعد الي بالخبر في الكوفة  
 فنهضت اسماء للحال وامرت مسعوداً ان يهيء الجمل . فقال ألا تركبين الهودج قالت لا ليس هو وقت التمتع اركبي جملاً خفيفاً  
 قالت ذلك ونظرت الى محمد قائلة ان الوقت ثمين يا محمد فلنسر في مسعانا عسانا ان نتوفق الى ملافاة التمتع كما اخبرتك  
 فنهض محمد وركبوا جميعاً . فسارت اسماء ومسعود نحو البصرة ومضى الباقيون نحو الكوفة وهم يعجبون لما آتسوه من شهامة اسماء وحميتها وغيرها

## الفصل الحادي والستون

### \* خطر آخر \*

وسارت اسماء وهي تسعدت جعلها ومسعود سائر على جملة امامها ليهديها الى الطريق فمضى معظم النهار ولم يستريحوا ولا تناولوا طعاماً فلما كان الغروب سالت اسماء عن البصرة فقال انها على بضع ساعات منا فارى ان نبيت ههنا الليلة ونصبح فصابح المدينة قالت لا صبر لي على الانتظار هلم بنا ولا بأس من وصولنا الى البصرة فنقيم في المرقد قال ان جيش ام المؤمنين محبسون هناك  
 قالت سر بنا على خيرة الله فالي انما اقصد معسكرها  
 فلم يستطع مسعود مخالفتها وظل سائراً يتلمس الطريق تلمساً لان الليل كان حالاً وانفق مع ذلك هبوب الريح وثابت الغيوم فلم يعد يرى الطريق امامه ولا النجوم حتى يهتدي بها ولكنه رأى نوراً عن بعد فعلم انه نور دهر لبعض النساظر كان قد زاره في بعض خطراته في تلك الايام . فجعل ذلك النور وجهته واسماه سائرة في اثره وها صامتان لا يسمعان الا وقع اخفاف الجبال اما على الحجارة فتفرقع واما على الاشواك والادغال فتعش خشباً

وكان مسعود منشغل البال لمسيرهما في ذلك الظلام وخاف ان يعترضها وحش اويهيوا في هوة وقد عجب لشجاعة اسماء وتحملها مشقة ذلك السير . على انه ما علم ان سمع طين سهم مرسل في الجومر امام عينيه فجعل واقعبس وصاح قائلاً « من ذا الذي يريد غدونا » ولم يتم كلامه حتى سمع اسماء تقول « آخ . . قتلني قتلك الله » فعلم ان السهم اصابها فحول اليها وقال « ما بالك يا سيدتي ما الذي اصابك »

قالت « اصابني سهم في جنبي واظنه قتلي » فترجل عن جملي واناخ جملي فاذا هي تسد جنبها بيدها والسهم لا يزال مغروساً فيه فترعه بخفة فصاحت صيحة دلت على شدة تألمها فغير في امره وخاف ان تموت اسماء بين يديه في ذلك التفر المظلم فوضع يده على جرحها وضغطه بكنفه وهو يرتعش من عظم التأثر ثم سألها عن حالها فقالت « اني مقتولة لا محالة . اظن ذلك النذل قد كمن لنا في هذا الطريق » وازادت التكلم فارنج عليها فلم ير مسعود خيراً من ان يجلبها على جملي ويسرع الى ذلك الدبر لمعالجتها . فاردفها خلفه وساق جملة وقاد جملي وراه . واسرع الى الدبر ولم يصدق انه وصله فاذا هو مقتل وسوره عال لا يمكن اجيازاه فتذكر ان الدبور يعلتون فوق ابواب اجراساً يدقها من يمينه طارقاً فاهتدى الى الحبل فشد فطن الجرس فلم يجبه احد فكرر الدق بعنف وصر هتفه فسمع صوتاً جهورياً يقول « من الطارق » فاجاب مسعود قائلاً « افجع ناشدتك الله واسرع الى اعانتنا » فقال من انت

قال انا غرباء في اشد الضنك افجع رعاك الله . قال ذلك وصبر فلم يعد يسمع صوتاً وانصرف فكره الى اسماء وهي منطرحة عند عنبة الباب تعن عينا عميقاً فاسكها بيدها وبه ترتجف خوفاً عليها فراها باردة فحس جرحها ففاصت انامله في الدم وكان قد تحتر وملاً ثوبها فحاول اجلاسها ليتحقق صحوها فاذا هي تلغز وقد ارتخت مناضلها فزاد اضطرابه وم ان يصيح ببواب الدبر فرأى نوراً انبثق من كوة فوق الباب فالتفت فرأى راساً عارباً قد وخطه الشيب فايضاً بياضاً ناصعاً قد اطل من الكوة والمصباح في يد يتعكس نوره عن لحيتو البيضاء وهو يقول « اصدقنا ايها الطارق من انت »

فصاح مسعود قائلاً « اننا غرباء ومعنا مريض مشرف على الموت اتجدنا جزاك الله خيراً »

ولم يتم مسعود كلامه حتى سمع صوت مزلاج ( سقاية ) كأنه قد يجبل فانفتحت خوخة صغيرة في وسط ذلك الباب المصنوع بالحديد فرأى مسعود انه لا يستطيع الدخول من الخوخة واساءه في تلك الحال فتقدم الى الراهب ان يفتح الباب كله وأشار الى ما بين يديه فاسرع الراهب بفتح مع شيوخه وجرّ عضادة ضخمة من خشب كانت وراء الباب فتفتحه وساعد مسعوداً في نقل اسماه الى اقرب غرفة هناك واجلسها على الفراش وخبث الراهب الى رئيس الدير ليجري الخبر . ولم تقص هنية حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم قد رق بدنه وتجمد جلد وجهه واكنسى بالشعر الابيض على خنثة ولكن عينيها ما زالتا تنقدان نوراً وصحة وفاتة متدلة تدل على نشاط وهمة . فتقدم الرئيس الى النناة وهي ملتاة على الفراش وسأل مسعوداً عما بها فنص عليه الخبر مختصراً . فادارها على جنبها الصحيح واخذ في كشف الجرح فحوّل مسعود وجهه عنها حياء وحشمة واشتغل الرئيس وراهبه بفصل الجرح وتضميد وامر بلين غسله يو ثم صب عليه ماء مقدساً يحتفظون به للمثل هذه الحال وربطة وامر بملائة من نسيج العباء فغطاها بها التاماً للدفء ورش وجهها بالماء المقدس ودعه بزيت من مصباح الدير المضي . امام صورة المسيح وهو يدعو الى الله ان يقرب الشفاء . فاقامت اسماه هنية ولكنها لم تنل شيئاً ثم عادت الى العينين . وكان رئيس الدير وهو يفضل وجه النناة بتأملها وبفارس في ملاحظتها كأنه تذكر شخصاً يشبهها . وهو في اثناء ذلك يعتذر لمسعود عن تأخر الراهب في فتح الباب لتخوفهم من بعض الطارقين الذين كثروا يومئذ على اثر قدوم جند مكة الى البصرة ووقوع بعض المواقع الحربية . فلما فرغ من تضميد الجرح تحوّل الى مسعود فسأله « من النناة »

فقال « انها فتاة لبعض كبار الصحابة . ولم يزد »

فاعاد الرئيس نظره اليها وادنى المصباح من وجهها وكان قد استنع ونحل وهي مطبئة العينين كأنها في سبات وقال « فهي اذاً مسلمة »

قال نعم

فلحح الرئيس في صدرها محبباً اعتماد النصارى تلبية في صدورهم وكان زندها

مكتوباً فرأى عليه رسم الصليب فالتفت الى مسعود وقال « ولكنني ارى عليها  
بعض اشارات النصرانية »

فلم مسعود من تدقيقه وهو لاجلهمه ساعتئذ الا شناها فقال « لا ادري يا سيدي  
سوى انها مسلمة ففعل لتلك الشارات سبباً لا اعلمه »

فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهو تارة ينظر الى  
وجهها وطوراً يطرُق متأملاً كأنه يبحث في ذاكرته عن شخص يشبهها  
ثم نظر الى مسعود بغتة وقال له امضي يا بني الى غرفة الاضياف اذا شئت طعماً  
ثم اذهب الى رقادك معاً مبيتاً فلا يضي على هذه التناءة قليل حتى نصحو ونتحسن صحتها  
بقوة الله وبركة صاحب هذا الدبر

فقال مسعود اني لا اشعر بالجوع ولا انا في حاجة الى الرقاد وافضل البقاء هنا  
لا اري ما يتم لها

قال لا حاجة الى بقاءك ولا بأس عليها لاننا ما سمحنا جريحاً او مريضاً بهذا  
الماء المقدس الا شفاء الله اذهب الى فراشك واذا شئت البقاء خارج هذه الغرفة  
فلا بأس

فاستخيا مسعود من تكرار الاعتذار فخرج وجلس على حصير وراء الغرفة

اما الرئيس فحالماً خلا بالراهب جعلاً يتساربان ويتعاطبان بلسان نصارى  
العراق (الكلداني) ويشيران الى اسماء . وكان مسعود لقلته لا يغفل عن كل حركة  
تحدث فانشغل باله لتلك المسارة واصاح بسمعو فلم ينهم من كلامها شيئاً . فجعل يرصد  
ما يبدو منها فاذا بالرئيس امر الراهب فخرج ثم عاد ويده كتاب ضم ففحه وقرأ ونهم  
ثم ركع الاثنان فعلم انها يصلبان . فلبث ريثما فرغا من الصلاة وقاما فرأى الرئيس دنا  
من اسماء وهو يمسح الماء عن جبينها ويتأملاً ثم جلس الى جانبها وليث ينتظر ما  
يبدو منها . وبعد هنيهة تحركت كأنها تعول عن احد جنبها الى الآخر وما كادت تعول  
ذلك حتى صاحت من الالم . فسر مسعود لصياحها لعلوه انه يدل على الصعو فدخل  
الغرفة فرأى اسماء قد فحمت عينها ونظرت الى ما حولها فوقف بصرها عند وجه  
الرئيس وحاولت التنرس فيه ولكن الضعف غلب عليها فذبلت اجنابها وأطبت  
عينها فعدت حالاً الى الرقاد . فأوماً الرئيس الى مسعود بيده وبلاخ وجهه

وهو يبتسم كأنه يقول « استبشر بالخبر أنها قد افاقت » . فانبط وجه مسعود وظهر  
البشر عليه وتوسل الى الله ان يتم شفاءها مخافة غضب محمد بن ابي بكر . وقضت  
بقية تلك الليلة راقدة وتنفسها هادى .

وفي الصباح بكر مسعود الى غرفتها فرأى الراهب الشيخ الى جانبها يهتم بالكشف  
عن الجرح وتبديل رباطه فتعول حالاً حتى اذا فرغ الراهب من عمله نادى  
مسعوداً فدخل ونظر الى وجه اسماء فاذا هي قد افاقت وفتحت عينها فحمد الله ودنا  
منها فلما رأته قالت له « آء من ذاك النذل الذي عجز عن مصادرتي وجهاً لوجه  
فاراد قتلي غدراً ولو كان رجلاً لاطهر نساءه وطلب البراز او الطمان » قالت  
ذلك وحرقت اسنانها

فقال مسعود لا بأس عليك يا سيدتي ولا تعباي بما فعله هذا الغادر على انا  
لا ندرى اذا كان هو الناعل

قالت لا ريب عندي انه هو بعينه والآن فمن يعرفنا في هذه الديار سواء . .  
هو هو بعينه فحمد الله

قال ما لنا وله فارأى بك بي هل اذهب لاخبر مولاي محمداً بما وقع ليأتني  
لاعاتك . . .

فقطعت عليه الكلام قائلة « لا لا لا تفعل لاني اخشى اذا علم بما حل لي ان يسي  
اليّ وجهل مهمته التي انك امير المؤمنين لفضائلها وهي تتعلق بمصلحة عامة المسلمين  
فلا يابق ان تشغل عنها بجهالة فرد من افرادهم . وزد على ذلك اني بحمد الله  
مستريحة لا اخالي بعد ايام قليلة الا راكبة جملاً او جواداً الى معسكر ام المؤمنين  
اودي المهمة التي اتدبت نفسي لها » . قالت ذلك واصعدت بصرها الى فوق وشارت  
بيدها كأنها تقول « فقدر لي الله ان اقف هنا في هذه الحالة » وشغفت اشارتها بدمعين  
كبيرتين انحدرتا على خديها ثم التفتت الى ابقونة معلقة بالحائط امامها شغلت نفسها  
بالنظر اليها

وكان الراهب في اثناء ذلك منغللاً براءة درج ( رق ) في يده فيفرض من  
فروض الصلاة

اما مسعود فلما سمع كلام اسماء وشاهد الدمع يتحدر من عينها على تلك الصورة

تأثر من منظرها واستعظم كثبان حالها عن محمد فقال لما كيف آتكم عنه حالكم وقد عهد إليّ العناية بكم

قالت « افعل ما اقوله لك . اتركني هنا واذهب اليه لعله يحتاج اليك في شيء . واما انا فلا بأس عليّ في هذا الدبر فان اصحابه اهل ضيافة ورحابة وقد صرت على مترية من معسكر ام المؤمنين وبعد بضعة ايام انفه من جرحي فاذهب اليها والانتكال على الله »

فتركها وذهب الى شرفة الرئيس فراء خارجاً فسأله عن رأيه في حال اسما . فطلباً انه ان جرحها خفيف لا خوف منه وتعهده ان يتولى العناية بها حتى تشفى فاطمأن خاطرهُ ومكث هناك الى مساء ذلك اليوم وبات الى الصباح التالي فرأى اسما قد تحسنت حالها فارتاح باله فودعها ومضى وهي تلح عليه ان يعطينه محبداً عنها

## الفصل الثاني والستون

### ﴿ عودٌ الى السر ﴾

اما رئيس الدبر فكان قد قضى بهار الامس وليلته وهو ينظر الى اسما . ويجهد فكرته في تذكر ما يعرفه عنها او عن بشيها فلم يهتد . فلما خرج لوداع مسعود عاد الى اسما . وكانت قد تعبت من الرقاد فجلست في الفراش . فلما دخل الرئيس نظرت اليه وتأملت وجهه فنذكرت انها رأتها مرة قبل ذلك الحين في دمشق يوم سفرها منها مع والدتها الى المدينة . وكانت قد لحظت اشتباهاً بها منذ دخولها الدبر . فلما عاد من وداع مسعود جلس على طنفة بقرب فراشها فنظرت اليه وقالت « ألا تذكر باحضره الاب المحترم انك رأيتني قبل هذه المرة »

قال هذا الذي شغل الي منذ رأيتك بالامس ولكنني لا اذكر ابن رأيتك

قالت اظنك رأيتني في دمشق في العام الماضي

فلما سمع قولها انبسطت سمته ونرس في وجهها وقال للعالم « نعم نعم . . شاهدتك مع والدتك وقد جئنا الى كنيسة ماري بوحنا في دمشق ازبارة القسيس مرقس الشيخ

البار . . . نعم اذكر ذلك . . . اين هي والدتك »

فلما سمعت اسما ذكر والدتها تفرقت الدموع في عينها فبادرت الى مسحها  
بطرف كفا وسكنت

فادرك الرئيس ان هناك امرأ محترناً دعاها الى البكاء فسكت لحظة ثم قال  
« وهل اصاب والدتك سوء »

فالتت وهي تبكي « نعم يا سيدي انها ماتت و أسفاه عليها ولولا مايتها . . . »  
فالتت ذلك وشرقت بدموعها

فاطرق الرئيس برهة ونظر الى الراهب وكان لا يزال جالساً وإشار اليه ان يخرج  
من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس باسما جعل يخفف عنها ويمزجها ويلتصص صبرها حتى  
هدأ روعها ثم قال لها « وهل عرفت اباك »

فلما سمعت سؤالا توسمت من ورائها نوراً لعلمها مهندي بو الى استطلاع ذلك  
السر الذي كانت تظنه دُفن مع والدتها . فالتت « لا يا سيدي لم اعرفه وهل  
انت تعرفه » فسكت برهة ثم قال « لا يا ابنتي ولا انا اعرفه ولكن . . . » وسكت  
فالتت « ولكن ماذا . . . قل يا سيدي ان معرفة ذلك بهني كثيراً وقد كنت احسب  
امر والدي المحفني مكتوماً عن كل بشر سوى والدي . ولما توفيت حسبته ضاع  
ودفن معها . فكيف عرفت انت ان والدي مجهول وقد كان ذلك سرّاً مكتوماً عن  
كل انسان على ما اعلم فاطلاعتك عليه بمنزلة معرفتك حقيقته . فهل انت عارف  
شيئاً . . . قل لي وافرج كربتي » فالتت ذلك باهنة وقد ندمت جرحها وضعها

فلبت الرئيس الشيخ برهة صامتاً وهو يمشط لحية باصابعه كأنه يكتم امرأ ود  
لوانه لم ينفع عليه باباً للسؤال عنه . ولكنه لما رأى اسما مخاطبة بهذه اللفظة قال لها  
« صدقيني يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك ولكنني اعلم ان الذي كان مع والدتك  
يوم رأيتك في كنيسة ماري يوحنا بدمشق ليس هو والدك المحفني »

فالتت وهي تخفض صوتها احتراماً لتمام الرئيس وشيوخه « وكيف عرفت ذلك  
يا سيدي . ربما لا يهلك امر هذا السر مطلقاً ولكنه بهني كثيراً لانني علمت ان يزيداً  
الذي كان مع والدي (رحمها الله) ليس هو والدي المحفني وان لي أباً غريباً كانت  
والدي قد وعدتني بذكر اسمه بعد وصولنا المدينة ففضى الله موتها قبل وصولنا واحسرتاه

عليها . . . فظللتُ مجهولة النسب . واطن الله قد اراد كشف هذا اللثام عني على يدك «  
قالت ذلك وهمت بتقبيل يده وهي تقول « اتوسل اليك ان تطلعني على ما تعرفه من  
هذا التوبل »

وكانت هي شكلم والرئيس الشيخ مطرق فلما فرغت من كلامها رفع نظره اليها  
وقال « قلت لك يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك واما كنيته اطلاعي على ذلك  
فاني اقصد عليك لعله يفتدك في شيء »

فاعندلت اساءة في مجلسها وبدها على جنبها الجروح تضغط عليه تخفيها للام واصغت  
لما يقوله الرئيس

فقال « اتذكرين يوم جاءت والدتك الى كنيسة مارى بوحنا في دمشق وكنت  
انت معها فتركنتك مع والدك خارجاً ودخلت هي لوداع القسيس مرقس قسيس تلك  
الكنيسة ثم خرج ذلك القسيس الشيخ لوداعك فهل تذكرينه »  
قالت نعم يا سيدي « اذكر ذلك الشيخ الهرم وخروجه لوداعنا »

قال الرئيس « وقد كنت انا يومئذ زائراً عندك فلما عاد اليّ رأيت على وجهه آثار  
البغنة فقلت ما بالك يا حضرة القسيس فقال « ان هذه المرأة سرّاً عهدتني اليّ منذ بضع  
وعشرين سنة وهي الآن شاخصة الى المدينة لتبيع به هناك واخشى لضعفها ومرضاها ان  
تموت قبل وصولها . فاذا حدث ذلك ظل هذا الامر مكتوماً عندي وجددي واراني  
قد شئت وربما دنا اجلي فيذهب السرضياكاً وهوهم هذه الفتاة » ( و اشار اليك )  
فقلت له « هل هو سرا اعتراف » قال « نعم » فقلت « لا سبيل اذاً الى كشفني ولكنني  
اود ان اعرف موضوعه بحيث لا يكون في ذلك ما يعدّه اباحة » فتردد كثيراً قبل ان  
اجابني ثم قال لي « ان هذه الفتاة التي تراها مع هذه المرأة هي ابنتها واهل دمشق يظنون  
هذا الرجل والدها وهو ليس والدها » فقلت « ومن هو والدها اذاً » قال « لا استطيع  
كشف هذا السر الا ان ولكنه سيظهر بعد قليل لان المرأة منطلقة بنسبها لكشفه  
امرها لاصحاب الشأن في يثرب ( المدينة ) لان والد الفتاة الحنفي هو احد كبار المسلمين  
هناك . . . »

فبغمت اساءة وخنق قلبها فصعد الدم الى وجهها فتورد بالرغم عن وضعها وتطاولت  
بعنتها لسباع الحديث . فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهنة « وما هو اسمة »

قال « لا اعلم يا ابني ولم أسأل النسيب عنه لعلمي انه لا يروح به حفظاً لسر الاعراف فالذي فهمت ان والدك الحقيقي انا هو من كبار المسلمين في يثرب »  
 فهبت وقد عاد لونها الى الاصفرار للبهتة وتأثراً ثم قالت « ولكن كيف يمكن ان يكون ذلك واما لا اعرف يثرب قبل هذه المرة ولم اسمع به الدقي تذكرها »  
 قال « علمت يا ابني ان والدك كانت تبائع في اخفاء هذا الامر عن كل انسان لانها رومانية الاصل حملها بعض قواد المسلمين الذين فعلوا الشام في جملة السبايا واعداءها الى والدك فكتبت عدة بضع ليلال ثم قدم عليها اخوها ( خالك ) خلسة وحرصها على الفرار ففرت الى دمشق ولم تستطع الظهور خوفاً من العيون فبعت مصر . فظهر حملها هناك وقبل ان تضعك التهمت النسيب مرقس وكان في كيسة المعلقة بمصر بوشة وكانت تعرفه منذ كان في الشام وبنت له هذا السر واخبرته عن والدك . ثم جرت الحروب بمصر ففجها العرب وقتل خالك ووقعت والدك في جملة السبايا ثانية وانت طفلة فتزوجها يزيد الذي تعرفه واقام بها في دمشق وانت معها . فلا تعجبى لاغتيال والدك وذكر والدك الحقيقي لانها كانت تعتبر نفسها مجرمة وتغشى اذا عرف مكانها ان يقتص منها »

ولم يتم الرئيس كلامه حتى استولت البغضة على اسما . وتولتها الدهشة ولبنت صامتة وهي لا تزال ترجوان يكون الرئيس عارفاً اسم والدها فتولت الرو ثانية ان يخبرها به . فاكد لها انه لا يعرف اسمه ثم قال « اذا لبنت النسيب مرقس في دمشق بطلمك عليه وربما اطلمك على امور كثيرة نفيدك فاسرعني اليو حال شناتك قبل ان ينقضي اجلة لانه شيخ طاعن في السن . انظري الى شجوختي واعلمي اني اذا قيمت الاعمار بالاجيال كنت اصغر من اولاده »

وكانت اسما قد تعبت من الجلوس فلما تبست من استطلاع اسم والدها من الرئيس زاد تعبها فالتفت نفسها على الفراش وتهدت تنهداً عميقاً وهي صامتة تفكر في ما سمعته واشتاقته نفسها للسير الى دمشق لعلمها تلافي النسيب فيقص عليها الخبر . على انها علمت ان والدها بعض كبار المسلمين فاخذت تفكر في من عسى ان يكون وهل هو حي او ميت فاستفرقت في مثل هذه الملاجس . ولما رآها الرئيس مستفرقة ظنها نزل الى الرقاد فخرج وتركها فنامت ولا تمل عن احلامها المرعبة

## الفصل الثالث والستون

## ﴿ حملة علي ﴾

قضت أسماء في ذلك الدبر اباناً وهي تنقلب على فراش الوجع وهو اجسامها تتعاضل لا تدري اذا شغيت سيراً الى دمشق لمقابلة الفميس مرقس ام الى ام المؤمنين لانقاذ مهمتها . وكانت تمرر لانجاسها في الدبر بالرغم عنها فلم تكذ تستطيع الوقوف حتى صارت تشدد وتخرج الى فناء الدبر تمرن نفسها على المشي

وصعدت ذات يوم الى سطح الدبر فاطلمت منه على سهل واسع رأت في آخره ما يلي البصرة معسكراً فيه الخيام والاعلام وحوله الجبال ترمي في بعض المغارس ومعها العبيد . فعلت انه معسكر ام المؤمنين في صاحبة البصرة وكان الوقت اصيلاً فجمعت تفكر في ما تنوي من مخاطبة ام المؤمنين وما تتوقع ان تسمعه من دفاعها وبمبي الاجوبة اللازمة . وما زالت غارقة في مثل هذه الهواجس حتى مالت الشمس الى المغرب فاجتذب بصرها نحوها وقد تعاضل جرمها وتكورت ومالت الى الاحمرار شأماً قبل الغيب . فانشغلت بالنظر الى الافق والتبعت بذلك المنظر البديع وقد نسيت موقفها . ولم تكذ تغيب الشمس حتى احسنت اسماء بالبرد فقولت تنفس الدفء في الفراش فاسرعت اليه مخافة ان يضر البرد بها

فباتت تلك الليلة وهي تتوقع ان تصبح نائمة فتتنظر في ما اذا كانت تسير الى معسكر ام المؤمنين ام الى الشام

فلما اصبحت شعرت بانعاش ولكن الضعف مازال يمنعها عن السير وخصوصاً على الجبل او الجواد . فلم تر بداً من الاصطبار ربنا يتم لام المرح وثنوقه قليلاً فالتصت من رئيس الدبر ان يأذن لها في الخروج للرياضة في بساين الديز فاذن لها فخرجت وحدها الى البستان ثمشي الهويناء فاجتهدت عن الدبر مسافة طويلة وهي لا تدري فانكشف لها من الافق قسم كان مستتراً وراء التلال فرأت فيه خياماً واعلاماً وجمالاً وعبيداً ولم تكذ تنفوس في ذلك المجمع العظيم حتى علمت انه معسكر الامام علي ففتقت قلبها ومشت قليلاً حتى دنت من اكمة صعدت اليها وجعلت

تأمله ونفسها تحديها بالذهاب اليو لعلها ترى محمداً فيو او تسع شيئاً عن خبره على  
 انها تشاءت من قدوم جيش الامام لانه بدل على اقتراب الحرب  
 وفيها هي غارقة في هذه الافكار سمعت صوتاً يجر جلاً على مفرة منها . فالتفتت  
 فذا ببعير سائب يعدو ورجل برقص في انزع يستجد الناس ليماعدوه في القبض  
 عليو . فلم يبع اساء الكوت مع ضعنها فاعترضت الجميل وهوئت طيو لوزجع وكان  
 قد جمع فلا بردة، نهوم فظل مسرط في سيلو فاغناظت لدم اكثرانو بنهوما  
 فركضت اليو وتعلت بعنو لانه لم يكن له رسن فظل راقصاً واساء ممسكة عفة  
 مكنتا ذراعها كاتها تملق للصعود الى ظهري . ولكنها ما لبثت ان شعرت بخوار قواها  
 واحست كأن شيئاً نزل في مكان المرح فعاتت ان المرح قد انتح وانشد بها  
 الام حتى لم تعد تستطيع صراً طيو وكان البعير في اثناء ذلك قد دخلت سرعته  
 فادركها صاحبة واسك بعنو حتى اناخه فمقطت اساء الى الارض لاني من شدة الام  
 وكان صاحب البعير شاباً من عبد القيس وهي من جملة القبائل التي اتحدت  
 علياً (١) وجاءت معه للحرب . فلما رأى اساء ساعدته في القبض على بيوت ثم رأى  
 ما اتم بها من التعب حتى سقطت خائز القوي شعر انه السبب في ما اصابها فدنا  
 منها واجلسها وقد بهر جمالها واعجبته هبتها فكلمها فأفانت ويدها ضاغطة على جنبها  
 تنقي الام . ولما رأت ذلك الغريب يجانها طعت انه صاحب البعير . اما هو فحالما  
 نظرت اليو هاب عينها ورأى فيها هبة اوقفته عند حثري وربما كانت نفسة تحدة  
 بشيء فلم يستطع الا تلطف ما بها والاعتذار عما اصابها بسببو  
 اما هي فقبضت واغتيمت تلك الفرصة لاستطلاع حقيقة ذلك الجند فقالت له  
 « من انت »

قال « من عبد القيس »

قالت ومن هم هؤلاء الجند الذين ترام امامنا

قال اما سمعت بما قام بين الامام علي وام المؤمنين

قالت سمعت وطلعت وهل هذا الجند هو جند الامام علي

قال نعم ونحن في مجدوتو لاعتقادنا فضله على سائر الناس

قالت وكم هو عدد رجاله

قال عشرون ألفاً بين راجل وفارس (١)

قالت اتعلم عدد جندهم المؤمنين

قال اظنهم ثلاثين ألفاً (٢)

فبهتت وهي تفكر في الفرق بين المجيشين والالم يشغلها عن ذلك حتى كاد يمنعها عن الكلام على انها تشددت وقالت ولئن نظن الغلبة منها فابنم الشاب وقال لا حاجة بنا الى هذا الظن والامر قد قضى بالامس قالت وماذا تعني

قال لقد تمّ الصلح وانصرف العداة

فبهتت اسماة ولم تصدق مقالة فقالت « وكيف ذلك اصدقني الخبر » وشعرت منذ سمعت خبر الصلح بنشاط ساعدها على النهوض فنهضت وهي تخاطب الرجل حتى جلست على حجر تحت شجرة وأسندت ظهرها اليها وضغطت الجرح بكنها فوق اثوابها فأراد الرجل ان يشرح لها اصل العداة اظنوا انها خالية الذهن من خبره فابتنرته قائلة لا تشرح النصبة فاني اعلمها ولكن اخبرني كيف تداعوا الى الصلح

فعجب الرجل لاطلاع اسماة وودان يعرف من هي ولكنها اجابها على سؤالها قائلاً : ان جيشنا وصل الى هذا المكان بالامس فلما تقابل المجيشان خرج من جيش ام المؤمنين طلحة والزبير على فرسيهما يلتصقان البراز فخرج اليها الامام علي حتى اختلفت اعناق دوليهم ونحن نتنظر عاقبة ذلك الملتقى لانه سيكون قاضياً اما علينا واما لنا فنجاولو مله ونحن ننظر اليهم لنرى ما يبدو منهم من براز او نحو . فاذا هم وقوف يخاطبون وعلينا بعد رجوع الامام انه لما لقيها قال لها « لعبري قد اعددتنا سلاحاً وخيلاً ورجالاً ان كنا اعددتنا عند الله عذراً فانقيا الله ولا نكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . ألم اكن اخاكما في دينكما تجرمان دمي واحرم دمكما فهل من حدث احل لكما دمي » فقال طلحة « اليمت على عثمان » قال علي « بوشد بوفيهم الله دينهم الحق يا طلحة تطلب بدم عثمان فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة اجئت بعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم تقائل بها وخيأت عرسك في البيت اما بايعني » قال « بايعنك

والسيف على عتقي» فقال علي للزبير « يا زبير ما اخرجك » قال « انت ولا اراك لهذا الامر اهلاً ولا اولى يومئذ » فقال له علي « الست له اهلاً بعد عثمان قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا » وذكره اشياء وقال له « أذكر يوم مرتت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر اليّ فضحك وضحكت اليه فقلت له لا يدع ابن ابي طالب زهوه فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بهز لنفائنه وانت ظالم له » قال الزبير « اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا والله لا افانك ابدأ » (١)

وهكذا عاد الامام الربنا بالخير وتوسمنا خيراً من ندم اولئك على عملهم . ثم علمنا ان الزبير لما رجع من ساحة البراز سار نوا الى ام المؤمنين فقال لها « ما كنت في موطن منذ علمت الا وانا اعرف فيه امري غير موطني هذا » فقالت له « ما تريد ان تصنع » قال « اريد ان ادعهم واذهب » فوجّهت ابنة عبد الله وقال « سمعت بين هاتين اليتيمتين حتى اذا حدد بعضهم لبعضهم اردت ان تتركهم وتذهب ولكنك خشيت رايات ابن ابي طالب وصلت انها تحملها فتية انجاد وان نحمها الموت الاحمر فغنت » فاعتذر الزبير انه حلف ان لا يقاتل علياً . ثم تفاوضوا بعد ذلك مع طلحة وغيره فتم الاتفاق على الصلح وبنوا ليلتنا البارحة والقلوب هادئة وكل فرح بما حجب من دماء المسلمين فلما سمعت اسماء كلام الرجل اشرق وجهها وبرقت اسرّها ونسيت ألمها وضعتها وقالت « بشرك الله بالخبر يا اخا عبد القوس » وازادت الاستفهام عن محمد ومقامه فقالت « وهل جاء اهل الكوفة لنصرة الامام »

قال لقد جاءوا بعد ان ترددوا كثيراً

قالت كيف يترددون عن نجدة امير المؤمنين

قال : ذهب اليهم اولاً محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر فلقيها ابا موسى الاشعري عامل الكوفة فكلماهم ففضل القعود على المسير فعاد محمد ومحمد الى الامام فأرسل الاشتر وابن عباس فعادا ولم ينالا وطراً . فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر فجاءوا الكوفة وكانت عائشة قد ارسلت رسلها تدعو الناس الى عجبتها . وظل ابو موسى يمرض الكوفيين على القعود فلا يسبرون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء . فجاد لهم الحسن حتى

اقنعهم ان يقوموا لنصرة امير المؤمنين فجاهه منهم تسعة آلاف  
 فأدرت اسباه من خلال ذلك ان محمداً في معسكر الامام عليّ وكانت قد  
 نعتت من الجلوس على الحجر فنهضت تلتبس الدبر للداواة الجرح لانها شعرت وهي  
 قابضة عليه ان الدم يسيل منه . فأحسّ الرجل برادها فأراد مصادتها بالمشي  
 فأبت فرافقتها حتى دنت من الدبر فودعها وخرج يجملها يطلب المعسكر  
 اما هي فالتفت الغرفة فلتبها الرئيس عند الباب فسالها عن حالها فنصت عليه  
 حديث الجمل ووقوعها فهمّ الى الجرح فاعاد ضاده وبشرها بان لاخوف منه فلبت  
 تنكر بما سمعته وكانت كلما تصورت وقوع الصلح يكاد قلبها يطير فرحاً لتخلصها من  
 مصائب كثيرة وحجب دماء الناس على انها كانت وهي في وسط هذه المرات اذا  
 تذكرت ما سمعته من الرئيس عن والدها انقبضت نفسها مخافة ان يضع خبره فصصت  
 انها حالما تستطيع الركوب تسافر الى دمشق فاذا تحققت من هو والدها علمت  
 مدخلها ومخرجها

## الفصل الرابع والستون

### ﴿ الحرب ﴾

ففضت أياماً وهي تتوقع في كل يوم ان ترى محمداً آتياً لمشاهدتها في  
 الدبر لعلها ان مسعوداً لا بد من ان يخبر بها اصاها فكيف يقم على مقربة منها  
 ولا يسأل عنها فلما مضت ايام ولم يأت ايئنت ان مسعوداً لم يره بعدداه من الدبر  
 فهو لا يعلم مقرها . وكان الجرح قد لأم فلم تر بداً من ملاقاته محمد لتخبر بعزها  
 على دمشق وتستعينه في دأته تركبها وخادم يسير في ركبها . ولكنها تذكرت  
 الحمن وما لحظت منه يوم كانت في المدينة فخافت ان لا يرضى محمد بذهاها الى  
 المعسكر فعولت على استقدامها اليها فكاتبته بطاقة بهذا الشأن واستأذنت رئيس الدبر  
 في ارسال بعض خدمته اليها فانذرها فبعثت احدهم وأفهمته كيف يسير والى من  
 يسلم الورقة ودلتها على الجهة التي يلاقي فيها جيش الامام علي

فخرج وجلست هي في فراشها تنظر رجوعه ومعه معه . وكلما تصورت لقاءها  
معمداً اختلج قلبها في صدرها وأعدت عبارات تخاطبه بها تسفر عما في نفسها وقد  
هما من هذا الصالح انقضاء تأجل الاقتران فأخذت تعد نفسها بالمعاداة المستقبلة  
وخصوصاً اذا عرفت والدها الحقيقى

قضت ساعة وبعض الساعة في مثل هذه المواقف وهي كلما سمعت سمعاً  
رجل او وقع أقدام او جمجمة بعير او سهيل فرس ظنت رسولها عائداً ومعه محمد .  
ولم تعد تستطيع صبراً على الانتظار فصعدت الى سطح الدبر تستطلع قدومه عن  
بعد ولم تكده تخطوخطوتين فوق السطح حتى رأت رسولها راجعاً بعدو وابتنت وراءه  
فانشغل خاطرهما ولبت تنظر وصوله فما عتم ان وصل وهو يلهث من شدة الجري .  
فقالت ما وراءك

قال خرجت من الدبر في الجهة التي رسمتها لي فما وصلت المكان حتى رأيت  
النبال تنطابى في الجوف فلما اشرفت على المعسكر رأيت الحرب مخدمه . . . .  
فبغيت اسماً وقطعت كلامه قائلة « الحرب . . . بين من ومن »  
قال سألت بعض العبيد من كانوا يلنقلون النبال المتساقطة وهو خارج المعسكر  
فاخبرني ان الحرب اتشبت بين الامام علي وعائشة وكانوا قد ابرموا صلحاً فنقضوا  
قالت لا حول ولا قوة الا بالله ومن ناضه . . . ؟  
قال لا ادري ولكن العبد اخبرني انهم بانوا على صلح فاصبحوا فاذا بجيش عائشة  
على الحرب

فقالت لم تلق معمداً

قال وكيف اللقاء وانا لم استطع الدنو من المعركة مخافة ان تصيبني النبال فاموت  
ولا يبقى من يرجع اليك بالخبر . فثارت الحمية في رأس اسما . ولم تر بداً من العدول  
عن دمشق الى معسكر ام المؤمنين لتخاطبها بالرجوع الى الصلح قبل ان يتفاقم الخطب  
فما لت رئيس الدبر عن دابة تركها فقال ان خادمك الأول ترك هنا جملك  
الذي جئت عليه

قالت اين هو . فامر الرئيس باعداده للركوب وخرجت اسما الى غرفتها فهدلت  
ثيابها على كيفية تشبه بها ثياب الرجال وشدت وسطها بمنطقة عريضة والتفت بعباءة

وغطت رأسها بكوفية ونفلدت حساماً كان قد اعطاها اياه محمد يوم سفرها مع مسعود وركبت الجمل وولت وجهها معسكرام المؤمنين وكان الوقت ضحياً وهي لهيئتها لم تودع الرئيس حتى اذا بعدت عن الدبر تذكرت ذلك فالتفتت اليه وأشارت بالسلام بيدها ورأسها . ولم تبعد عن الدبر قليلاً حتى أطلقت على المعركة فرأت السهام تطير من كل جانب حتى كادت تحجب اشعة الشمس بدلاً من الغبار لان الجو كان قد امطر في ذلك الصباح فياسك التراب . ووقفت هنيئة ريثما تعرف الطريق الذي يؤدي الى ام المؤمنين . فرأت الرجال يهرعون ميماً وشالاً وفيهم المشاة والفرسان وسمعت النساء من وراء المجمع يخرسن الرجال على الثبات . وكان الجو صافياً لا غبار فيه فكانت اذا تفرست في الرجال عرفتهم فرداً فرداً فجمعت تنفوس بالفرسان عساها ان ترى محمداً فلم تره ولكنها ادركت ان النصر للامام علي لانها رأت رجاله يتقدمون واولئك ينثرون بعثر بعضهم يبعث بعض وهم بين جريح وقبيل فتنظر قلبها . فاجالت ببصرها لعلمها ترى فسطاط عائشة لتسرع اليها وتخطبها في الكف عن القتال فلحقت مروان بن الحكم على فرسه يتعقب فارساً آخر علمت انه طلحة وقد رماه مروان بسهم في رجله فشكها في صفحة الفرس (١) ثم رأت طلحة جول عنان جواده نحو البصرة وترك الجيوشين يقتتلان فعلمت انه انما ذهب اليها لجرح . بايغ اصابه فتأكدت فشل جند مكة ولكنها عجبت لما فعله مروان بطلحة وهما من جنده واحد . على انها اولت فعله الى طمعه بالخلافة لبني امية لزعموا انها اذا خرجت من يد الامام علي وكان طلحة حياً طمع هو بها وربما طمع بها الزبير واما اذا قتل هذان فلا يبي من يطالب بها فتبقى في بني امية

## الفصل الخامس والستون

### ﴿ هودج ام المؤمنين ﴾

وقفا هي تتأمل في حركات الجيوشين وتسمع ضجيج الناس ومقارعة السيوف

والرماح وصهيل الجمل رأيت في معسكرام المؤمنين فسطاطاً كبيراً علمت انه فسطاط عائشة ولكنهما لم يراهما حولاً فارتابت في امر ثم لمحت جمعاً منكائفاً حول هودج فوق بعير فعلت من لون الهودج وشكله انه هودج ام المؤمنين فسافت جعلها نحو . فلم يسعها في الجري فرأت فرساً نائماً خارج المعركة وقد قتل صاحبه فاسرعت اليه وتحولت عن الجمل وركبته وسارت باسرع من لمح البصر تاتس الهودج ولم تكد تصل المعركة حتى رأته فارساً خارجاً عنها يطلب عرض البر لا يلتفت وراءه وعرفت انه الزبير فتذكرت انه اقسم ان لا يجاربها عاباً فقالت في نفسها ها قد فر الزبيران ولا اخال ام المؤمنين اذا علمت ذلك الا امره بالكف عن القتال . فاسرعت في وسط المعركة لا تبالي بما يتساقط عليها من النبال او يعترض فرسها من جيش القتيلى والجرحى ولم تدن من الهودج حتى سمعت ام المؤمنين تصيح بصوتها الجمهوري وتنادي احد رجالها وقد مدت يدها من الهودج وفيها مصحف وهي تقول « اليك يا كعب ادع الناس الى هذا المصحف » فلم يكد الرجل يتناوله حتى اصيب بنيل فقتل . وكانت اسماء قد وصلت الى الهودج فرأت الرجال حائمين حول عائشة تقول « ايها الناس العنوا قتلة عثمان واسماعيل »<sup>(١)</sup>

فترجمت اسماء واقبلت الى الجمل فرأت الهودج قد اصبح كالقنفذ لكثرة ما غرس فيه من السهام المتساقطة وارادت التسلق على الجمل لتلقي عائشة في الهودج فاعترضها بعض الرجال فاذاحت اللثام ونادت ام المؤمنين فعرفت صوتها فاذاحت لها فقال قائل من الوقوف « هي انا اذنا لك بالصعود على الجمل تسلقاً فهل تستطعين ذلك » فتذكرت ما اصابها من تساقط جمل الامس فعادت الى فرسها واتصلت منه الى الهودج . فتعجبت ام المؤمنين لوجودها هناك بغنة . اما اسماء فتراحت عند قدمي ام المؤمنين وهي تقول والدمع ملء عينها « اشقني يا اسماء على اولادك احببي دماءهم ارحمني رجالاً يوحدون الله . لقد كفى ما اصابهم من البلاء مري بالكف عن القتال ان السلام بين شفتيك وانت ام المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . واطي ان طلحة والزبير اللذين اضرما نار هذه الحرب قد فرأ من المعركة . مري بالله مري رجالك بالكف والتعود . انهضي واطي على الجندين وانظري القتيلى في الجبابين »

وكانت اسماة تشكك بمخسوع وتذلل وهي جانية عند قديمي عائشة . وكانت عائشة في معظم الأثر لاتملك وقتنا للنظر في الامر والناس حول مودحتها بتلون ما يتساقط عليه من السهام حتى قُتل عند خدام الجمل بين واربعون رجلاً . مضرت الى اسماة . وقد اثر فيها كلامها مع ما نوسنته من قتل جندها وقالت : لندكا على موعده من الصلح فلا تدري ما حملهم على تفصؤ

قالت « وم يزعمون انكم اسم الناقضون »

قالت بل م لاننا بننا مصالحين فاصبحنا وانام على قتالنا

فقالته اسماة يظهر ان في الامر دسيسة فاعل بعض الاعتداء سعي فسادا فرمى الشقاق بينكم وعلى كل حال ان الصلح قريب وحجب الدماء سهل عليك بكفؤ كلمة منك

قالت وقد ملئت الجمدال « لند قضي الامر ولم بعد الرجوع ممكنا فلا تنسني ذلك مني » قالت ذلك وفي نعمة كلامها وملاحتها ما يزرع اسماة عن البحث في هذا الموضوع . فصنعت وعادت عائشة الى استنهاض القبائل للدفاع حتى اصبح كل من بقي من رجالها يدافعون عن جملها

وودت اسماة التزول من المودج ولكنها لم تجسر عليه تهيئا من عائشة . ثم سمعت صوت علي يقول « اعفروا الجمل فانه ان عفر نفرقوا » ولم يكذبتم امرة حتى احسنت اسماة بسقوط الجمل وهو يبعث من الالم فعلت انهم عفرو فهدت بالخروج من المودج ولكنها اطلت قبل ذلك فرأت كل من كان حوله من الرجال نفرقوا وعلي يقول لرجالها « ارسلوا من ينادي في الناس الا يتبعوا مدرأ ولا يجهزوا على جريح ولا يدخلوا الدور » . ثم قال احلوا هذا المودج من بين القتلى فعملوه وهي لاتزال فيومع ام المؤمنين وام المؤمنين غافلة عنها لعظم ما الم بها . وكانت اسماة تنظر اليها وهي هائبة التكم معها ختية ان تسمع انها راها وربما لاتدعج جوابا . ثم سمعت عليا يقول « يا محمد يا ان ابي بكر اضرب على اخذك قبة وانظر هل وصل اليها شيء من جراحة »

فلما سمعت اسماة ذكر محمد وما امرة بو علي لبثت تنتظر ان تراه مطلقا من المودج . اما هو فلما ادخل راسه في المودج ورأى اسماة مع اختها اندهل واكتفه لم يكذب

يتكلم حتى سمع اخته تقول « من انت »

قال « اخوك »

قالت « الحمد لله الذي عافاك »

واشار محمد الى اسماء ان تخرج فخرجت ونظرت الى ما حولها فرأت الارض قد  
خلت من الناس غير من قتل او قُطعت رجله او جرح جرحاً بليغاً فلا يستطيع  
المسير . وسمعت عيين المجرحي ورأت الدم جارياً اقية والخيل والنوق سارحة بعضها  
يعرج وبعضها يعرج من الجراح ورأت في بعض تلك الدواب سهاماً لاتزال مغروسة  
في رقابها او اعجازها وكان المنظر بالجملة رهيباً مخزناً لم يكن أكثر منه تأثراً . وفيما  
هي تنظر في ذلك رأَت علياً دنأ من هودج ام المؤمنين وقال « كيف انت يا امه »  
قالت « بخير »

قال « بفراثة لك »

قالت « ولك »

ثم امر اخاها ان يدخل بها البصرة ريثما تسريح  
وفيما هو يتكلم رأت اسماء واقفة فعرفها . فلما رأته هي ينظر اليها همت بيده فقبلتها  
وعلمها البتة فقال اهلاً بك ابن كنت يا اسماء .

فسمع علي عانسة تقول من داخل المودج « احتفظوا بهذه الفتاة فوالله اني  
ما رأيت أكثر غيرة منها على الاسلام ولا اصدق لهجة في الدفاع عن الحق وهي انما  
خاطرت بجماعتها واتني تحت النبال المتساقطة تلمس الكف عن القتال »

فخجلت اسماء لهذا الاطراء . واطرقت فقال « علي بورك فيك يا بنته اني نوسمت  
فيك هذا الخبر منذ رأيتك للمرة الاولى . تعالي »

فسار وسارت في اثر وهي مطرقة وعلي يستغل بتدبير المجرحي والتتلي فأمر  
الناس ان يدفنوا قتلاهم . ثم علم ان طلحة والزبير قتلأ فاغبرته اسماء عما رأته من  
مروان . فقال « لا تنجبي من كان سبب هذه الفتنة ان يفعل مثل ذلك »

وظلوا سائرين الى البصرة حتى دخلوها فنزل علي في دار العامل بقرب المسجد  
وتواردت الناس لمبايعته وقد سلم الامر له وخلا له الجو

ونزلت اسماء في تلك النار مع بعض النسوة من جنن مع الامام وقد عرفتهن

اثناء اقامتها في المدينة . وظلّت ابانها تحاول ان ترى محمداً بعد هذه الحرب  
وعلّيّ يشغلها باختصاص المؤمنين فلم يكن يستطاع التخلي عنها فادركت اسماء ذلك  
فسارت هي شخصاً بحجة زيارة عائشة

فلما التقيا ارادت ان تعرف سبب تخلفه عن زيارتها مع علمها انها كانت جريئة في  
الدبر فاستغرب قولها وأكد لها انه لم يكن يعرف عنها شيئاً لان مسعوداً لم يعد اليه  
وهو لا يعرف مقرّه الى ذلك الحين . فترجح لديها انه قتل في طريقه الى الكوفة فاسأنا  
عليه كثيراً . وسكتنا هنيهة ثم قال محمداً قد انتقضت الحرب واتصر الامام  
والحمد لله وأن لنا السكون والاجتماع

فسكتت اسماء لما وراء كلامه من الاشارة الى الزواج وغيرت الموضوع فقالت  
ولكنني على اهبة السفر الى الشام

قال ولماذا

قالت لأسأل عن والدي الحنفي

قال وكيف ذلك ومن ينجبرك عنه

فقصت عليه خبر رئيس الدبر مختصراً فغضب وانذهل واصبح اكثر اشفاقاً لمعرفة  
والدها منها وارتنع مقامها في عينيه لما علم انها ابنة بعض كبار الصحابة في المدينة فقال  
لها لا يبعد ان تكون بيننا قرابة قبل القرابة التي نسي اليها اليوم  
فغجلت ثانية وارادت تغيير الحديث فقالت وكيف ام المؤمنين

قال هي في خير وقد أمرني الامام باعداد ما يلزم لسفرها الى مكة وها اني اعد  
ذلك وقد جهزت لها اربعين امرأة من نساء البصر المعروفات ليسرن معها فاذا  
سافرت عدنا الى ما يدعوننا اليه القلب على قولك . . . فغجلت

ولم يتم كلامه حتى رأى الناس في هرج وم يبولون « جاء امير المؤمنين » .  
ثم وصل عليّ وكانت عائشة قد نهيات للسفر واعدت لها المودج وجاء الناس لوداعها  
فخرجت لوداعهم فلما رأت علياً قالت وهي تنظر الى الناس « يا بني لا يعتب بعضنا  
على بعض انه والله ما كان بيني وبين علي في القدم الا ما يكون بين المرأة وبين  
اجسامها وانه على معي لمن الاخيار »<sup>(١)</sup>

فقال عليّ « صدقت والله ما كان بيبي وبينها الا ذاك وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » وودعها من بيبي من الناس ثم قال عليّ لعبد « سر يا محمد مع اخحك الى مكة »  
 فلما سمعت اسماء هذا الامر اضطرب قلبها ونفارت الى محمد ونظروا اليها فنهى كل منها ما في ذهن الآخر

## افصل العادس والستون

### في الخطبة

وكان الحسن قد جاء مع والده لوداع ام المؤمنين فرأى اسماء وقد علم بما اظهرته من العيرة على الاسلام فازداد حبه لها وصبر على خطبتها وهو لا يعلم ما بينها وبين محمد . ثم علم ان والده عازم على الكوفة لاخذ البيعة هناك كما اخذها في البصرة

وكانت اسماء لما فرغت من وداع محمد عادت الى عزمها على الشام للملاقاة التمس مرقس وسؤاله عن والدها وقد اصبح هذا الامر شغلها الشاغل . فانت طراً بعد سر محمد تودعه وتحدث به بعزمها وتساءله رقيقاً ودابة فلم تلك فرصة لانشغالها بين يدي عليو من المبايعين والمشيرين حتى اذا اراد الكوفة سارت هي اليها في جملة السائرين

وقضت في الكوفة اياماً كما بها على حجر الفضي حتى اصحبت يوماً وقد مات الانتظار فموتت على الاستئذان في السر فسالت عن علي فقبل لما انه في مجلسه وحده فاستأذنت في الدخول عليو فاذن لها فدخلت فانا هو جالس في قاعة واسعة ليس فيها احد سواه . فلما رآها هتفت لها ورحب بها فهمت بتقبيل يده وهي تقول « محمد الله على ما اولانا من نعمو في احقاق الحق ونشكره على ما اولاك من النصر »

فتهد وقال « قد كنت اود ان تنتهي الفتنة ولا يسفك فيها دم ولكنها ابنت ان تنام الا على فراش من الدماء » قال ذلك وسكت هتفة ثم قال « وكنت

عازماً على استفدائك التي لا شكرك على سعيك في هذا الامر فقد سمعت فيو  
سعباً حميداً «

فأطرت ولم تجب

فقال لها « ولنا فوق ذلك اقتراح نعرضه عليك عما إذا نال وقماً حسناً »  
فقلت « اني امة اذا أمرت اطاعت »

فقال « انا نودُ استيفاءك عندنا فتكونين بمنزلة ولدنا »

فأدرت اسما ما وراء ذلك فأجملت مخافة ان يصح ظنها باقتراحه لعلها بما  
في نفس الحسن ولكنها لم تستطع غير اظهار الاستحسان فقالت « اني احقر من ان  
احظى بهذا الشرف العظيم »

قال « لا بل انت اهل لأفضل منه ولا اخفي عليك ان ولدي الحسن رابع  
فيك لما آتت من غيرتك على الاسلام ورجعتك في اعلاء كلمته فهل ترضين  
به خاطباً »

فلما تحققت ظنها لم تستطع اخفاء عواطفها بما ظهر على وجوها من الاحمرار  
السريع ولكنها تجللت وقالت وهي تظهر الامتنان « اني لا اصدق هذا الاكرام  
با مولاي لانه فوق ما نتوقه فتاة بجمه غريبة مثلي . كيف لا وفيو الثقب من اعظم  
رجال هذه الامة وابن عم النبي ( صلعم ) . ولكنني انما جئت الى مولاي الامام الآن  
في أمر هنيئ كثيراً وهو يدعوني الى سفر قريب لا أرى منه بدءاً فجمت لاستأذن  
امير المؤمنين بشأنه »

قال وما ذلك

فالت « لا اظن مولاي ابا الحسن يجهل حال والدي يوم قدمها المدينة وما  
ظناً ننسا فقدناه بوقاتها من السر »

قال « لا اجمله »

فالت « وهل تجهل يا - يدي ان يزيد الذي كان معنا في ذلك اليوم المشوم  
ليس والدي الحنفي »

قال « ظننت ذلك فيو مذ رأيتك ثم سمعت انه ليس والدك »

فالت « وكنت انا ايضاً عالمة بذلك من والدي فقد اخبرني انه ليس والدي

وأبها سحبري عن والدي الحنفي عند وصولنا المدينة ففضى الله بوقاها قبل وصولنا  
 وإسماها عليها (وتهدت) فطانت خبر والدي عدم من الوجود فأسفت وبكيت  
 ولكن التقادير ساقني بالاسم الى درجوار البصرة بعد جرح اصابعي في اثناء سفري  
 فأظمت فيو اباناً اعالج المرح فرأيت هناك راهباً شجاعاً عرفني وعرفته وكنت قد  
 رأيت في كيسة دمشق قبل سفري فأخبرني خبراً اعاداني آمالي بالاطلاع على كه  
 ذلك السر «

فقال علي\* « وهل اخبرك عن والدك »

قالت كلاً يا مولاي ولكنه اخبرني ان قيس كيسة دمشق يعرفه لان والدي  
 اعترفت له بو دون سواه « ثم قصت اسماها ما اخبرها بو رئيس الدر بتفاصيله  
 ولم تكذ ثم كلامها حتى ظهر الاستغراب والدهشة على وجه الامام لتولما ان  
 والدها من كبار المسلمين في المدينة وان والدها جاءت المدينة للبحث عنه فقال  
 لها « الم يخبرك عن اسمو »

قالت « اياه بالثقة فعل ولكنه لا يعرف الاسم وهنا ما حملني على الاسراع  
 الى دمشق استطلع خبر والدي لاني مع ما نلت من التفات امر المؤمنين وما اصبحت  
 من الحفاوة في عينيو وعيني ابنو لا ازال اشعر بئذ عظيم لضموض نسي فمساوي ان  
 ارفع عني هذا العار على يد ذلك القديس «

وفيما هي تكلم استأنف الحسن ودخل فوقفت له اسماها فسلم ونظر الى والدك فأس  
 في وجهه تغيراً وم ان بسأله فاذا هو قد اشار الى اسماها واليو بالجلوس وقال  
 « ان اسماها بابتي راضية فرحة ولكنها في شاعل جديدر فهي ذاهمة الى دمشق سريعاً  
 لتفتق نسها من قيس كيسة ماري بوحنا هناك اذ لا يخفى عليك ان يزداد الذي  
 زعم انه والدها ليس الا زوج والدها واما والدها الحنفي فلا يزال آمن مجهولاً «  
 فشق ذلك على الحسن وقال « ان البحث عن والدها واجب ولكنه لا بدعي  
 الى تأجيل الخطبة على ما اظن «

فقال « بلى انه يدعو الى ذلك لاسيا وقد فهمنا الآن ان والدها الحنفي احد  
 كبار الصحابة بالمدينة فما ادرانا انا كان بيننا وبينه ما يحرم الزواج من قرابة عصب  
 او رحم او رضاعة او غيرها فالأفضل بابتي ان نؤجل هذا الامر الى حين عودتها «

فسكت الحسن وسرت أسماء لتناصها مما كانت تتخوفه فأمر لها بهودج تسير فيه  
فناالت اني افضل ركوب الجواد . فأمر لها بجواد وخادم امين وقال لها تنتظرين  
قافلة سائقة من الكوفة الى الشام تسيرين برفقتها لان الطريق يعسر سلوكه على  
شخصين منفردين

قالت سأرى اصطباري . وودعته وخرجت وهي نود أن تعبر الى دمشق  
لمقابلة القيس وصمت في باطن سرها على الاسراع ما استطاعت لا تنتظر  
قافلة ولا ركبا

## الفصل السابع والستون

### ﴿ معاوية وعمرو بن العاص ﴾

كان معاوية في الشام كما علمت مخالفاً لعلي في خلافته ناقماً عليه وقد حرص  
اهل الشام على مطالبته بدم عثمان . فجعل قبيص عثمان هنا واصابع نائلة امرأتها علي  
المنبر بدمشق ينظرها الناس . فنار اهل الشام وانكروا مبايعة علي وبعث معاوية  
الى علي بالطومار كما تقدم وهو عازم على مقاومته ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وحدثته  
نفسه ان يلمس الخلافة ولكنه كان لا يزال يرى ذلك بعيداً حتى سمع بنقض طلحة  
والزبير ومسيرهما في اهل مكة الى البصرة . فقال لأصبرن حتى ارى ما يكون من  
عاقبة تلك الحرب فسمع بخروج علي من المدينة ووقعة الجمل ومقتل طلحة والزبير  
فعلم ان ليس ثمت من يطالب بالخلافة غيره

وكان عمرو بن العاص الفاتح الشهير فاتح مصر في اوائل الهجرة ومخرجها من  
ايدي الروم (سنة ٢٠ هـ) على عهد الامام عمر بن الخطاب — لما فتحها تولاهما هو  
واصلح شؤونها<sup>(١)</sup> فلما افضت الخلافة الى عثمان بن عفان وكان عثمان كما قد علمت  
من ايثاره ذوي قرابته في ولاية الاعمال فعزل عمرًا عن مصر وعهد بولايتهما الى اخيه  
من الرضاة عبد الله بن سعد فخرج عمرو ناقماً على عثمان وكان من دعاة العرب  
المشهورين . فلما كانت الفتنة وثار الناس على عثمان وجاء اهل الامصار الى المدينة

كان هو في جملة من تم عليه . ولكنه غادر المدينة قبل حصر وسار الى فلسطين وأقام فيها ينتظر ما يكون . فلما علم بمقتل عثمان قال « اني قتلته وانا في وادي السباع » وجعل يفكر في من يلي الخلافة بعده وسأه في علاقة ذلك بمصلحتهم فقال في نفسه « ان يل هذا الامر طلحة فهو فني العرب وان يلو ان ابي طالب فهو أكره من يليه الي » فلما بلغت ربيعة علي اشدت عليه الامر ولبت ينتظر ما يصنع الناس فبلغت سير أم المؤمنين وطلحة والزبير الى البصرة فاقام ينتظر ما يكون من امرهم . فجاء الخبر بوقعة الجمل وانتصار الامام علي فارحج عليه ووقع في حيرة . ثم بلغه ان معاوية في الشام لا يبايع علياً وأنه يعظم شأن عثمان وكان معاوية احب اليه من علي لانه ذاهية مثله . فاخذ ابيوه محمداً وعبد الله وسار الى دمشق واتفق مع معاوية على الطلب بدم عثمان ونفس عمرو طامحة الى مصر بمن اليها لانه فاتحها وكانت مصر يوشد على دعوة علي . وعمرو يعلم ان علياً لا يبولو اباها فلم ير خيراً من الاتناء الى معاوية لهذا الشأن فجعل يحرص اهل الشام على الطلب بدم عثمان ويقول لم « اتم على الحق اطالب بدم الخليفة المظلوم »<sup>(١)</sup>

## الفصل الثامن والستون

### ﴿ اسماء في دمشق ﴾

قضت اسماء اباناً في مسيرها من الكوفة الى دمشق ولم تصدق انها اشرفت على غوطتها المشهورة بالمخصب ونظرت الى دمشق عن بعد فاناها في منبسط من الارض تحف بها الحدائق الفناء والسيارين النخلاء وفيها اغراس المشمش واللوز والسنجل والنوخ والدراق واللجون وسائر انواع النفاكة وفيها الاعشاب والرياحين وكلها باقة تجري بينها جداول من الماء القراح . وكانت اسماء ملتفة بالعباءة والكوفة فوق جواد يسابق الريح ومعها الخادم على جواده فاقبلت على دمشق في الصباح وقد تعطر نسيها بشذا الازهار تحلله نغامت الاطيار فلم يشغلها ذلك كله عاقام في خاطرها من النوق للاطلاع على اصلها . فدخلت المدينة من باب الجماية بعد ان ترجلت

وامرت الخادم ان يسير في اثرها بالجوادين فمشت بعباها وكوفيتها تلتبس كيسة ماري  
يوحنا من اقرب الطرق وهي تعرف دمشق معرفة جيدة . وظلت ملتمة لئلا يراها احد من  
اهلها او جيرانها فيعرفها فيشغلها عما هي ساعية في طلبه . وخوفاً من ان ينتبه الناس  
لها اذا مشت والخادم والجوادان في اثرها امرت ان يتظرها في خان دلتة عليه وقالت  
له « امكث هناك حتى اعود اليك » فاطاعها

وظلت هي ساعية حتى دنت من الكنيسة فتذكرت ان هذه الكنيسة العظيمة  
المعروفة باسم القديس ماري يوحنا لما فتح المسلمون الشام اتخذوا نصفها الشرقي مسجداً  
يصلون فيه وتركوا النصف الآخر وهو الغربي للنصارى<sup>(١)</sup> وفصلوا بين التميمين  
بماجز . فالتصمت الباب المؤدي الى القسم الغربي وهي لا تزال بلباس السفر .  
فاستقبلها خادم الكنيسة واستغرب مجيئها بعد الفراغ من الصلاة فكلمها باللسان الرومي  
وكانت قد تعلمت من والدتها في حداتها فسالها عن غرضها فقالت انها تريد التمس  
مرقس فدعاها للاستراحة على منعد من رخام في صحن الكنيسة وسار للسؤال عن  
القسيس فلبت في انتظاره وهي تلهي نفسها بما هناك من فحامة البناء كالاعمدة الضخمة  
الشاهقة والنقش البديع من النسبساء وغيرها ناهيك عن الصور على الجدران  
والسقف في اشكال غريبة واللوان زاهية . ولم تكن تلك اول مرة دخلت هذه الكنيسة  
ولكن غرابة ذلك البناء وفحامته يستلفتان النظر ويشغلان البال  
فالبت الخادم ان عاد وهو يقول تنظلي الى غرفة الاستقبال فتقابلين الشمس  
وهو يجيبك على ما تريدن

فخرجت من الكنيسة الى دار في وسطها بركة من الرخام يتدفق منها الماء كسائر  
دور الشام فانصلت من الدار الى قاعة فخيمة استقبلها فيها شماس حالما وقع نظرها عليه  
تذكرت انها رآته يوم زارت الكنيسة مع والدتها قبل سفرها الى المدينة فاستأنست  
به وسألته عن القسيس مرقس فدعاها الى المجلس على بساط من الحجاج وبين يديهما  
بركة اخرى اصغر من بركة الدار والماء يسيل عن جوانبها الى قناة تحيط بها  
وتصرف من هناك . فلما جلست قال لها ان القسيس مرقس سافر منذ بضعة اشهر  
فاجنلت وقالت الى ابن

قال الى بيت المقدس

قالت ومتى يعود

قال لا ادري متى يعود لأن سزوه لم يكن لشغل خاص بالدير ولكنه خرج فراراً  
ما أفلت راحته من اصوات البكاء والعويل التي ترن في آذاننا كل يوم في القسم  
الأخر من هذه الكهنة

قالت وما هو هذا العويل وعلى من

قال ربما سمعت بمقتل الخليفة عثمان في يثرب فان بعض رجال حاكمنا معاوية  
جاء ببيصو المملوخ بالدم وإصابع امرأته التي قطعت وهي تدافع بيدها عنه ووضعوها  
على المنبر الذي يصلون فوقه وكلما اجتمعوا للصلاة وذكروا مقتل الخليفة يصيح الناس  
رجالاً ونساءً شيوخاً وأطفالاً ليكون وبولولون حتى تكاد تصم الآذان وتنتف  
القلوب . وكان ابونا القسيس في اثناء ذلك مريضاً مرض الشجوخة فزاده ذلك الحال  
ضعفاً فاشار عليه طبيباً ان يسافر الى القدس ينيم فيها ربنا تغير الحال فسار ولا  
نزال في انتظاره وقد بلغنا انه لا يزال مريضاً

فقالت ألا تدري متى يعود

قال كلاً واذا كنت تتردين خدمة فاننا نؤديها عنه

قالت « كلاً وانما غرضي يتعلق برأساً » وفكرت في ماذا تعمل هل تقيم هناك  
ربما يعود ام تخرج الى الخان . وفيها هي صائمة تنكر ابتدورها الشمس قائلاً اذا شئت  
ان تبيي ضيئة في هذه الدار ربنا يعود ابونا القسيس اقامت على الرحب والسعة  
فان عندنا نساء يقمن بمخدمتك . قال ذلك وصنق فجهاء الخادم فامر ان يدل اسماء  
على غرفة التسمية فصعد بها الى قاعة علوية فيها امرأة طاعنة في السن بلباس اسود  
وعليها حياة الكمال والوقار فنصت لها واستقبلتها واجلسها الى نافذة تعال على بعض  
ابنة دمشق وامرت لها بما تحتاج اليه من طعام ونحوه فاعتذرت انها لا تحتاج  
الى طعام

وجلست اسماء وقد استأنست بتلك المرأة ولكنها ما زالت متقبضة النفس من  
تعرفل مساعيتها بغياب القسيس ونهوت لشد كدرها ان ذلك التعرفل من نفس  
طالبها وخجل لها ان القسيس مرقس سموت في القدس لهفهو وشجوخته فيضيع السر

وتذهب آمالها إدراج الرياح . فخطر لها ان تذهب في اليه وتستطلع الشرق بل دنو  
اجلها وكانت تفكر في ذلك والتبسة تبالغ في ملاحظتها وتدعوها الى نزع العباءة  
والكوفية وهي تمنع

## الفصل التاسع والستون

### ﴿ القميص والاصابع ﴾

ودنا وقت الظهر فخرجت التسمية للصلاة كالعادة وظلت اسما منفردة فاطلت  
من النافذة فوقع نظرها على صحن الكنيسة كله وفيه التسم الذي جعله المسلمون موحداً  
فرأت في أرضه الابسطه والطنافس والمصايح وشاهدت على جدرانها رسوماً منسجبة  
في جملتها صور صلبان وقديسين لا تزال كما كانت قبل النخ . وفيها هي تأمل بمجدران  
المسجد ومنروشاته سمعت المؤذن يدعو الناس الى صلاة الظهر . وما كاد يفرغ من  
آذانه حتى رأت الناس يتقاطرون الى صحن المسجد زرافات ووحداً وفيهم الرجال  
والنساء شيوخاً وشباناً واطفالا على غير المؤلف . فاندغل خاطرها بالنظر اليهم  
وفيهم جماعة عرفت انهم من المجران الذين كانوا يزورون والدها  
ثم رأت الناس يوجون موج المجر يتقهقر بعضهم شمالاً والبعض الآخر يميناً حتى  
فجوا طريقاً واسعاً فادركت ان احد الكبراء داخل . فصبرت واذا برجل جميل  
المخلقة ابيض البشرة ذي هيبة ووقار عليه ثياب موشاة تأتلق كبير العامة عرفت  
حالا انه معاوية بن ابي سفيان والي الشام ورأت الى جانبه رجلاً قصير القامة  
وافراهما ادعج ابلج عيناه تكادان تقدان حدة . فمشيا وبها ينظران الى الجميع  
والناس سكوت اجلالاً لها فلم تعرف اسما رفيق معاوية ولكنها سمعت واحداً من  
الحضور يقول بصوت عالٍ « انت لها يا عمرو يا ابن العاص انت نصير الخليفة .  
المظلوم » فعلمت انه عمرو بن العاص

فوقفت تنتظر ما يبدو منها فرأت معاوية ظل ماشياً الى دكة عليها قميص ابيض  
ملطخ بالدماء وعلمت ان الدكة المنبر وان القميص قميص عثمان فتذكرت منزل ذلك  
الرجل علي مشهد منها وتذكرت نائلة المسكينة وقالت في نفسها اين هي الآن بازس

وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى معاوية فرأته صلى ركبتيه وصعد المنبر فسكت الناس واصغوا فوقه واجال بنظره وحمد الله واثن عليه وامر بالمعروف ونهى عن المنكر . ثم سكت لحظة وهو يمشط لحية ماصابعه وعيناه تنقلان في الناس واحداً بعد واحد ثم تناول عن المبر هذات كانت معلقة بالقميص جعل يفتلها بين يديه وينظر الى الناس ويقول « اتملون ما بين يدي » ١٠٠٠ ايها اصابع نائلة زوج الخليفة المظلوم قطعت بسبب الفتنة وهي تدافع عنه « فتأملت اساء في الاصابع فاذا هي اصبعان وشيء من الكف واصبعان مقطوعتان من اصليها ونصف الاقدام <sup>(١)</sup> ثم امسك معاوية القميص بيده وقال « اتملون قميص من هذا ١٠٠٠ انة قميص الخليفة المظلوم ١٠٠ انة قميص عثمان المتقول ظلاماً »

ولم يكذبتم كلامه حتى ضجح الناس من جوانب المسجد بصوت واحد « قتل عثمان مظلوماً . . . قتل مظلوماً » وسمعت بعضهم يقول بصوت عالٍ « اقم بالله ورسوله وخطبتو ان لا يمسي ما الا للفصل من الجنابة وان لا انام على الفرش حتى اقتل قتلة عثمان ومن قام دونهم » وما اتم الرجل كلامه حتى ضج النساء والاطفال بالبكاء والمويل وبهاضوا على المنبر ليكلموا على القميص والاصابع فزجرهم معاوية فمادوا الى اماكهم وعاد هو الى كلامه واساء تكاد تميز غيظاً لما سمعته من التعريض بملي ومعد وما آتته من التهديد . فثار الحمية في رأسها ولكنها صبرت نسيها لعلها ان موقتها خطراً . فسمعت معاوية عاد الى كلامه بين تحريض وتعرض وهي صابرة حتى سمعته يقول « ان علياً قتل عثمان واوى قتله » فلما سمعت ذلك لم تعد تستطيع صبراً فتمولت من النافذة اسرع من لمح البصر وهزولت الى باب الجامع بعياها وكوفيتها . وفيها الناس يسمعون خطاب معاوية اذا بقناة وقتت فيهم وعيناهما تنفدان غيظاً وحقاً والمهابة تجلي في عيهاها فاستلنت اتباهم فشفغلي بالنظر اليها عن سماع الخطاب اما هي فصعدت الى دكة من الرخام ولت وجهها الى الناس وظهرها الى معاوية وقالت وصوتها يرتعش وركبناها تصطكان « ايها الناس اراكم تسمعون وتفضبون لامر لم تشاهدوه ولا اتمت على بيته سنة لا اتمت لم تكونوا في المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة . يقولون لكم انة قتل مظلوماً وان علياً امير المؤمنين قتله واوى قتله وهو

افتراء وإخلاق لان علياً اول من دافع عنه بأسائه وسبهه واولاديه . قُتل عثمان ابها الناس والحسن والحسين في داره وقد تفلّح وجه الحسن بالدم ولو لم يأمرها عثمان بالكف عن الدفاع لبدلنا النسب عنه . على انها لم يجوعا مع ذلك من تأنيب الامام . وقد شهدت ذلك بنسبي ورأيت رأي العين . فأتاهم علي بمثلوا افتراءه وفتنة لا يهيب القائم بها الا ما اصاب اصحاب الجمل في البصرة . تزعمون انه قتل مظلوماً وربما كان زعمكم صحيحاً ولكن علياً لم يرد قتله بل هو اول من قال باستيفائه خوفاً من هذه الفتنة فكيف تقولون انه قتله ؟

وما ائمت اسماء كلامها حتى صاح معاوية « من ذا الذي يتكلم من انت يا رجل »  
فالتنت اسماء اليو وقالت « انني فتاة يا معاوية ولمت رجلاً »

فجيب لهك الجسارة من فتاة بمثل سنها وتأثر من هيبتها وجملها وانفتها ومع كل غبطة وحنف لم يأمر بالقبض عليها ولا المثلة بها ولكن دعاها اليو والناس شاخصون ينظرون كأنه يريد مجادلتها في الامر . فاشار اليو عمرو اشارة فهم منها انه لا يابق يو ان يجادلها امام الناس لان الجدال يقلل قيمة برهانه عندهم ويهزئها وقاحة . فاعجبه دعاه عمرو . فلما صارت اسماء بين يديه امر بالقبض عليها فتكاثف بضعة عشر من رجاله لشد وثاقها فصاحت فيهم « نُجْهِرُ على فتاة وانتم رجال ولا حاجة الي شد الوثاق فاني لا افر من بين ايديكم . ولكن عار عليكم ان تدفعوا الحق بالنيود والاعلال وهو انما يدفع بالبرهان والجدال »

فاشار معاوية ان يسروا بها الي السجن كما هي حتى ينظر في امرها بعدئذ .

## الفصل السابعون

﴿ حلمٌ لذيذ مزعج ﴾

ولا نسل عن حال اسماء لما وجدت نفسها في حجر لا يدخل اليها النور الا من كوة في اعلى الجدار وليس في الحجر الا حصر بال . فتأملت في حالها وقد جردت من سلاحها مع ما هي فيه من الضنك وما تنوقعه من الشقاء فتدمت على ما ابدته من الجسارة

في الدفاع عن عليٍّ ولكنها شعرت انها فعلت ذلك بالرغم عنها فقد كانت لا تسمع ذكر عليٍّ الا طربت واستعزت او خافت وتبهت وهي لا تقدر على كبح احساسها فلما خلت بنمها في تلك الحجرة المظلمة نزلت لها حالما كما هي فتذكرت ما مرَّ بها من الازمالات منذ حدثتها وما قامت من البلاء في اسرارها وجهادها وما كان من وفاء والدتها قبل وصولها المدينة وضياح ذلك السر (ولما وصل ذهابها الى هناك اعترض ظلمة كدرها نورٌ ضعيف لما تجدد من آمالها بكشف السر على يد القديس مرقس) ثم تصورت مروان وما ساءها من العذاب في بيت الخليفة عثمان وتذكرت ان هناك كانت محمدًا بامر الحب فانبطت نفسها . ثم تذكرت اسرارها الى مكة وما لاقته فيها من المرض والعب وما عتب ذلك من اسرها ومسيرها في الصحراء تحت خطر الموت والعار حتى قضى الله بختها فعادت الى خطر آخر ونجت منه ثم بشرت بالكشف عن اصلها ثم حضرت وقعة الجمل . . .

وما زالت تتسلسل الافكار في ذهنها حتى وصلت الى ماجرٍ عليها ذلك العجن فعظم الامر عليها واشتد الالاف بها حتى اجشبت للبكاء فحاولت التجدد لئلا يقال انها بكيت من اليأس او الخوف وهي انما بكيت لتكد حظها وسوء طالعها وما يقف في سبيلها من العقبات التي لم تكن تخاطر لها بال . فالتفت الى ما حولها فلم تجد احدًا وتناولت بعنتها الى باب السجن فرأت السجان في غفلة عنها . فاطلقت لنفسها عنان البكاء واخذت تاجي نفسها نارة تذكر والدتها وطورًا حبيبها وآونة عليًا وأخرى تندب حظها . واستفرقت في ذلك حتى نسيت نفسها وغاب رشدها كأنها اصيبت بنوبة عصبية فلم يعد في امكانها اسماك عن لطفها عن البكاء والتعجب

وما زالت في ذلك حتى تعبت فغلب العباس عليها فنامت على ذلك الحصر . فرأت في منامها كأن والدتها ماشية نحوها على بساط من الورد المشور وعليها حلة ارجوانية طويلة الذيل مزركشة بالذهب تجرُّ وراءها وعلى رأسها تاج من زهر الرمان - رأتها تشي الموبناة وهي تلص الحصى كأنها تحاذران نشوش مهب النسيم . فبغت اسماء لرؤية خيال والدتها وخصوصًا لما رأتها بصحتها الكاملة وقد ارتد اليها لوعها وتورّدت وجنتها واشرق وجهها . وظلت اسماء مبغونة شاخصة الى ذلك الخيال حتى سمعها تقول بصوت رخيم وهي تنسم « هل عرفت والدك يا اسماء »

فاسرعت اساء اليها والقت نفسها على صدرها فاشتمت رائحة الوردية فاتعمشت وجعلت تشنفتها وهي تقول « لالا لا يا اماء لم اعرفه بعد . . . قولي لي . . . قولي فقد نلد صبري »

فضمها والدتها الى صدرها وهمت في اذنها فاثلة « اخفضي صوتك لئلا يسمعك الامام »

فاطاعنها وقالت بصوت خافت « قولي لي يا اماء من هو والدي »  
قالت « اما جئت اليك الآن لاخبرك بذلك فاعلمي ان والدك هو . . . . »  
وسكنت لحظة وهي تلتفت بينا وشمالا وعيناها نلعمان كان الماء يغشاها واماء شاخصة اليها ببصرها وقلبا يكاد ينشق لاستقبالها وآذانها متوتحة لسامع اسم والدتها .  
ولكنها ما لبثت ان شعرت بوالدتها ترتعد وقد اخذ لوتها بالامتقاع وهي شاخصة الى شيخ قادم اليها . ثم رأتها اجنلت وحاولت الفرار فنشبت اساء بها وهي تقول « امكبي بالله لا تذهبي قولي لي اسم والدي » فلم تلتفت اليها ولكنها حاولت التلصص منها واساء ممسكة ثوبها . وفيما هي في ذلك افافت من نومها مذعورة فرأت نفسها في تلك المحجر المظلمة على ذلك الحصر القدر وسمعت صوتا لم تكذ توجانته تدرك طيلة اذنها حتى ارتعدت فرائنها لمشابهة صوت مروان بن الحكم عدوها القديم . فقالت في نفسها « اعوذ بالله من تكذ حظي على يد هذا الرجل الا يزال ذكرا شوما علي حتى في احلامي : كنت في الذ الاحلام فابفظني بصوتو »

وكانت تفكر في ذلك وهي تسمح عينها بانامها لتتحقق اذا كانت في بقظة ام في منام . فما كادت تفتح عينها حتى رأت مروان واقفا امامها وقد تقلد حسامة وانفخ هندامة . فلما رآته استعاذت بالله ولم تلتفت اليه

فتقدم مروان نحوها وهو يقول « لقد صفحنا عما مضى يا اماء اذا كنت ترجعين عن غيبك وتعلمين ان محبنا وعابا لا يغنيان عنك فتبلا . ها انت الآن في دمشق مستقط رأسك ومقر آبائك . مالك والمدينة والكوفة . اصغي لتصحي وارجمي عن عبادك واعطي انك اذا اطعني هذه المرة صفحت عما مضى وكتبت اسعد فناءه والآن فانك مقتولة لا محالة لانك في قبضة يدي افعل بك ما اشاء . واعلمي ان معاوية سيبعث اليك يستطلع احوالك بشأن ما فهت به في المسجد مما لا يأتيه الا كل مخفل الشعور فاذا شئت البقاء حبة

اعتذري عما فرط منك وكوفي مع القوة ولا يفرنك انتصار علي في البصرة فانها سباني منا  
سيوقالا نزل ورجالا لا نرث وقلوبا كاشجر الصلد وسخرج الخلافة من يدي فنجضع  
لنا هو واولاده وكل من يلوذ به »

وكان مروان يتكلم واسماء ترتمش وقلبا يكاد ينثر من صدرها لثقة الناثر  
وصعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها واحمرت عينها وهي مع كل ذلك لا تزال  
مطرفة تنكر في ما ذا نجبية وقد امنت ان حياتها بين يدي وبدي معاوية فحدثها  
نفسها لاول وهلة ان تعمل بمتنفي عواطفها فتنتهر مروان وتوبخه ولكنها تذكرت  
تهورها في ذلك الصباح في المسجد وما آل ابو امرها بسبه فامسكت نفسها وتجلدت  
وهي تكظم الغيظ ولكنها لم تنطق جواباً

فظان سكونها لينا او رضا فدنا منها وبالغ في نصحتها فقال « لعلك تذكرين  
ما عابني به من الجفاء حتى الآن وانا اعذرك وارجو ارعواك لانك انما كنت  
مدفوعة الى ذلك بطيش الشبهة وكنت تحمين محمداً اهلاً لك وقد رأيت كيف  
انقلب امرهم جميعاً وكيف قام المسلمون عليهم بعد التوبه بدم الخليفة عثمان . ولا اظنك  
تجهلين ما فعله محمد يوم قتلوه وقد كنت في جملة اليهود . لم تروه دخل على الخليفة  
وامسك بلحيته وهم يقتلوه فوبخه الخليفة وذكره بوالك فرجع . اتحمسين ذلك دفاعاً وانت  
مع ذلك ترعين ان محمداً خيراً من مروان »

فنقل كلام مروان على اسماء . ولا نقل الجبال حتى كادت تصرح باحتقارها له  
ولكنها حاولت الكفام والسكوت فعاظمت عواطفها عن طريق العينين فانسكب دمعها  
قطرات تساقب بعضها بعضاً وهي مطرفة لا تنظر اليه

ففرح مروان وتحنق ندمها وهم بالذنوب منها والرجوع الى الحديث واذا بالسجان  
دخل وقال لمروان « ان الامير بعث رجلاً يستقدمون السجينة اليه » فاذن بدخولهم  
وتقدم السجان وهو لا يجسر على مخاطبة اسماء الا بالوقار فقال لها تنظلي يا مولائي  
الى الامير . فوقفت وقد مسحت عينها وخرجت فرأت خارج السجان بضعة رجال  
بالسيوف والحراب فقال لهم مروان لاحاجة الى سلاحكم وخفارتكم فانها تسير بنسها  
الى مجلس الامير سيروا اتم عن بعد

## الفصل الحادي والسبعون

## ﴿ مجاس معاوية ﴾

وسارت أسماء بقدوم ثابثة وقلب لا يهاب الموت ومروان يمشي وراءها وقلبه مبتع بها تجدد من آماله في الحصول عليها . لانه كان لا ينظر اليها الا يحرم جمالها وهبتها . ولقد يكفي من الفخر في الحصول عليها ان يقهر محمداً ويغلبه

وبعد بضع دقائق وصل الجميع الى قصر منيع من بناء الرومان كان في الاصل قصرًا لحاكم الشام من الروم وعند بابو بعض الكفر بالسيف والحرب . فدخلت الى دار واسعة ومروان يسير امامها يهديها الى قاعة المجلس فخرج بها حول البركة حتى دخل قاعة كبيرة فيها الوسائد والطنافس على الجانبيين وفي صدرها معاوية على منعد ولى جانبيه عمرو بن العاص وولداه محمد وعبد الله وبين ايديهم جماعة من الامراء لم تعرفهم . فدخلت ووقفت ونظرت الى المحضور نظرة فاحص بسكينة وجلال ثم وجهت نظرها الى معاوية غير هاتبة

فنظر معاوية اليها وتأمل ما يتجلى في وجهها من المهابة وكانت لا تزال غاضبة وقد تقطعت اسرمتها وازدادت هيبة فاعجب معاوية بهبتها وجمالها وكان قد أعجب بشجاعتها واقدامها . فلما وقفت بين يديه قال لها « ما الذي حملك على الجرأة التي ظهرت منك في المسجد اليوم »

قالت انما حملني على ذلك الحق والصدق فقد سمعت تعريضا برجل ائتمتهموها  
تها هو بريء منها

قال معاوية وما ادراك ببراءته وانت فتاة قاعنة في بيتك

قالت اني اعلم من الامر فوق ما يعلم كل واحد منكم وقد تحققت يقينا ان عليا امير المؤمنين بريء من هذه التهم

فاعترضها عمرو بن العاص قائلاً لانتولي « امير المؤمنين » فاننا

لم نبايعه

فقالت واذا لم تباعوه انتم فقد بايعه سواد المسلمين في المدينة والبصرى والكوفة

ومصر وسائر العجاز وهو ابن عم الرسول ( صلعم ) واحق الناس بهذا الامر  
فقال عمرو اراك تحكمن وتفصلين في امور يظهر انك تجهلينها . فلو اجمع  
الناس على يمتو ما اضطر الى الحرب وسفك الدماء . يكذبون انه سبب قتل الخليفة  
عثمان الذي اصبح دمه طليعة ما سفكك ويسفكك من الدماء  
فصطرت اساءة الى عمرو وقالت الست عمراً ان العاص

قال اللهم نعم

قالت « ألم تكن اول نائم على ذاك الخليفة المتبول لانه عزلك عن مصر وولاها  
أخاه عبد الله . . . ألم ترحم بنتلو . . . ولكن الدهاء اوجب بعدك والناس يملون  
من هو القاتل او الساعي في القتل » قالت ذلك وقد ظهر التأثر على وجهها ما  
بدا عليه من الاستفاح

فصطم جواربها على عمرو وخاف فنادى في الجرة فقال لها « من انت يا فتاة »  
قالت من هذا المكان

قال اني اسألك عن ابيك

فسكتت ولم تجب فتقدم مروان وهو يرجو ان يخفف غضب معاوية وعمرو  
عن اسما . طمعاً برضاها واستغاثها وقال « انها أموية وهي بنت يزيد الاموي وقد  
قتل ابوها رحمة الله في جملة من قتل يوم مقتل عثمان

فقال معاوية أموية انت فلم تجب

فقال كيف تكونين أموية وتقولين غير قول بني امية وهم مجمعون على ان  
عثمان قتل ظلماً وقد نهضوا جميعاً للاخذ بشاره

فقالت « لا بهمني أموية كنت او غير أموية ولكنني اشهد بما اعلم . فانا لا أرى  
احداً مظلوماً في هذه الفتنة الا امير المؤمنين علي بن ابي طالب واني اقول اعتقادي  
رضيت ام غضيت . ولعلكم تهتدونني بالقتل او السجن فلا ابالي بالتهديد ولا بالوعيد  
هذا قولتي قلته فافعلوا ما تشاءون »

وكان مروان في اثناء كلامها ينكر في ما يرجو من رضاها وعيناه شاخصتان  
الى الحضور فلما ينظر اليها احد نظر الرائب فيها وود لو انهم يتعلمون الحديث  
لئلا تقول قولاً يبرر غضب معاوية فيما مرتبتها

اما عمرو فرأى بحسن فراسه ودعاؤه ان يظهر الاستخفاف بكلام أساء . وبدي  
الرفق بها لانه رأها لا ترسخ بالعنف . وخاف ان نخاض في كنف ما كان ماعياً فيو  
على عثمان قبل قتلوه . فقال لما أراك يا بنيتي مقرورة ومن العت ان نجدلك وخصوصاً  
ان الذي ( صلح ) اوصانا بالنساء . وفقاً لانون ضعيفات . وبالأخص انك أموية  
من لحينا ودننا . فارقتي بنسك وارحبي عن غيبك وانك في عدا في امر واقامي عما  
انت فيو

فالت لا تستضعوني ولا ترحوا رجوعي ولا تحسوي أموية ولا هاتبة فافعلوا  
ما نشاؤون وقد قلت لكم اني لا أهاب الموت . . .

فتقدم مروان الى معاوية وهمس في اذنه قائلاً « أرى الاقتصار عن جدلها  
فانركلي امر اتناعها اليّ لاني اعرفها قبل ذهابها الى المدينة فقد كانت مقيمة في  
دمشق واعرف والدها ووالدتها وانا ضمن اتناعها اما طوبياً واما كرهاً اذ لا يليق  
بنا استقبالها على هذا العناد فاما ان ترجع عن رايها او ان نقتلها والنقل امر  
ستدرك فأرى ان نقتلها بالحسي » ثم تحول الى عمرو وقال بحيث بسعة الانسان  
ولا نسمة اساء « ولا يخفى عليك اننا اذا اكتسبناها لحزينا اطاعتنا على كل محاسن  
علي ورجالها لانها عالمه بكل اسرارهم فانركا هذا الامر اليّ » قال ذلك ونحى جاناً  
واساء خاتمة ما بدا منه . فقال معاوية خذوها الآن الى منزل مروان وسنظر  
في امرها

فتعلمت الحديث فانتة العلى منزلة حين

قال كلاً

قالت « بل خذوني الى السجن حيث كنت في هذا الصلاح »

فخاف مروان اذا اصر على ارسالها معه ان تصرح بشيء ضد قتال « خذوها

الى السجن » وعول على ان يناطها هناك



## الفصل الثاني والسبعون

## ﴿ ظلمة السجن ﴾

وأشار معاوية إلى الخنزير وأما نسي امامهم غير هاتبة ولا جزة . وأما مروان فإنه أسر إلى كبر الخنزيران يجعلها في غرفة من غرف السجن منفردة وإن يضيئوا عليها لعلها تنمر بمجاجتها إلى استجداء . ولم يدركوا السجن إلا بعد الغروب فدخلوا بها والسجان معهم من باب كبير إلى دار كبيرة اتصلوا منها إلى دهليز مظلم انتهى فيه إلى بضع درجات زلوا عليها إلى دار صغيرة تستغرق إلى غرف عديدة دخلوا في أحدها واتصلوا من هنا إلى حجرة أخرى وأظنة السقف مظلمة تصاعد منها رائحة الرطوبة والعنونة وقد نبئت الطغالب على جدرانها وتخلب الماء عنها . فأفعدوها على حصر بال ورجعوا وظل السجان وحده . فلما خلا بها نظر إليها وكأنه اشفق على شبابها وتوسم فيها مهابة وجلالاً ولكن لم يخاطبها فتركها على ذلك المحصر وعاد وهو رجوان تخاطبة هي وتلمس نجدته متى أحست بالوحدة أو شعرت بالجموع والخوف أما هي فلما رأت نفسها في تلك الغرفة وقد خلا المكاتب من الناس واستولى السكوت على تلك الجدران العفنة لبنت تنكر في حالها وما صدر منها في حضرة معاوية من الأقوال مخافة أن تكون قد فاهت بما يدل على عجز أو خوف فرأت أنها أدت الأمانة حقها . ولكنها مع ذلك تأسفت لأنها لم تسمح لها الفرصة باستيفاء الكلام وقضت ساعات وهي جالسة لا تنال بالظلمة ولا بالجموع أو الخوف لعظم تأثيرها ثم انتهت لنفسها وما هي فيه من المخاطر إذا لم يكن من معاوية ورجالوه فمن مروان وآماله وأبنت أنه آت إليها تلك الليلة طمعا برضاها . وأوتت عندها خير من أجابة طلبه فالتفتت إلى ما حولها وهي لا تكاد ترى جدران الغرفة لشدة الظلام قاصفت بسمها لعلها تسمع مشياً أو كلاماً فإذا كل شيء هادي ساكن لا يكدر سكونه إلا وزوزة البعوض حول وجهها وتيق الضنادع نيقاً ضعيفاً يظهر من جهته وضعوه أن السجن قائم على ضنة نهر بردى الذي يشمب في دمشق فيسقي أهلها بتساطل من الحجارة أو الخرف متفرقة في كل منازلها . فاستأنست بذلك النيق ولكنها استوحشت الظلمة الدائمة مخافة أن تضالها عقرب أو ثعبان على غرة

وفيا في ساكنة تنكر في حالها وقد شغلها الوحشة عن الافتكار بالمختر المحقق بها سمعت خطوات بعائشة تدل على تسرق صاحبها في مشيته فجدد الدم في عروقها وخافت ان يكون ذلك القادم مروان آتياً نحوها . فوجهت انبهاها نحو الخفى وقلها يخفق بشدة وسرعة حتى كادت تشعر بخفناؤ في عنها . فاذا بذلك الصوت يقترب نحوها فاجلست ونهضت ونهيات للدفاع اذا رأت لزوماً وليست تنتظر ما يكون . فاذا بالخطوات تسرع وتبتعد وتضعف حتى لم تعد سمعها . فعلت ان واحداً كان قادماً نحوها ثم رجع فازدادت قلقاً وظلت واقنة وركبتها ترتعدان لعظم التأثير وودت لو ان ذلك القادم وصل اليها لتعلم من هو وما غرضه واما رجوعه فقد زاد بلبالها . وصمت في باطن سرها ان تستهلك في سبيل الدفاع وإن القادم اذا كان مروان فتصرح له بما في ضميرها ولو آكل ذلك الى التل

ولبست برهة لم تعد تسمع في اثناهما صوتاً ولكنها ما برحت مضطربة شاخصة بعينها الى الجهة التي سمعت بها الصوت وطال ثغوصها حتى لم تعد تستطيع اطباق اجفانها ونسيت موقفها برهة

وفيا هي في ذلك لحمت نوراً ضعيفاً في دار السجين الصغرى فاستأنست به ولكنها تذكرت مروان فخافت ان يكون قادماً اليها . على انها نشجت وقالت في نفسها فليات اما اقتله او يقتلني فاستريح من هذه المخاوف . ولم تك تدكر في ذلك حتى رأت النور يتعاطم ويقترب ثم بان المصباح بحمله رجل عرفت من لباسه وقيامته انه السجان فهذا روعها . ونظرت اليه فاذا هو يحمل المصباح في احدى يديه ويحمل بالآخرى فصعة فلما دنا من غرفتها تأكدت انه السجان

فلبست تنتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول لها ساجدي يا سيدتي لاني تركتك الى

الآن بلا طعام ولا نور فاني لم اكن اعرف انك تنتمين الى الامير مروان

فلما سمعت ذلك الاسم ارتعدت فرائصها ولكنها لم تجب . وكان السجان قد دخل الغرفة ووضع المصباح على الارض وقدم القصة اليها وفيها خبز ولحم وهو يقول هنا طعام بعث به الامير مروان اليك وكلفني ان اطعمتك انك لن تبيتي في هذا المكان الا الليلة وفي الغد ينقلك الى منزلي

فنفرت منه وقالت لا حاجة بي الى طعام فارجع من حيث اتيت

فقال لقد قضيت طول النهار بلا طعام ألا تأكلين شيئاً  
 قالت لا لست جائعة عد بالطعام حالاً  
 فعجب السبعان لثولها وقد كان يتوقع ارتياحها لالتفات مروان فقال لها « ولماذا  
 هنا يا سيدتي . . . كلي . . . تناولي لقمه تسدين بها جوعك  
 قالت غدا الطعام اني لست جائعة . قالت ذلك وحوّلت وجهها عنه  
 فقال دعي القصة واصباح هنا افعلين بها ما نشائين وها اني عائد . قال  
 ذلك ورجع  
 فلما خلت بنسها ظل بصرها على المصباح ثم امل حركاته والبعض بمحوم حوله  
 وفكرها نائه وقامها تخنق كلما نهوّرت مروان قادماً نحوها . وازادت ان تسد ظهرها  
 الى الحائط فاحسّت برطوبة فعدت عنه

## الفصل الثالث والسبعون

### ﴿ طارق مفاجي ﴾

وعاد المكان الى السكون ، إذ طويّلة وقد غرقت اسياه في بحار الهواجس ونسيت  
 وجدانها ولكنها ما لبثت ان اتبعت له صوت اقدم نثني في الغرفة الخارجية بهدوء  
 فأجملت ونأكدت ان مروان قادم تخنق قلبها وصعد الدم الى رأسها وبهايات  
 للثنيك يو . وحوّلت نظرهما الى الخارج فرأت شيئاً قادماً بخطو خطو السارق المتلصص  
 وقد التف بعباءة . فخافت ولكنها تجلّدت لترى ما يدومسه فلما دنا من باب الغرفة  
 همّت ان تخاطبه فاذا هو يقول بصوت خافت « لا تخافي يا سيدتي اني جئتك  
 بالفرج لا تخافي »  
 فلما سمعت كلامه ارتعدت فرانصها وتذكرت انها تسمع صوتاً نعرفة فقالت  
 « من انت »

قال اني عبدك مسعود لا تخافي . وقد جئت لاقاذك  
 قالت ومن اين اتيت ومن ارسلك هل هبعت من السماء ام خرجت من جوف الارض

قال لم يراني احد ولكنني كنت حياً في هذا المكان منذ تركك في دير البصرة .  
لاني خرجت من الدير وفيها انا عاتدة الي الكوفة ظنني جماعة من بني امية كانوا قادمين  
بهمة من معاوية فقبضوا علي وساقوني الي هذا السجن لاني من صانع ابن ابي بكر  
وانكر الله لوجودي هنا لعلني استطعت اغاذك من ايدي هؤلاء الظالمين  
فاطمان بالما ولكنها حسبت نفسها في منام مثل منام الامس . فقلت وكيف عرفت  
اني هنا

قال رأيت الخمر لما أتيتك عند الغروب ولست انتظر فرصة آتي بها اتيك  
وقد جئت منذ ساعة حتى كدت اقترب اليك فحمت خطوات السجان فهرولت  
راجعاً ولما الآن فلا خوف عليا من السجان تعالي معي  
قالت واين هو السجان

قال انا ذهب الي بيت مروان

قالت وكيف ذلك واخشى ان يكون باقياً

قال لا تخافي لاني حرضت على المسير الي مروان ليعين برفضك طعاماً وبجرعة على  
الجهنم للانتقام منك والمعنة بالمال بناله مني انا فعل ذلك وحوّلت على الخروج في  
اشياء غماز

قالت « والباب »

قال يظن السجان المسكين انه اقله ولكه لا يزال مفتوحاً تعالي قبل ان يعود  
السجان أو يأتي مروان . فتددت برهة وقد اعطمت الزرار  
فأدرك مسعود ترددها فقال لها اتحصين خروجك من هذا السجن فراراً وما  
في بفتلك فيه غير الموت او العار . . تعالي . . اسرعى ناسدتك الله

وسئى فحشت هي في اثر ثم عاد الي الصباح وقال اري ان نلتقي هنا الصباح  
لتلاً يدل علينا . واطماناً فاطمنا المكان ولم تعد اساء تعرف الطريق فأسكك بعداً  
ومشياً وهي ترتعد حتى خرجت من الغرفة الثانية الي الدار الصغرى والاطلاً على الدهليز  
وما صعدا الدرجات حتى سمعا كلاماً في طرف الدهليز الآخر ما يلي الدار الكبرى  
فوقنا بنصتان فاذا بمروان والسجان قادمان ومروان يقول « لا بد لي من قلبها انا  
ظلت على عيادها وقد كنت اتوقع هذا العناد منها ولذلك فاني ارسلتك بالعلمام

وسرت في اترك »

نجد الدم في عروق مسعود واساء. وايضا بالهلاك وشق ذلك على مسعود بالاكثر  
لانه عرض اساء للخطر

اما هي فاسكت اضطرابها وشدت على يد مسعود وجرته الى خلوة وراء باب  
الدلهيز اتروبا فيها وقلباها بختنان والظلام حالك ولينا بتظران دخول مروان  
والسجان نسما مروان يقول « هات المصباح وتعال »  
فأجابة السجان « ان في حجرها مصباحا تركته عندها »

قال ذلك ودخلا في الدلهيز وصدى خطواتها بتعاطف رويدا رويدا حتى  
بلغا الباب الثاني الذي اخبأ مسعود واساء. وراى مروان المكان مظلمًا  
وقف وقال للسجان « اين هو المصباح اني ارى السجان مظلمًا »

فقال السجان اني وضعت في حجرها ولعلها اطفأته لكيدها وفاحنها هلم بنا لنرى  
فقال مروان اني لا ارى الطريق لئذ الظلام هات مصباحا آخر

قال « هلم بنا ندخل ثم آتيك بالمصباح . . . انزل هذه الدرجات على هلم . .  
ها اني اخطوها اماك . . نك بصراع الباب من عندك » قال ذلك ونزلا ومروان  
بتوكا باحدى يديه على السجان وبالاخرى على الباب حتى وصلا ارض الدار الصغرى .  
فمشيا حتى دخلا الغرفة وهما يلتمان الارض

ولا نسل عن حال مسعود واساء. في تلك اللحظة فقد كانت عندها اطول من شهر  
ثمالماعلا بدخول مروان والسجان الى الغرفة اشار مسعود الى اساء ان تخلع نعلها ففلا  
يسمع وقعها وكان هو بلا نعال فخلعت نعلها وحملتها بيدها ونحو كلالها من وراء  
الباب الى الدلهيز بمنة وسرعة وسنة الى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان لا يزال  
منثوحا واسرعا الى الشارع وما صدقا انها نجوا

وكانت اساء تعرف طرق الشام معرفة جيدة فلما بعنا عن السجان وقفنا برهة  
بتدبران المكان الذي وصلا اليه فمرفة اساء فسارت تلمس كنيسة ماري بوحنا

## الفصل الرابع والسبعون

## ﴿ النجاة ﴾

وقيل ان نصل الى الكعبة تذكرت خادمها والجواديين في الخان فوفقت نردد  
بين ان نسير الى الكعبة اولاً او الى الخان . فسالها مسعود عن سبب زردتها  
فقالت ازردت بين ان اذهب الى كعبة ماري يوماً فأقيم فيها او اسير الى  
الخان حيث يقم الخادم ومعه الدواب

فتعجب مسعود لئرددها بين الاثنين وهو لا يرى حاجة الى الكعبة لانه لا يعلم بها  
انباها يوم الراهب في دير البصره . فقال وما لنا وللكنانس من بنا الى الخان وسه الى  
الكوفة حالاً فقد بلغني ان الامام علياً وسائر الصحابة هناك

فتهدت وقالت نعم انهم جميعاً هناك ولكن لي في هذه الكعبة غرضاً جهدي واما  
انما جئت دمشق من اجله ولا بد لي من انامو . ولكني ارى ذهالي الى الكعبة في آخر  
هذا الليل ما يوجب شية او نساؤلاً والكعبة والمسجد متلاصقان اوها بنام واحد  
فأرى ان امضي بيقه هنا الليل في الخان فأرى الخادم وادر اموره ثم اسير الى  
الكعبة . قالت ذلك ومشت ومسعود الى جانبها فسالته هل انت عازم على الكوفة  
قال نعم ان شاء الله

قالت انا لم يكن بد من ذلك فأوصيك ان تلغ الامام ورجالته ما هم فهو اهل  
السلام من النية ليمان والطلب بدمو . وقصت عليه ما رأته في المسجد من الغريص  
والتهديد بالاصابع والتصيح الى ان قالت . وقل لم ابي باقية دنا بضعة الياهم اخرى  
ربما نتم مهتي و . . . ثم ادركت ان مسعوداً شديد الميل لمرة السبب الذي بدعوها  
الى البناء . هاك مع ما قالته من الخطر والمذاب وشعرت ان بناءها على كنها عمة  
سائلة في احتفاره بعد ان كان سبياً في انقاذها من الموت والمار . فأجبت اطلاعة  
على بعض السرّ نتيجة لما في ذلك من دلائل ائمة و الاعتقاد عيو وممت بالكلام  
فاذاها قد وصلا الى باب الخان ففرع مسعود الباب ففتح له صاحب الخان واراد ان  
يستمنع عنهما وما غرضها فاجابتهن اسما . بالسؤال عن خادمها هل يقيم هناك فاستأنس  
بها ودعاها الى غرفة الخادم فدخلوا . وطلما هناك في ما من وقد استولى التعب

على اسماء على أثر ما نلت من الجهد والسهر والمخاطرة  
 وأحس مسعود بعميها فقال لها ما ابي ذاهب الى الكوفة وسأخبر امير المؤمنين  
 ومحمدًا بما جرى وأكن اذا سألتني احدكما عن سب بئانك هنا ماذا اقول لك  
 قالت « قل له ان القسيس الذي جئت في الياسمين في بيت المقدس فاما  
 ان انتظر قدومه او ان اسافر اليه » وقصت عليه بعض الحديث ونهض وودعها  
 وخرج وظلت هي والحادم فبدلت ثيابها وتناوت بعض الطعام ونامت والحادم في غفلة  
 نامة عما وقع لها في ذلك اليوم . وظلت راقدة الى ظهر اليوم التالي حتى ارتاحت  
 على ان نومها كان منقطعاً تحمله هواجس وبلابل . وفكرت طويلاً في هل تميم  
 في دمشق ام تاتس بيت المقدس لمشاهدة القديس ولكنها تركت ذلك الى ما بعد  
 السؤال عن مدة اقامته هناك وما يرجوه من الاسراع في قدومه

وقصت بقية ذلك اليوم في الخان وفي الصباح التالي لبست ثوباً غير الذي  
 كانت فيه يوم المسجد . وأوصت خادمتها ان يكتم كل شيء . فاذا سئل عن سب اقامته  
 هناك لا يذكرها وخرجت تاتس الكنيسة من غير طريقها العمومية فدخلت الكنيسة  
 وسارت تراً الى القسيمة فاذا هي في غرفتها تصلي فكانت ربنا فرغت من صلاتها  
 ودخلت عليها ففتيت منها ترحاباً عظيماً وكانت قد علمت بالقبض عليها وقالت لها  
 لقد بكيتك يا ابنتي وتدينك بحفاوة ان تكوني قد اصبحت بسوء قصص اسماء عليها خبرها  
 من الوجهة التي تمها . فهذه القسيمة ان حالها تستدعي الكتابان فقالت لها اقبلي هنا  
 ما شئت وليس لاحد سبيل اليك اذا اتمت معي في هذه الغرفة فالتك بمنزلة ولدي

فلما سمعت اسماء قولها « ولدي » تذكرت والدتها فهاجرت انجابتها وقالت في نفسها  
 « لو كانت والدتي لا تزال حية لكنت في غنى عن كل هذه المعاصي . آه ما اعز  
 الامهات وما اشد حاجة البنات اليهن » . ولكنها اجابت القسيمة شاكرة وقالت اعلم  
 ذلك جيداً ولولاه ما جئت بنفسي وقد كنت عازمة على الخروج من هذه المدينة لو  
 لم اكن في انتظار القديس مرقس . هل تشبهه بتميم طويلاً في بيت المقدس

قالت لا ادري عرمة يتبأ ولكني لا اطيق بطبل الاقامة هناك  
 وقصت اسماء اياماً في معاشها عند القسيمة تنتظر قدوم القسيس فابطاً وماتت  
 الاضطرار وخافت ان يموت قبل رجوعه بالظن الى شيوخه وضعوه ولما تصورت موته

قبل اطلاعها على اسم والدها هبَّ جنبها وانشر بدنها وخافت اذا سارت ابو ان يأتي مو من طريق آخر فلا يلتفتان فلبثت تتردد بين الامرين

## الفصل الخامس والسبعون

### ﴿ خلافة الامام علي بعد وقعة الجمل ﴾

مر بنا ان الامام علياً لما انتصر في وقعة الجمل نزل الصغ فابيه اعلمها فاستعمل عليها عبد الله بن عباس وسار على الكوفة فتنظروا وانظم له الامر بالمراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان وبايه اهلها ولم يبق خارجاً عنه الا الشام وفيها معاوية واهل الشام معايعون له في الطائفة بدم عثمان كما قد رأيت

وكان علي قد ولي على مصر قيس بن سعد بن عبادة وهو من خيرة المهاجرين وكان من جهة الامام علي وهو من دعاة العرب . وكان في مصر جماعة يجرئنا يرون غيراً بيو وبطالون بدم عثمان ولكنهم معتزلون لا يخرجون لحرب فرأى قيس من السباسة والدعاء ان يكف الحرب عنهم ويداهم لئلا يتصلوا الى معاوية

وكان معاوية قد كتب الى قيس يستبانه ويبدل له الولايات العظام فلم يجبه قيس الا دفاعاً عن علي . فاصطع معاوية عن لسان قيس كتاباً قرأه على الناس في الشام يوهمهم ان قيساً معه وانه لذلك لم يتنازل المعتزلين في خربنا . فذاع ذلك عياً فصدق الوثابة في قيس وعزله عن مصر وولي عليها محمد بن ابي بكر

ولم يكن لعلي شائل بهمة بعد وقعة الجمل الا معاوية وجسود الشام فرأى ان يبعث ابو يطلب بهمة فبعث الوجود جبر بن عبد الله الجبلي في ذلك ويطلب من الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانتصار . فسار جبر الى الشام فاطلة معاوية من ربينا اراه حال اهل الشام وما يقاسونه من البكاء والمويل عند قيس عثمان واصابع نائلة كما تقدم فرجع جبر بذلك الخبر الى علي . فعلم ان لا بد له من الحرب فسار من الكوفة في جيش يلبس الشام وقد علم بما تخالف عليه معاوية وعمرو . وسار

معاوية وعمرو من الشام يطلان علياً ولكنها ابناً في السهر حتى النقي الجيشان في  
صين . ودخلت سنة ٢٧ هـ والجمعان في صين  
( صفين ) وصيفين موضع بقرب الرقة على شاطئ النهر من غرب (١١)  
بحيث تكون الرقة على الضفة الشرقية وصيفين في الغربية والنهرات بينها . او هو بين  
الرصافة في الجنوب والنهرات في الشمال . بين صين والكوفة نحو ثلاثين ميل او اكثر  
وبنها وبين الشام نحو نصف ذلك . وهي من الشام في الشمال الشرقي ومن الكوفة  
في الشمال الغربي

هناك نزل الجيشان العظيمان بمودها اعظم رجال الاسلام وبغية المهاجرين  
والانصار . في ذلك السهل الواقع جرت واقعة صفين المشهورة التي قتل فيها عشرات  
الالوف من الرجال . وقد نال فيها علي ما ناله في وقعة الجمل من النصر والغلبة .  
ولكن هل انتظم له الامر بعدها . كلا . فانها كانت خائبة نصراته على مناظريه  
في الخلافة . ولم يكن ذلك لضعف عزه ولا لاول حسامه ولكنها حيلة دبرها عمرو  
ابن العاص فنادت فيه وقتل رجالة وانتصروا فيها بينهم كما سيروا

## الفصل السادس والسبعون

### ﴿ اسماء وجداهما ﴾

ولبت اسماء ابناً واسابع عند التسمية ننظر عود التيس من بيت المقدس  
فلم يرجع فعميت لابنائها الف حساب واشغل بالها ولم تر خيراً من ان تهر في اليد  
بنفسها فاستشارت التيسية في الامر فاستقرت فلما ونسرعها في مشاهدة التيس  
فقال لها وهل تحتاجين الى التيس في امر يدعوا الى هذا التيس  
فتأومت النشاء وسكنت كأنها تريد مكاشفتها بما في ضميرها لعلها تخرج كربتها  
فقال لها التيسية قولي يا ابنتي ما الذي اوجب تهديك عساي ان انتمك  
قالت اني احتاج الى سيدتي التيس في سر عدي عن والدي لا يعرف احد سوا

وقد كانت والدتي فقط تعرفه وباحت به للنبيس . وإما الآن فلم يبق غير عارقا و  
فادركت النسبة ان والدتها ماتت فلم تتأ ان تذكرها بها ولكنها احت ان  
تعرف ما هو موضوع ذلك السر فقالت وهل يجوز ان اعرف ما هو ذلك السر  
فالت اعترف لك يا سيدتي اني ربيت في دمشق في حجر والدتي ورجل كنت  
احبه والدتي فاخبرتني والدتي يوماً ان ذلك الرجل ليس والدتي فسالته عن والدتي  
الحقيني فوعدتني باطلائي عليه في فرصة اخرى . وقصت اما . قصتها على النسبة من  
ارها الى آخرها ما يتعلق بحقيقة والدها

وكانت اما . تتكلم والنسبة تنظر اليها وتتأمل ملاحظتها فلما مرغت من كلامها  
نسبت النسبة وهنت لها وصحتها وقالت أملك ابنة مريم . . . .  
فالت « نعم يا سيدتي » واستأنست بجنونها  
فقالت مسكية والدتك  
فقالت اما . وهل تعرفها

فالت اعرفها جيدا قبل ان تتزوج وكانت كثيرا ما تأتي الكنيسة للصلاة مع  
والديها وكنت اما يومئذ شابة وهي صبية وكنت احبها كثيرا فلا يبضي عيني من  
اعبادنا الكبرى كالنصح والشعائر والياد وغيرها الا كنت انا والنبيس على مائدة  
جديك رحمة الله . واذكر انك كان اولئك اخ جميل الصورة حاد الذهن كان يأتي  
مع امك والديها الى الصلاة . وظلنا على ذلك حتى جاءنا العرب منذ بضع وعشرين  
سنة فتحولت هذه المدينة واستولى عليها وفرقوا شملنا . وكانت والدتك قد اصحبت شابة  
وهي في مثل خالك جمالا وذكاء ولم اعد ارى جديك ولكني سمعت انها قتلا . اما  
أمك فلقدني انهم اخذوها صبية ولم اعد اراها الا منذ عام وبض العام اذ انت  
الى النبيس واذكر اني رأيتها وهي داخلة فمكثت عندها رهة واما احسبي اعرفها ولما  
خرجت سألت النبيس عنها وان يكن سوالي تطلبا وقلت « البنت هذه مريم بنت  
قسططين ( وهو اسم جدك ) قال لي هي ولكني رأيت على وجهه بعد  
خروج والدتك من عنده اثر الانتفاض ورأيت الدمع في آمانه فانشفل خاطري  
ولم اسأله عن السبب مخافة ان يكون . واني من قبيل الطنبل لعلي ان  
النبيس مستودع اسرار كثيرين وقلت في نفسي لو كان خبر هذه المرأة ما يجوز ذكر

لما تأخر عن ذكره لي فسكت\* . اما هو فكأنه ادرك عظم قلبي لمعرفة خبر والدتك لما بعته من رابطة المودة بيننا فلما جلسا على المائدة في المساء أخبرني عن كنيته سببها وسبب غباها عما كل هذه المدة ونهيت من خلال كلاهما ان الرجل الذي كان معها يومئذ ليس والدك وان والدك رجل آخر

فقال اسماء بلهنة «الم تعرفي اسم والذي» . قالت كلاً لاني لم اسأله عن ذلك فاستأنت اسماء بالتسمية وازدادت ميلاً اليها فنالت لما يابذا تشيرين عليّ الآن أنتظر رجوع القسيس ام اسبر الي القديس فاستطاعه السر

فصنعت التسمية كأنها تذكر في امر ثم تاجر لوبيا بغنة وانقض وجوبها ونظرت الي اسماء والدمع يتلألأ في عيونها وقالت ارى ان تذهبي الي بيت المقدس لان القسيس اصبح شيخاً هرمًا . قالت ذلك وغصت بكلامها

فادركت اسماء انها تخاف انقضاء اجلها عاجلاً فبجأهات عما بنا من عواطفها وقالت ها ابي ذاهب والانتقال على الله . وتوجهت للحال فودعت التسمية وخرجت تلخص الحان وتبوء خادمها وابوابان فامرته بالاستعداد وفي صباح اليوم التالي ركبت وسارت قاصدة بيت المقدس

## الفصل السادس والسبعون

### ﴿ القسيس مرقس وانطاكية ﴾

وكان القسيس مرقس كما تقدم بعرف جددي اسماء واعلموا قبل النسخ وله انعطاف خصوصي لما فانا سلم السر من مريم والدة اسماء شاركونا في عواطفها وبلاياها وازداد انعطافاً لها وود لو استطاع ما يبرج وعبدا . فلما جاءته المنة الاخيرة قبل سفرها الي المدينة واخبرته انها عزيزة على كنف امرها لاجحاب الشأن هناك سر وكنية رآها مريضة ضئيلة فتشاهم من منظرها وتوقع قرب انقضاء اجلها فاورصاها ان تبيت اليه بما يتم لها وهو انما يريد بذلك تخنق وصولها الي ما سئوا حية . فلما مضى الامام ولم يرد عليه خبر تعاطف قلته عليها وكان كلما سمع اسم يتررب ( المدينة ) تجدد مذاكه وود

لويرى اسماء لغيرها عن والدها ولكنه لا يعرف مقرها . فلبث ذلك شأنا حتى جاء الامويون فبقيت عثمان واصابع نائلة وكان ما كان من بكائهم وعويلهم وعلم ما حدث من التفتة في المدينة فازداد اندغال خاطرهم واثرت تلك الغوغاه في صحته فاضطرب وضعه وعجزه ان يبرح دمشق الى مكان يستكن فيه ربنا نهذا الاحوال . فخطرت له المسير الى بيت المقدس لان له فيها اهلا يرتاح الى مجاورتهم فركب اليها قبل وصول اسماء الى دمشق ومكث هناك مدة وهو لا يزداد الا ضعفا ولم يجد تحب اهله واحبائهم يو نفعاً واحس بقرب الأجل

فخطرت له الركوب الى انطاكية وهو الكرسي البطريركي الذي سيم فيه قسماً فيرى البطريرك الانطاكي ويتروّد الاسرا المقدسة على يد قبل الوفاة . وانتفى ان مركبا امبراطورياً كان راسياً في مياه عسقلان انفق الامبراطور قونستانس الثاني ليجلب البطريرك الاورشليمي الى انطاكية لخاية بطريركها في بعض الشؤون الدينية التي كان الخلاف قائماً عليها في تلك الايام . وكان البطريرك الاورشليمي قد علم بعزم القيس مرقس على انطاكية فدعا ليمير اليها معه مجراً لان التصل صرف ولا خوف من الانواء والطريق في البرشاق لما يتضوى من ركوب الدواب وقطع الجبال والى اودية فسر القيس بتلك الدعوة وسار في حاشية البطريرك على البغال والحمير الى عسقلان على ان يسيروا منها الى انطاكية في المركب الامبراطوري

وانتفى وصول اسماء الى القدس بعد خروج القيس منها ببضعة ايام ولما اخبروها انه قصد انطاكية استعادت بالله ما انتفى لها من الخس في اسنارها الاخيرة وبانت ليلة وصولها في الخان حزينة لم يشف دمعها طول ذلك الليل لفرط ما تولاهما من القنوط فاصبحت شديدة الاعتقاد بغس طالعتها

على انها اصحبت في اليوم التالي وقد هدأ روعها فاستخدمت ارادتها وتعلمها وعادت الى رابطة جاشها فقالت في نفسها لا ذهبن الى انطاكية على عجل قبل ان يخرج القيس منها والاتكال على الله . فركبت جوادها وسارت والخدام في رفقتها بنوم لها بما تحتاج اليه من الخدمه في السفر . وهي حينما توجهت متكره بلباس الرجال مخافة ان يعلم مروان بها ولا ينجبها منه شيء الا التمل وكان المسافر من القدس الى انطاكية يغلب ان يمر بدمشق اما هي فجعلت طريقها في لبنان . وبعد مسيرة ايام وليال

## اشرفت على انطاكية

وكان وصولها اليها في الصباح قبل طلوع الشمس والشمس لا تشرق على انطاكية الا متأخرة لاحتجابها بالجبل الشرقي. واشرفت اسماء على تلك المدينة العظيمة ام مدن الشام وكريسي بطاركتها بل هي ثالثة مدن تلك الايام ( رومية والاسكندرية وانطاكية )<sup>(١)</sup> فاطلت عليهما من مرتفع مشرف فاذا هي مستطيلة الشكل على ضفة نهر الاورتنس الجنوبية تحديق بها البساتين الغناء وفيها الاثمار والفاكهة من كل الانواع . فانذهلت اسماء لعظمة تلك المدينة وما فيها من الابنية الشاهقة واكثرها من الكنائس فوقها القباب المزخرفة ناهيك عن الشوارع التي لا تكاد تشرق الشمس حتى تنص بالناس . وما ذهلها بنوع خاص سورها العظيم وما علو من الابراج التي يبلغ عددها ٢٦٠ برجاً وله خمسة ابواب . وتبعت ذلك السور الواسع بنظرها لعلمها تحيط بسعة المدينة فرأت انها تحاول عبثاً لان السور يصعد مع الجبل الى اعلاه ثم يتزل من الجهة الاخرى بحيث يحيط بالمدينة ومزارعها جميعاً<sup>(٢)</sup> بما تزيد مساحته على بضعة عشر ميلاً مربعاً

فبهنت اسماء لتلك المناظر الغريبة وكان بحر الروم يترامى لها عن بعد في الافق كأنه هلال مستطيل . وبعد ان وقفت هناك برهة تنأمل بعظمة هذه المدينة تحولت الى باب من ابواب السور في الشرق اتصلت منه الى الشارع الاعظم وهو يتطوع المدينة في طولها من الشرق الى الغرب طوله اربعة اميال علوه من الجانبين اربعة صفوف من الاعمدة الرخامية تعلوها اقواس جميلة وفي الوسط طريق واسع مكشوف مرصف بالفرانيت . يحد من الجانبين مقعد من الرخام المنقوش . والشارع كله على استقامة واحدة تنفرع منه طرق صغيرة الى كل من الجانبين فذهلت اسماء لما شاهدته من العظمة والبذخ في انطاكية ما لم تر مثله قبلاً . وما زاد ذهولها واندهاشها انها رأت تيجان الاعمدة في ذلك الشارع الطويل محلاة بالذهب الخالص ما يندر مثاله في اعظم مدن الارض . على ان ذلك المنظر الجميل كان مزوجاً بما يدعو الى الاسف الشديد لما توالى على هذه المدينة من الزلازل التي دكت معظم ابنتها فشوهت وجهها وغيبرت مجرى نهرها على ان العظمة مع ذلك ما زالت تفتخر فيها<sup>(٣)</sup>

(١) الانسيكلويديا البريطانية (٢) مرصد الاطلاع (٣) الانسيكلويدية البريطانية

وما زالت أسماء سائرة تلمس دار البطريرك لعلها ترى النسيب هناك فوصلت إلى بناء شاهق يدخلون اليوم من باب عظيم قائم على أعمدة من الرخام عتيبة العليا من الغرائب الأحمر الجميل عليها نقوش باليونانية لم نستطع أسماء قراءتها . فاطلقت من ذلك الباب إلى فناء واسع مرصف بالنسيب . ينتهي إلى سلم عريض يصعدون منه إلى دار رحبة رأيت فيها جماعة من النسوس والثامة وغيرهم يتخطون وكل اثنين أو ثلاثة منهم في شغل من الحديث . فقالت في نفسها أأدخل . . . فإذا كان النسيب ليس هنا فما الذي يدخلني . ثم سألت بعض الوقوف عند الباب عن النسيب مرقس فقال أنه لا يعرفه . فتذكرت أنه قادم على مركب البطريرك الأورشليمي وإنما يصلان معاً . فسألت عن البطريرك فقالوا أنه لم يصل ولا هم يعلمون زمن وصوله لأن السفر في البحر إنما هو تحت رحمة الرياح فإذا هبت في جهة سير المركب أسرع وصوله وإذا عاكسته تأخر أياماً وإسابيع . وعلمت أسماء ذلك فقالت لا بد لي إذا من التربص ريثما تصل السفينة . وأمرت الخادم أن يسير بها إلى خان تميم فبوء

## الفصل السابع والسبعون

### ﴿ المسير إلى صفين ﴾

وقضت أسماء في الخان أياماً وهي على مثل البحر تصعد أحياناً إلى الجبل تتطلع منه إلى البحر لعلها ترى مركباً قادمًا . ولكن بعد البحر من انطاكية كان كثيراً ما يحول دون رؤيتها شيئاً فإذا ملأت الاضطراب أرسلت خادمها إلى البطريركية يسأل عن القادمين حتى لم يبق لها صبرٌ على البقاء هناك وأبغضت بسوء طالعها فقالت في نفسها لا يبعد أن تفرق السفينة بمن فيها تفتياً لشقائي

وكانت غرفتها تشرف على الشارع الأعظم فاستيقظت ذات يوم من فراشها على ضجيج الناس وغوغائهم وجابهم في الشارع فاطلقت من النافذة فإذا جماعات من العرب بالعدى والسلاح سائرون على غير نظام بعضهم يحملون الاعلام وفيهم الفرسان والمشاة تتقدمهم بعض النساء بالدقوف بين مربع ومستدير يضربن عليها وينشدن

الاشعار الحماسية يستعثن بها الرجال ويتنهضون منهم . فعلت اساءه انهم من جند انطاكية ولكنها لم تنهم معنى جانبهم فنادت الخادم فلم يجيبها لانه كان قد انخرط في سلك المارة بمجادتهم ويستفهم منهم عام في . وبعد قليل عاد مسرعاً وامارات البغنة بادية على وجهه

فقال وما وراؤك . . من هؤلاء

قال م جماعة من جند انطاكية سائرون لتبنة جند الشام في صفين

فقال لي من

قال على جند امير المؤمنين علي بن ابي طالب

فقال بلهفة وهل م في حرب هناك

قال نعم يا سيدتي انهم هناك منذ مدة طويلة لان بعض الذين خاطبتهم الآن يزعم انه كان في حملة سابقة وانه شهد معركة هائلة هناك انكسر فيها جيش الامام

ولم يتم كلامه حتى افشعرت بدن اساء وصعد الدم الى وجنتها غيرة وحمية وقالت

ابن هي صفين

قال انها على بضع مراحل من هذا المكان شرقاً

فلبت في حيرة بين ان تظل في انطاكية حتى يصل التيس او ان تسير الى صفين وترى ما تم لجند الامام فلبت صامنة برهة فتركها الخادم وخرج . اما هي ففالت في نفسها ان انتظاري مركباً قادماً في هذا البحر قد يطول كثيراً لان سفر البحر لا حدود له وقد ينتهي انتظاري بالنشل إما بغرق المركب وإما يموت التيس قبل وصوله لتتم نعاسي . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها اسفاً على حالها ونيفاً مما احدث بها من البلاء فهكت ثم عادت الى هواجسها ففالت واما احرب في صفين فان عليها تتوقف سعادة المسلمين او شقاوتهم وما انا خير من احدم ولا بد لي من الاسراع الى هناك عساي ان استطيع خدمة اولي اقبل في ساحة الوبي فانجو من هذه المتاعب ثم نادى الخادم فلما حضر قالت اسرع الى دار البعيرك واسأل عن التيس مرقس فاذا قيل انه لم يأت عد حالاً واسرح الجواد واعدد معدت السفر فخرج الخادم وبعد قليل عاد ومعه بعض الزاد مما لاغنى عنه في الطريق

وأخبرها ان السنيطة لم تصل ولا يعلم احد زمن وصولها وما اعدت ما يحتاج اليه في الطريق

قالت نذهب اذًا الى انطاكية حتى اذا انقضت الحرب وظلنا في قيد الحياة نعود الى انطاكية والآن . . . فعلى الدنيا السلام

ولم تمش ساعة حتى ركبت اسماء وركب خادمها في اثرها وخرجا من المدينة فالتفتا بالبحر سائرت امامها . ففكرت اسماء بماذا تستطيع خدمة الامام وهي بد واحد لا تنهك في القتال فائدة تذكر فلاح لها ان تخدسه في استطلاع حال العدو وكشف عوراته ومخباته ولا يتم لها ذلك الا اذا اختلطت بجند الشام . وذلك لا يكون الا اذا تنكرت وانخرطت في سلوكه

وقضت مسافة الطريق وهي تنكر في الامر وكانت قد سبنت نجدة انطاكية فاطلت في صباح الخميس بعد بضعة ايام على سهل صنين من جبل عال فيها ما شاهدته في ذلك السهل من الخيام والاعلام والجند والحيل والمجال ولم يكن في ذلك الحين قتال . فرأت هناك معسكرين احدهما في الشرق والاخر في الغرب بينهما ساحة خالية فعلمت انها معسكرا معاوية وعلي في هدنة وشاهدت الجبال سارحة في المراعي وراء الخيام ومعها العبيد ترعاها . وتأملت معسكر الشام لانه اقرب الى موقفها من ذاك فرأت في وسطه قبة كبيرة حولها الرجال والجنود فعلمت انها قبة معاوية امير تلك الحملة . . .

وما كادت تتأمل في ذبلك الجندين برهة حتى رأت فيها حركة وقد نهباها جميعا للقتال والنعم الجيوشان وتطابرت النبال وصهلت الجنود وخفتت الاعلام وصاح الفرسان من الجانبين . فلم ترَ بقاء من العمل فقالت لخادمها اعطني ثيابك وخذ ثيابي وابقي انت هنا بالجنادين

## الفصل الثامن والسبعون

﴿ وقعة صفين ﴾

فلبست اسماء ثياب خادمها حتى اشبهت بعض رجال حملة انطاكية وكانت

لم تصل بعد على انها وصلت بعد هزيمة فانخرطت اساء في سلكها وسارت مع المشاة لا يتنبه لها احد حتى دخلت معسكر معاوية والحرب محتدمة وكل<sup>١</sup> مشتغل بنفسه . وما زالت تخرق الجماهير وهي تتظاهر بالمقاتلة معهم حتى وصلت الى قبة معاوية فرأت حولها خمسة صفوف من الرجال قد عقلوا انفسهم بالعائم<sup>(١)</sup> حول القبة للدفاع عن معاوية بحيث لا يستطيع احد منهم الفرار وحده . فعلت انهم مستهلكون في سبيل نصرته او مستقفلون في الدفاع عنه . وتطلعت من خلال الصفوف فرأت معاوية والى جانبه عمرو بن العاص وكلاهما في وجل واعينها تكاد تطير شعاعاً تطلعاً لما سيكون من عاقبة تلك الواقعة وهما يستقنان الرجال على الدفاع ويحرضانهم على الثبات والنبال تطاير كأنها الجراد في السحاب . فاحتالت اساء في الدخول الى قبة معاوية فرأت فارساً جاء مسرعاً ودخل من شق بين تلك الصفوف فدخلت هي في اثره ودخل غيرها ايضاً فلم يتنبه لها احد فسمعت معاوية يسأل الفارس عما به فقال ان وطأة العدو شديدة ولكننا سنغلبهم باذن الله

ونظرت اساء الى وجه عمرو بن العاص فاذا هو ممتنع وقد ظهرت البغته عليه وكذلك معاوية ومن معها من الامراء . ثم رأت عمراً خرج مسرعاً فركب فرسه وسار يخرق الصفوف يستحث الرجال ويحرضهم واساء واقفة في جملة الواقفين وقد سرت بما شاهدته من شعور معاوية بقوة رجال علي . وبعد هزيمة عاد عمرو مسرعاً ودخل القبة واخلى بمعاوية فلم تعلم اساء ما دار بينهما ثم عادا الى فرسهما يشرفان عنها على الواقعة واساء تترقب حركاتهما

وفيا هي في ذلك سمعت صوتاً كالرعد القاصف رن في اذنها رنيناً مطرباً لانه صوت الامام علي يقول

اقتلهم ولا ارى معاوية \* الجاحظ العين العظيم المحاوية<sup>(٢)</sup>  
فالتفت فاذا هو علي<sup>٣</sup> على فرسه وقد تلخعت ثيابه وسالت الدماء من نصال حسامه . ولما دنا من قبة معاوية صاح فيو « الي يا معاوية علام يقتل الناس بيننا هلم احا كلك الى الله فأبنا قتل صاحبه استقام له الامر » فسمعت اساء عمراً يقول لمعاوية هساً « والله انصفك » فقال له معاوية « ولكنك ما انصفت » . اما

الامام عليؑ فانه صبره نبيه فلما لم ينزل معاوية لبارزته عاد على فرسه يهب الارض  
نهياً وعينا اساء تشيعانو وهي تدعوه بالنصر

وانقضى النهار والحرب قائمة وخيم الظلام والناس لا يزالون يتقاتلون فاعتصمت

اساء ظلام الليل لاستطلاع نية معاوية فدنست من التبة حتى كانت بالقرب من

معاوية ليس بينها وبينه الا الجدار وهو لا يشبه لها . فسمعت بجناط عمراً وفي حديثها

ما يشف عن خوفها من عاقبة تلك المعركة . وما سمعته قول معاوية « ارى اهل

العراق قد ثبتوا امام اهل الشام »

فاجابه عمرو « انهم ثبتوا . نعم . . ولكن لا بد من الحيلة والا فقلنا وانقضى

الامر علينا »

فقال معاوية « وما الحيلة يا ابا عبد الله »

قال « نربص على ما نحن فيه الى الصباح فاذا تحققتنا فقل جندنا عمدنا الى

الحيلة وهي عندي هينة »

قال معاوية « وما هي »

قال « ساقولها غداً صباحاً وارجو ان لا ارى حاجة اليها »

فودت اساء لوانه ذكر حيلته لتسرع بخبرها الى علي ولكنها لم يقلها

## الفصل التاسع والسبعون

### \* رفع المصاحف \*

واصبح يوم الجمعة والحرب لا تزال متواصلة وقد تقهر جند معاوية حتى

وصل رجال علي الى الصنوف المعتولة حول التبة . فالتفت معاوية الي

عمرو وقال « ما الحيلة يا عمرو »

قال « ارفعوا المصاحف على الرماح وقولوا كتاب الله بيننا وبينكم فان قبلوا

بذلك جميعاً ارتفع القتال عنا . واذا قبل بعضهم دون البعض الآخر تفرقوا وانفسوا

على انفسهم فيكون لنا بانتسابهم راحة »<sup>(١)</sup>

فلما سمعت اسماء ذلك خافت انطلاء نكاح الحيلة على علي فبرأت مسرعة  
تخترق الصوف وتلبها برفص فرحا لانها استطاعت خدمة نبيها عليا وفي علي  
يتين من فضل جند معاوية وان عليا انا ظل على التتال فاز بالصر المين وانا  
صدق حيلة عمر وضاعت الفرصة منه

اما علي فكان قد حارب بسالة عفاى طول نوار الامس وليلو وقد تخفى  
فوزجته وما انتك يعاوف في صوفهم ينفهم على الثبات ويدعولم بالصر حتى عاد  
في الصباح الى فضا طول لمرض له وفيها هو هناك جاءه خبر ان اهل الشام رفعوا  
المصاحف على الرياح وم يتولون « هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من  
لتغور الشام بعد اهلوا . ومن ثور العراق بعد اهلوا » - فلما سمع علي كلامهم قال  
« لا لانجهم الى ذلك لانها حيلة منهم »

فجاءه نر من رجاله وقالوا « يجب علينا ان نجيب الى كتاب الله »  
فوقف علي وقد خاف التنتة وقال :

« عباد الله امضوا على حكمكم وصدقكم وقال عدوكم فان معاوية وعمرا وان  
اي معبط وحييا وان اي سرح والضحك ليموا باصحاب دين ولا قرآن اما اعرف  
هم منكم قد صحنهم اطلاقا ثم رجلا فكانوا شر اطفال وشر رجال ويحكم والله ما  
رفعوها الا خديعة ووهنا ومكينة »

فقالوا له « لا بسعنا ان ندعى الى كتاب الله فنأى ان نتيك »

فقال لهم علي « فاني انما اقاتلهم ليدبوا لحكم الكتاب فايوم قد عصوا الله فيما  
امرهم ونهى عنهم ونيدوا كتابه »

فقال له سمر بن ذكوي النبي وزيد بن حصين الطائي في عصاة من الثراء  
الذين صاروا خوارج بعد ذلك « يا علي اجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت  
اليه والى دفعناك برئتك الى التوم او تتعل بك ما فعلنا بان عنان »

قال « فاحفظوا عني نهي اباكم واحفظوا ميثاقكم لي فان تطيعوني ففانلوا  
وان نعصوني فاصعلوا ما بدلكم » (١)

قال ذلك وقد أخذ الفصب من مأخذاً عظيماً . وفيها هو في هذا الجدال انشق

المجمع وخرج من وسطهم شخص بثياب الرجال ولكنه اساء فانها وصلت وسمعت الناس يجاجون علياً فهرولت حتى وقفت بينهم وبين علي وقد نارت الحمية في رأسها وعلا وجهها احمرار التعب من شدة الجري فضلاً عما قام في نفسها من الاسف لتلك الحال . فكشفت عن وجهها وسلمت على الامام بعبية الخلافة والتفت الى الوقوف هناك وقالت لهم « اعلوا اني قادمة من معسكر معاوية وقد سمعت حديثهم عن هذه الحملة بأذني وانما جئت مسرعة مخافة ان تنطلي الحملة عليكم وتكفوا عن القتال . انها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلاقي الشقاق بينكم . واخشى ان تنفذ حيلته فيكم فاطبعوا امير المؤمنين واتم العائنون »

فضحكوا من كلامها وقالوا « كيف ندعى الى كتاب الله ولا نجيب . هذا لا يكن ابداً »

ثم وجهوا كلامهم الى علي وقالوا « ابعت الى الاشر فليأتك » وكان الاشر النعني من اشجع قواد تلك الحملة وقد ابلى في تلك الحرب بلاءاً حسناً وكان لا يزال يجارب وهم انما طلبوا استفداهم ليكف عن الحرب . فبعث علي اليه فلم يأت لانه رأى النور بين يديه واذا تحول عن موقفه فسدت اعماله فلما ابتأ قال اولئك الناس لعلي « نظمت امرته بالحرب فابعت اليه والى الله اعترناك » فبعث اليه علي ثانية فجاها وهو يقول « اظنكم تدعونني الى الكف عن القتال بعد رفع المصاحف »

ثم اقبل عليهم وهو يقول :

« يا اهل العراق يا اهل الذل والوهن احين علومكم اليوم ووطنوا انكم لم قاهرون  
رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا ما امر الله به فيها وستة من  
انزلت عليه فامهلوني فواقا فاني قد احسست بالفتح »

قالوا « لا »

قال « امهلوني عدو النرس فاني قد طلعت بالنصر »

قالوا « اذن ندخل معك في خطيبتك »

قال « فخبروني عنكم متى كنتم محتمين احين تقاتلون وخياركم يقتلون فاتم الآن  
اذا امسكنم عن القتال مبطلون ام انتم الآن محتمون فتتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم

وم خير منكم في النار »

قالوا « دعنا منك يا اشر قد قاتلناهم لله ودع قتالهم لله »

قال « خذ عنكم واخذ عنكم ودعيتهم الى وضع الحرب فاجبتهم يا اصحاب الجباه السود كما نطقن صلاتكم رهادة في الدنيا وشوقنا الى لقاء الله فلا ارى مرادكم الا الدنيا الا قبيحا يا اشر السيب الجلالة ما انتم رائزين بعدها عزرا ابدأ فاجهدوا كما بعد القوم الظالمون »

فسمهم وضربوا وجه دابته بسياطهم وضرب وجوه دوابهم بسوطو . فصاح بهم علي فكنوا وقال الناس قد قبلنا ان نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما وطال الاخذ والرد بينهم واساءوا واقفة وقلبا يكاد يتقد غيظا من عناد اولئك المخالفين فلما سمعت الاقرار على اجابة الدعوة تناثرت الدموع من عينها بالرغم عنها والتفتت الى علي قاتنا هو مضرق وقد اخذ النصب منه ما اخذ عظيما كأنه يرى عاقبة ذلك يعنيو فتعاطم غيظها وارادت توبيع اولئك وتقرعهم فخافت ان بعد ذلك وقاحة بعد ان وقع الاقرار فتصمت جانبا وليت تنظر ما يكون

## الفصل الثمانون

### ﴿ أمر الحكيمين وعقد التكليم ﴾

فتقدم رجل من خاصة علي فقال رى الناس قد قبلوا مادعوا اليه من حكم القرآن فهل تأذن ان تسبع ما يدعوا معاوية اليه من هذا الامر  
قال علي سر اليه واسأله عن ذلك

فذهب وعاد وهو ينول سألت معاوية عما حمله على رفع المصاحف فقال  
« الرجوع الى ما امر به الله في كتابه فاجبتوا رجلا ترضون به وتبعث نحن رجلا  
رضى به ناخذ عليها ان يملأ بما في كتاب الله لا يعدوا ثم تبع ما اتفقا عليه »

فقال علي قبلنا بذلك فأمر رجل اختاروا م

قال اختاروا ان يتوب عنهم عمرو بن العاص

فالتفت علي\* الى من حوله وقال « ومن تخنارون انتم »

قالوا « تخنار ابا موسى الاشعري »

فلما سمع علي\* كلامهم اجعل وقال « لا لا . . انكم لم تصيبوا . وقد عصيتوني في اول الامر فلا تعصوني الآن . لا ارى ابا موسى كنهوا لابن العاص وهو مع ذلك ليس بنفثة فقد فارقتي وخذل الناس عني ثم هرب مني حتى اُمتته بعد اشهر . فكيف نركن اليه في مثل هذا التحكيم . هنا ابن عباس اوليو ذلك »

فصاحوا بصوت واحد « والله لا نبالنا انت كنت ام ابن عباس لا نريد الا رجلاً هومنك ومن معاوية سواء »

قال علي\* « فاني اجعل الاشتر »

قالوا « وهل سعر الارض غير الاشتر »

قال « قد ايتهم الا ابا موسى » (١)

قالوا نعم

قال افعلوا ما اردتم

وكانت اسماه تسمع ذلك الجدل وهي تكاد تهبط غيظاً ولكنها لم تكن تجسر على

الكلام تهيأ من علي

وبعد قليل جاء ابو موسى الاشعري وعمرو فدخلوا على علي\* ليكتبنا القضية بحضوره

وهي صورة عقد التحكيم فبدأوا بكتابة « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى

عليه امير المؤمنين . . » فاعترض عمرو قائلاً « هو اميركم وليس اميرنا » وطال

الجدال في ذلك حتى وقع تنور شديد بين علي\* وعمرو وانتهى الامر ان يكتب العند

على هذه الصورة

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية

ابن ابي سفيان قاضي علي على اهل الكوفة ومن معهم وقاضي معاوية على اهل الشام

ومن معهم . اننا نزل عند حكم الله وكتابه وان لا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله

بيننا من فاتحنه الى خاتمه نجي ما احيا ونجت ما امات . فما وجد الحكمان في كتاب

الله وهما ابو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به . وما لم يجداه في

(١) ابن الاثير ج ٣

كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المرفقة - وأخذ الحكمان من علي وسعاوية ومن  
 الجندب من اليهود والمؤثيق أنهما آمنان على نسيها وأهلها وإلا لما انفار على  
 الذي يتقاضيان عليه . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن  
 يحكما بين هذه الأمة لا يردانها في حرب ولا فرقة حتى يمضيا . وأجل القضاء إلى رمضان  
 وإن احباً أن يؤخرا ذلك أخيراً وإن مكان فضبتها مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل  
 الشام « (١) » (وبلى ذلك أسماء اليهود)

وقد كتب ذلك العند في ١٢ صفر سنة ٢٧ •

ولما تمت الكتابة نلى العند على الناس وانقض المجلس ولجأت الجنود إلى الهدنة  
 ربما يجل الأجل المضروب للمجلس التحكيم

وتراجع الناس عن صفين وهم علي بالنزوع إلى الكوفة فجاهدة أسماء في ساعة  
 كان فيها محتلماً وتبليت بك فساء لها عن حالها وما تم لها بعد سفرها فقضت عليه  
 خبرها وما الذي حملها على القدوم قبل مقابلة التمس فانتفى على غيرتها ودعاها إلى  
 الذهاب معهم إلى الكوفة

فالت يا حبة ذلك ولكنني أقرب الآن إلى انطاكيا فأذن لي بالذهاب  
 إليها فقد آن لي أن اعرف حقيقة نسي . فاطرق علي برهة بتأمل فحالت أسماء أن  
 يكون في شاعل آخر فودعته وخرجت على أن تعود يوم التحكيم لتسمع حكم الحكمان  
 وكان المسلمون كافة في انتظار ذلك اليوم لأنه سيكون يوماً عظيماً ولم تنتد  
 محبةً لعلها أنه كان يومئذ في مصر يتولى أمورها

## الفصل الحادي والثمانون

﴿ قطعت جبهة قول كل خطيب ﴾

عادت أسماء إلى الجبل حيث تركت جوادها وخادما وبذلت نياها وركبت  
 إلى انطاكيا لاقيم ليلاً ولا نهاراً كأن قلبها حدها بما سلاقيو من الفشل هناك  
 وأشرقت على انطاكيا من جبلها الشرقي وأطلت على البحر فلهفت شهيقاً كأنه مركب

ولكن البعد حجب عنها فحنني قلبها سروراً فترلت من الجبل حتى اذا دنت من المدينة سمعت دق الاجراس دقاً بطيئاً، منتظماً فقالت في نفسها لعلهم يحتفلون بتدوم البطربرك ولكنها لم تكن تدخل الشارع الاعظم حتى رأت الناس يجندون فيهم يتقدمهم سرب من الاكلبوس بالماخر فعرفت انه احتفال بجنازة

ولا تصل عن حالها لما علمت انها جنازة انتميس مرقس وقد مات بعد وصوله انطاكية يومين فانها لعنت وجهها ونذبت سوء حظها ولكنها تحولت حالاً الى الخان واعلقت باب غرفتها واطلنت لنفسها عنان البكاء وجعلت تعدد ما اصابها من الاحن منذ ولادتها وكما قاست من المصاعب والمشاكل والاختلار حتى اذا دنا وقت سعادتها وان لها ان تعرف والدها وهي ترجوان تكون معرفته سبباً في زيادة سعادتها داها التندر بذلك النشل

وتذكرت مروان وما قاست من الهلا بيسيو وتذكرت اسرها في الصحراء بين مكة والبصرة وما قاسته على اثر ذلك من الجرح وغيره . وغرقت في بحار الهواجس وتحننت تعاسها وودت ان تموت لتخلص من العذاب . ولما تمت الموت اجنلت ونذمت لانها تصورت محمداً وحبه لها وما ترجوه من السعادة بزيه فقالت « لا . لا اموت بل احيا لاجل حبيبي واقصى مرادي وهو تعزيبي الوحيدة في هذا العالم فاذا خسرت الدنيا كلها وفاتني كل نعمها وحصلت على محمد فذلك يكنيني »

ثم تذكرت ما قاله الامام علي للحسن يوم سألها ان يخطبها له فانه جعل غموض نسيها مانعاً من زواجها بها فقالت في نفسها ان لي في وسط هذه العاسة رجاء وبشرى ان غموض نسيي يذيني من محمد وبعدي عن سواء وهذا هو مرادي . . . ان الحسن لا يلتبس الزواج بي بعد . . . ولكن ربما كان ذلك عينه سبباً في اقصاء محمد ايضاً . ولما تصورت ذلك افسعرت بهديها واطلعت الدنيا في عينها ولكنها عادت بغنة الى فكر انعاشها فقالت « واذا كان غموض نسيي يمنع محمداً من زواجي فهل يمنع من ان يكون اخي فتعيش معاً بقية حياتنا لا نتفرق ابداً . . . نعم اني اتخذك احاً رفيقاً اتبع بهما هديتي وحديثي »

وظلت اساءة في انطاكية بضعاً ايام ربما استراحت من السفر وقد انقطع حل رجائها من قبيل اصلها واقنعت ان تعيش مع محمد عيشة الاخت مع أخيها اذا رأى هو ما يمنع

الزوج او اشار عليه علي بذلك . ولكنها تذكرت الحكمين وما بخوفة الناس من حكمها فقالت اسمع حكم الحكمين ثم اتت مصر فأتى محمدًا فيها  
وبعدت خادمها يستطلع مكان الحكمين وزمانه فأتىها انة سيكون في اذرح  
من اطراف الشام من اهل السراء بخاخي البقاء . وعان " " في زمن معلوم . فلما دنا  
الاجل تنكرت وسارت الشمس اذرح والخادم معها

## الفصل الثاني والثمانون

### \* حكم الحكمين وحيلة عمرو \*

ولما جاء الاجل للمدين لثلاثة حكم الحكمين بعث علي ابا موسى الاشعري في  
اربعماية رجل ومعهم عبد الله بن عباس . وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعماية  
من اهل الشام والنوا باذرح . وكان عمرو بن العاص قد استقدم كل دعواته في  
اقناع ابي موسى ان يوافقه على خلع علي وتولية معاوية لانه المطلب بدم عثمان فلم  
يبلغ فذكرنا تولية احد ابناء الصحابة كعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير . وبعد جدال  
عريف اتفقا على خلع علي ومعاوية وان يختار المسلمون واحدا غيرهما الشورى . وكان  
من دعاه عمر انة ما زال يدافع ابا موسى في الكلام حتى طاب هذا خلع الاثنين  
فاصح هو البادي في الكلام عند اصدار الحكم

فلما جاء اليوم المدين واجتمع الناس من الافطار وصلت اسما . ايضا في ذلك  
اليوم فوفقت بين الناس بحيث لا يعرفها احد فرأت ابا موسى وعمرا في مجلس علي  
دكة وبقية الناس في جانب آخر وكان علي رؤوسهم الطير يتظفرون ما يكون  
من الحكم

فوقف اولاً ابو موسى فأصغى الناس لثلاثة فقال بصوت عال بحيث يسمعه  
المحاضرون كافة « ايها الناس انا قد نظرنا في امرهنة الامة فلم نر اصح لامرها ولا  
الم لشئها من امر قد اجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو ان نخلع عليا ومعاوية

ويولي الناس امرهم من اجبال . واني قد خلعت عليا معاوية فاستقبلوا امرهم وولوا من رأيتهم اهلأ » قال ذلك ونهى

وكان لقوله وقع عظيم وليت الناس ينتظرون قول عمرن فاذا هو وقف وقال « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ( علياً ) وانا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية فانه ولي ابن عنان والطالب يدعوا واحق الناس بمقامه »

فلما سمع اصحاب علي قوله علوا انه غدري من عمرو وتفعل من ابي موسى وايقنوا بالنشل ووجعوا ابا موسى وانوره فقال ما العمل وقد غدري

اما اسماه فلما سمعت التوليد علمت ان معاوية قد اشهدت ساعة وان رجال علي لا بد ان يتسولوا بين من يقبل الحكم ومن لا يقبله فلم تعد تستطيع صبرا على البقاء هناك فخرجت من بين الجمع لا تلوي على شيء وقد صغرت نفسها . وما زالت سائرة والخدام معها حتى انت شجرة منفردة في الصحراء فاستظلت بها وشغلت الخادم بتدبير الجوادين وخلت بنفسها فعملت تنكر في حالها وما اتفق لها من النشل المتوالي من كل الوجوه وخصوصاً موت الفسيس وضياح اسم والدها وفشل رجال علي وخروج الخلافة من يد محكم الحكمين . فغاب عليها اليأس فلم تر لها فرجاً الا بالبكاء والغيب فنظرت الى ما حولها فاذا هي منفردة وليس من يسمع بكاءها فاطلقت لنفسها العنان حتى كاد يغيب عليها . وما زالت تشفق وتزداد شهيقاً كلما ذكرت علياً او والدها او محمداً . حتى تعبت وجف دمعها فالتت رأسها على حجر ونامت ولكنها لم تستغرق في النوم فنراى لها طيف محمد فأفاقت مذعورة وهي تقول « اهلاً بجمي لا تعزية لي الا بيو . . . انه في مصر الآن . . . هل من يعلم بما حل بامر الخلافة ان عمراً قد كاد فيها كيداً عظيماً . . . آه يا محمد هل من حيلة تستخدم بها علياً رجل هذه الامة . . . لا اظن الامر بعد الآن الا صائراً الى معاوية

» اما انا المسكينة اليتيمة المجهولة النسب والنعمة المحظ فرما كنت انا وحدي سبب هذا البلاء وربما كانت تعاسي هي التي جرت كل هذه المصائب لكي اموت مقهورة . . . » وسكنت هنيئة ثم اتبعت بنته وهي تقول « محمد محمد . . . انت تعزيتي في احزاني ومصائبي هلم لي اليك فأعيش بقربك فانك لدي افضل من الوالد والوالدة والاب والاخت . انت ملجائي وملاذي . ولكن علياً سيدي وفجري بل اذهب اليه واموت في الدفاع عن امره . ولكن . . . »

## الفصل الثالث والثمانون

## ﴿ الخوارج في الكوفة ﴾

وفيا هي تخاطب نفسها لمحت الخادم عائناً بالجوادين . وهو يصرع نحوها  
فقال ما وراءك

قال التيت واما اسرح الجوادين بشرذمة من رجال الشام ركبو مسرعين وفيهم  
عمرو بن العاص وكلهم فرحون بما نالوه وسمعت عمراً يقول لقد استفام لنا الامر ولم  
يتق عليّ الا ان افتح مصر فانا دانت لي عدت الى ولايتها ثم لا يتقني في يد علي الا  
المراق وانجاز فجرد عليها ونقحها

فلما سمعت ذكر مصر ونقحها اقدمت بدنها وتذكرت محمداً فيها فقالت في نفسها  
بل اذهب الى مصر الآن وارى ما يأول اليه امرها . ثم التفتت الى الخادم وقالت  
وما ظلك في مديرم الى مصر

قال لا ادري متى يسهرون ولكن لا بد لهم من الشخص الى الشام اولاً وتديبر  
امورهم ثم يحملون على مصر

فاثبتت مدة تردد بين ان تسير الى مصر لتري محمداً او الى الكوفة لتري علياً وما  
آكل اليه امر الخلافة عندك . فلما رأته امر المحملة على مصر عابثاً عولت على فصد الكوفة  
سريعاً ثم تعود الى مصر بعد ان تخار علياً ببعثه محمد . ولكنها رأته ان تكتب الى  
محمد تخبره بعزمها وتبثه باحوالها استعداداً للفناء فكتبت اليه ما نصه :

« من اساء المحبة التيممة الى حبيها محمد بن ابي بكر

« اذا لم يكن بملك ما اصابني بعد سفرك الى مكة اخبرك اني يميت الشام اجبت  
عن اسم والدي قرأيت حامل السراقر الى بيت المقدس فلبثت هناك مدة فاجبت  
فيها من الخطر والعذاب الواثماً فافصها عليك متى اجبعتنا ان شاء الله ثم فررت الى  
بيت المقدس اسأل عن التيمس حامل السرفقالوا ان سارك انطاكية فقصدها  
فاً بطاً حضوره . ودلت في انشاء ذلك محملة اهل الشام على مولانا امير المؤمنين في  
صنن فحضرت المعركة وشهدت ما نصبه عمرو بن العاص من الحول برفع المصاحف ثم

ما كان من امر التحكيم ما اظنه يبلغك من انذاره لئلا الغاية ولكي متى التقيت بك  
اقصه عليك منفصلاً

واما الآن فاكتب هذا اليك والقلب لولا الامل بلتيك ذاب وطار شعاعاً . فقد  
اصحبت بتيمة حزينة مجهولة النسب لان ذلك القديس الشيخ قضى نحباً وانا في  
صنين . ولا تسأل عن حالي لما رجعت الى انطاكية ورأيت الناس يجثلون بجنازة  
فلتأمت وبكيت وانصبت ولولا الامل بقربك لتضيت على نفسي بالنقل . وكيف بلد  
طعام او منام لئلا احدقت بها العناسة وتولتها الخوس من كل جانب لم تشرع في  
امر الآفشات . فأصحبتُ يا محمد بتيمة عربية متروكة لا اعرف من هو والذي بعد  
ان رجوت بان يكون احد كبار الصحابة . فضلاً عما اتاني من البلاء بسبب ذلك  
الرجل الاموي ولا اسمي لان اسمه يؤلمني .

« واعلم ان كل ما قاسيته من الشقاء اعني من ذاكرتي مجرد الامل بلتيا  
حبيبي ومنتهى املي محمد . . . آه ما لذكر هذا الاسم بهني

« وكنت قد عولت على القدوم اليك على اثر حكم الحكامين الروم لولم اكن في  
شاغل على حال الخلافة وعلى مولاي وفخري بل فخر المسلمين كافة اعني يا الامام علي  
امير المؤمنين . فما اني شاخصة الى الكوفة لعلي استطع خدمته ثم آتي اليك . ويكفي  
من قرئك ان اراك واسمع حديثك . وارجوان يكون لي نصيب في جندك فاذا حل  
عمرو بن العاص على مصر كما سمعت لا يلقى فيها متوقفاً يسلمها اليه فغارب سوبة  
فاما نعرش مجاً واما موت معاً والسلام »

ولنت الكتاب وجعلته في انبوب من النصب ودفعته الى الخادم وارصته ان  
بوصلة الى محمد بن ابي بكر في مصر وبني هناك حتى تأتي في لانها ستلقى في  
حالا . فمضى الرسول وبقيت هي وحدها وبعد قليل ركبت الى اذرح واستأجرت  
دليلاً سار في ركاها الى الكوفة وهي مع ذلك مباله الى مصر لان قلبها هناك وخصوصاً  
بعد ان سمعت بعزم عمرو على فقها فوصلت الكوفة بعد ايام فلم ترَ علياً فسألت  
عنه فقبل لها انه خرج لحرب الخوارج في النهر وان

فالت ومن م الخوارج

قالوا م الذين تقوا على علي لانه رضي بالتحكيم

فالت اعوذ بالله من هؤلاء النوم يجملون امير المؤمنين على قبول التحكيم ثم

ينعمون عليه لانه قبل و

وفكرت في الامر وصره وشاروت نفسها في ان دعاب لصرف علي او الخروج الى مصر لمشاهدة محمد . وقضت في ذلك اياماً وفيها هي تفكر في ذات يوم رأت في الكوفة هرجاً واضطراباً فقالت ما ذلك . قالوا ان الامر استنام في الشام لمعاوية حتى اتت الى مصر من ينعمها اتت عمراً فاتمها الاول . فأرسل عاملها بذلك الى الامام يستنجئ

فلم يبق عندها شك في المير الى مصر فأرعدت الى جوادها وركبت وقد بست ما احابها من النشل وتولاها من النص وسارت وهي تعال نفسها بلتيا محمد حيث لا رقيب ولا منظر . وكادت قد ملت الاسفار والاططار على غير جدوي فعولت في باطن سرها ان تنيم في مصر لا تلتفت الى شيء . وهي لا تدري في أسفاه عليها بما ينظرها هناك ما لم يخطر لها ببال ولا يستطيع الصبر عليه انس ولا جان

## الفصل الرابع والثمانون

### ﴿ فتح مصر ﴾

قد تقدم ما كان من اجناع دعاء عثمان في مصر وعزل قيس بن سعد عنها بما دس معاوية من الحيلة حتى اتت ما بينه وبين علي . وما كان من تولية محمد بن ابي بكر . فلما تولاها محمد بعث رجلاً من خاصته لمحرب اهل غربنا القاتنين بدعوة عثمان فقتلوه وتعاظم امرهم وفسدت مصر كلها على محمد . فلغ ذلك علماً فقال ما لمصر الا احد الرجلين يعني قيساً او الاشر وكان قد عزل قيساً فلم يرجع اليه فبعث الى الاشر وكان قد عاد بعد صنين الى عمله في الجزيرة . فلما حضر اخبره خبر مصر وقال ليس لها غيرك فاخرج اليها فاني لو لم اوصك آكتفيت برأ بك . فخرج الاشر وتخص الى مصر . وانت معاوية عبوة بذلك فعظم عليه وكان قد ملع بمصر لكثرة خبائها استمعين بها على اعالي وحروبو . فعلم ان الاشر ان قدسها كان اتت عليه من محمد بن ابي بكر وكان على حدود مصر بونف بلد اسمه الفلزم بالقرب من مكن المويس يغلب للنادم من الشام الى مصر ان برّ فهو وكان الفلزم في حوزة معاوية

فبعث معاوية الى صاحب خرجه في انزلهم بحجر بمصر الاشتهر الى مصر وقال له  
 « فان كفيتموني لم آخذ منكم خراجاً ما ببيت وبيت »  
 فلما مرّ الاشتهر بالفزاع استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده  
 فأناء بطعام فلما أكل اناء بشرية من عمل قد جعل فيها سماً فسقاه فأتت فضلت  
 مصر بامر محمد بن ابي بكر . فازداد طمع معاوية فيها وهو يرجو منها خيراً فاستشار  
 عمراً فقال عليّ بها الي فاتمها الاول ومن اولي بها مني . وجرّد جيشاً كبيراً وسار  
 فاصداً مصر فلما علم محمد بمجهلته بعث الى الامام عليّ يستنجيه وثلمت اسماء بذلك  
 فقدمت كما مرّ

وكانت محمد لم ينظر اسماء منذ افترقا في البصرة يوم خرج مع اخنوخام  
 المؤمنين الى مكة . وكان قد علم بما دار بينها وبين الامام عليّ على اثر وقعة الجمل  
 بشأن خطبتها للحسن . اخبر بذلك الحسن نفسه وهو لا يدري انه مناظر على اسماء . فاخبره  
 كيف ان والدك جعل غموض نسبها مانعاً من زواجه بها فسرّ ذلك وهو على يقين  
 من بقاء اسماء على عهد . واخبره الحسن ايضاً انها سارت الى بيت المقدس لامتطالع  
 اسم والدها . ونظراً لانشغالها بامارة مصر وما احاطت بها من المشاكل وما قام فيها  
 من الثورات المتوالية التي اضرم نارها دعاة عثمان في خربنا وغيرها لم يتمكن من  
 مكائنتها ولكنه كان يسأل عنها ويفحص اخبارها . فكانت تارة يبرف مقرّها وطوراً  
 لا يبرف . واخر ما علم انها كانت في مجلس الامام عليّ يوم خالفة اصحابه في قول  
 الحكيم ومع ما اظهرته هناك من المحبة والغيرة فنذكر حديثها وتصورها امامة تدير  
 يديها وتكلم وتهدد فارتاح لتلك الذكرى واشتاقنا نعمة لتبهاها

عليّ انه تذكر ما رآه الامام عليّ في غموض نسبها حتى جعله مانعاً من الاقتران  
 بها فقال في نفسه « اذا عرفت والدها كان امرها مشكلاً لان الحسن لا يقبل عنها  
 واذا ارادها الحسن وطلبها والدك فكيف اطلبها انا » فلما تخبر ذلك عظم عليه الامر  
 حتى رد ان لا تعرف والدها فتكون اقرب اليه ولو بدون اقتران . وسوّلت له الغيرة  
 ان لا يأخذها احد منها خبر من ان يأخذها الواحد دون الآخر

وما زال يردد هذه التصورات في ذهنه حتى جاء كتاب اسماء الاخير من  
 ادرج وعلم بهوت النسب وضباع السر وما نشره ابو اسماء في كتابها من رغبتها في

المعبشة معه كاختير أو صدقة فحقق صدق مودتها وبها ما على العهد فانبسطت فسه  
ولبت ينتظر عودتها وهو يكرر تلاوة الكتاب وقد استأنس بولائه حاج انجباء  
بعد ان طال زمن التراق وكان كلما تلا الكتاب تصور اسماء وافقة بين يديه  
تخاطبة ويخاطبها

ولكن استنائه يذكرها لم يمل لانشغالها بهام الحرب . فبينما هو ذات يوم في  
النسطاط عاصمة الديار المصرية في ذلك الحين جاءه عمه بنجر اهل الشام وأبهم  
حاملون طوبى بقيادة عمرو بن العاص

وكان عمرو قد كاتب محمداً بطلب اليه التسليم فارسل محمد الكتاب الى علي  
يستخبره فكتب اليه علي ان يجمع شيعته ويبتدئ للقتال ووعده بانفاذ الجيوش . فأخذ  
محمد في التأهب بن عنده من الرجال فجهز كنانة بن بشر في الثوب وسار هو في  
اشبه بالثوب

اما عمرو فانه دخل مصر من الدرقية وجعل يرحب الكنانة كنية بعد كنية  
وكانة يلقى كنانة ويترقبها حتى كاد النذل يبيط بجيود الشام لو لم تأتهم نجدة قوية  
بقيادة معاوية بن حديج فاشتبك أزرهم

اما جند مصر فلم تأتهم نجدة لتقاوم اهل العراق عما دعاهم اليه علي ولكنهم حاربوا  
حرباً شديدة دافعوا فيها دفاع الابطال ونزل كنانة عن فرسه وما زال يقاتل  
حتى قتل (١)

## الفصل الخامس والثمانون

### ﴿ محل الواقعة ﴾

وسارت اسماء من الكوفة وهي كلما تقدمت نحو مصر ازفادت هواجها  
على محمد . وكانت قادمة وحدها على جوادها فاضطرها ذلك الى المهرب بجوار المدن  
استئناساً بالناس ومخافة العطش في الصحراء والجواد لا يبصر على العطش فسارت على

ضفاف الفرات ثم تحوّلت الى الشام حتى وصلت دمشق فسمعت هناك هميز حملة عمرو فأخذت نجحت عن الغالب فعلمت ان عمراً بعث يستنجد معاوية وان جيش مصر غالب . فسرت ولم تلبث في دمشق الا ربنا استراحت وركبت تلمس مصر . ولما دنت من العريش وقيل لها انها على حدود مصر تذكرت ما قاله رئيس دير البصرة عن والديها وانها ولديها في مصر وانها عرفت بزيدا هالك . فهاجت احزانها ولكن افتكارها محمد شغلها عن كل ذلك

ولما دخلت مصر مرت اولاً بالفرما وهي مدينة كانت في ما يجاور بور سعيد الآن . وما صدقت انها وصلت هناك حتى اخذت نجحت من حال الحرب بين محمد وعمرو فاخبروها ان عمراً جاءه النجعة بعد ان كاد يفشل فشدد ولحظت من خلال حديث القوم انهم على دعوة عمرو وانهم مبالون الى معاوية فانقضت نمنها وخرجت من الفرما لا تلوي على شيء ومجنت عن مكان القتال فقالت انه في ضواحي النسطاط فجدت في السير . وهي في كل سنها لا تنام من الليل الا قليلاً حتى وصلت بليس فرأت اهلها في هرج ورأت جماعة من الناس يدخلونها وفيهم من ربط يده او شد زنته او عصب راسه فعلمت انهم عائدون من قتال . فاضطربت حواسها واستنهبت منهم عما كان فقالوا ان جنود الشام تكاثروا بما انضم اليهم من اهل مصر ممن هم على دعوة عثمان وقد بايعوا معاوية وهو بعيد . وان كنانة بن بشر قتل وتشتت جند مصر . فسألت عن محمد فلم يبينها بخبر مخبر فاختالج قلبها في صدرها فقالت ومتي كان ذلك . قالوا كانت الواقعة اول امس وان عمراً دخل النسطاط

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فلم تستطع صبراً فركبت وخرجت تلمس مكان الواقعة وهي سائمة وعينها شائعة الى الامام لانباتي بما يتهددها من الخطر وسدل الليل نقابة فلم تعد تستطيع التطلع الى بعيد وخافت ان يبه عن الطريق فلبثت تفكر في الامر وهي سائمة الهويناء . وقد تهافت للدفاع بملاحها اذا اعترضها معترض فما لبثت ان رأت الافق يتبرغم اطل القمر واضاء فقلقت بالترحاب واحمد عند رؤيته بانفراج الازمة ولكنهما رأت بعضه ناقصاً وهو قبيل ربعه الاخير فحجل لها لشدة هواجسها بالحرب انه خارج من المعركة وقد شطب وجهه بالدمع ولما طلع القمر استنارت به ووجدت في الدير تلمس النسطاط . وكانت لما خرجت

من بليس ترى بعض المارة قادمين اليها افراداً وازواجاً ولكنها لم تنك تيمد عنها حتى خات الطريق من الناس فظننت نفسها سائرة في طرق لا تؤدي الى السطاط فوقفت وتبنت الجهات جيداً فرأت انها اخطأت الجهة والنتنت فلم تر امامها الا صحراء قاحلة فمرجت يميناً حتى اصبحت في ارض زراعية وسارت الشمس الجنونه والنهر الى يسارها يعلو رويداً رويداً حتى اصعب برها الاشباح عن بعد . ووادي النيل ارض منبسطة لا جبال فيها ولا اودية

ومضى معظم الليل وهي سائرة حتى تعبت وجاعت واحست بالبرد وهو شديد في مصر بعد منتصف الليل حتى في ايام الصيف . فترجلت ومشت الشمس الدفء وقادت جوادها وراهاما والجوهادي والارض خالية من الناس لا تسمع غير وقع حوافر فرسها ونحوه

وقيا هي ماشية تفكر في حالها سمعت جوادها يصهل وقد اجنل فالتفتت الى ما اجنله فرأت شجراً منظره على الارض واثننت رائحة النانة . فدننت من الشجح فاذا هوجتة قنبل جانفة فمتمق قلبها وعلت انها على منربة من مكان الواقعة تشددت وتجلدت وقد شعرت منذرأت تلك الجنة بارتعاش نمينة الى البرد وما هو في الحقيقة الا نتيجة ما طرقت ذهنها من الصورات المرعبة عن محمد

ومشت والجواد وراهاما والروائح تعماظم ثم رأت جوادها اجنل ثانية اجنلاً عظيماً من جيفة جواد وراهاما جيف كثيرة تصابرت عنها السور محلقة في الجوه وصدمت بطهراتها تصويفاً زاد الفرس اجنلاً . فارتبكت في امرها وهي نود الجحش بين تلك الجيف مخافة ان يكون محمد بينهم والجواد ينهاها باجنالها وصهلوه فعدت الى شجرة شدته الرها وعادت وقلها يحنق وركبناها ثرعدان وعيناها شاغصتان الى تلك الساحة وفيها الجحش ملفاة ازواجاً واثلاثاً وبين اولئك القتلى من استلقى على ظهره وبسط ذراعوه كأنه يستقبل طناً يستغيث به ولكنه حول وجهه الى احد الجانبين كأنه شعر بفسح منظره وقد جعله اللي جلدأ على عظم واكلت بعضه السور - لثلاً يخاف الولد منه . ورأت آخر مكبا على بطنه وقد قبض باحدى يديه على ربح وبالاخرى على التراب ورأت هناك روثاً مندرجة وجثثاً بلا روثوس متراكمة بعضها فوق بعض . وارهب ما رآته رجل وامرأة مانا متعاقبين ولم تعرف المرأة الا من ثوبها لان الوجوه لم تعد تتنيز

ولا ازيدك علماً بحالة اسما . ساعتئذ فقد كانت تجرُ نسفاً جراً بين تلك الجبف وهي تعاذر ان تدوس على يد او رجل أو رأس وقلها يخفق خفناً شديداً تكاد تسمع صوتها في اذنها . ولونأني لما ان تنظر الي وجهها برآة لرأته اشدّ استغناء من وجوه تلك الجبث . وتعبت من الفرس بالوجع والابواب وانزت تلك الراحة الكريمة في رأسها مع ما كانت فيو من التعب والجوع فأصابها دوام وخافت ان تسقط فوق التلّي فاستدركت نفسها ونهت الى الشجرة التي شدت فرسها اليها وجلست هناك وابعدت رأسها الى جذعها تلتمس الراحة . ولكن افكارها شلت نائمة ولم ترح صورة محمد من امام عينيها . ولم تكذب نلني رأسها حتى غلب عليها العباس فامضت جنبها فتصور لها محمد متولاً فارعدت فرانصها ونهضت مذعورة . وفيما هي تنهض رأت النرس يده رأسه الى الارض فالتفت اليه فرأته ألتقط شيئاً مضغاً بين اسنانه فسمعت له فتنساً كفتش القصبه اذا كسرت بين الاضراس ثم ما لبست ان رأت النرس يلفظ تلك الهباء فلهجت فيها شيئاً ايض فتناولته فاذا هو قصبه وفيها رقى هو كتابها الى محمد لا يزال في قصبتها كما ارسلته اليه فازداد بليلها ونهتت ان محمد آكان في تلك الواقعة وتلك القصبه معه فسقطت من جيبي في اثناء الدفاع . . فأين هو . . . وكانت قد بسمت من وجوده هناك وفي ذلك البأس فرج لانها تخفق نجاناً من تلك الواقعة فلما وجدت كتابها خافت ان يكون محمد قتل هناك فعادت الى الجبث تبحث فيها

وكان التمرد تكبد السماء وصنا الجوز وظهر كل شيء امامها جليلاً واضحا كأنها تنظر اليه في رابعة النهار . وهي لا تمنح في مجتها عن محمد الى نعم ونعم ولو لمحت طرف ثوبه او بعض عمامته ولو عن بعد لعرفت لان صورته نصب عينيها . ولكن الاثواب والعمائم تشابه . فلا تسل عن خفتان قلبها وارتعادها كما رأت شيئاً يشبه



## الفصل السادس والثمانون

﴿ البحث عن محمد ﴾

وما زالت في ذلك حتى لاح الفجر ونبتت الوجوه فدارت بين التللي تجدد البحث فطلع النهار وهي تجول وتتنرس فلم تر أثراً لمحمد ففحقت انه لم يقتل في تلك المعركة . فلما سكن روعها من هذا التليل احست بالسب والنعاس والجوع فالتفت الى ما حولها فرأت بيتاً تكاد توارى لبعدها فعلمت انها منازل بعض اهل القرى فمخولت اليها تنس ماعاماً لها وعلقاً لجوادها فوصلت المكان وحيت اهله . فرأت هناك امرأة معها صبيان عراة يحومون حولها وهي تطلب لم لبناً من غنمة . فلما رأى الصبيان اسماء فادته على فرسها صاحبها بهم فزعت وفزعوا جميعاً . فتركوا الغنمة ودخلوا الكوخ فنادتهم اسماء وطيبت خاطرهم فعادوا فقالت لم هل عدكم ظف لهذا الجواد قالوا نعم واعتذروا لحوفهم بانهم قاسوا في تلك الاثناء اهلآ من الجند المغارب لانهم كانوا يبهون كل ما فصل اليو ايديهم

فأكرموا وفادة اسماء وجاؤها باللين ولجوادها باللفف وانتمت حصراً نكح طلو فنهض صاحب الدار فأخذ النرس وشقه الى وتتر وجاء بصغير كان قد خبأ تحت فراشه اعلماً حرصاً عليه فانكأت اسماء على ذلك المحصر في ظل الكوخ ونامت نوما عميقاً لم تنق منه الا قبيل الغروب

ولم تنزع عينها حتى رأت رسولها الاخير الذي انفذته الى محمد من اذرح واقفاً عند رأسها فصاحت فيو اين كنت ومن اين اتيت . . اين هو محمد

فعض على شفتي السفلى وأشار بعينيه يلمس سكوتها لتلا يسما احد اهل البيت فنهضت ونحمت اهل الكوخ بعطية لقاء خدمتهم وسلت النرس الى ذلك الرسول ومشت الى جانبو وسأله عما يعلم عن محمد ومكانو وما الذي جاء به الى ذلك المكان فقال ابشري يا مولاتي ان مولاي محمداً قد نجا من هذه الواقعة

فالتت واين هو . . وماذا تم له اخبرني

قال اعطي يا سيدي اني ما فارقت سيدي محمداً يوماً واحداً منذ جئت بكتابك

وقد آنت فيو انعطافاً عجوي لا ادري سببه وحينما توجهت في ركابوا اما راجلاً او راكباً . ولما كانت الواقعة منذ يومين في هذا السهل وقتل كانه بن بشر فاند مقدسو نفري رجاله عنه حتى اصعب وحيداً فالتحت عليه . ان يخرج من المعركة خيراً من ان يقتل . . . .

فلما وصل الرسول الى هذا الحد امتنع لون اسامه وشخصت بصرها لسباع نمة الحديث وخلق قلبها

فقال « واما هو فقد كان عازماً على البقاء في ساحة القتال الى الموت فالتحت عليه بالخروج فأطاعني فمشينا حتى انتهينا الى خربة ( ) في ناحية الطريق بالقرب من هذا الجبل ( وأشار الى المقطم ) فأوربا اليها خاتمتين . وقد مضى علينا هناك يومين بلا طعام ولا ماء . فلما رأيت سيدي ظمأ استأذنته في الخروج لآنيو ببعض الماء والطعام وأوصاني ان ابحث عن كتابك فقد كان في جيوب اسامه المعركة وفقد منه »

فقلت « اما الكتاب فقد وجدته بل وجدته هذا الجواد . وابن هو محمد الآن هلم بنا اليه ومعنا الماء »

فقال « انه حيث قلت لك على مسافة قصيرة من هنا »

قلت « احمل لك الطعام ولما . وهلم بنا »

قال « الا تظنين علينا بأنا »

قلت « لانليك الشمس ان تغيب ويحيم الظلام فلا يرانا احد . وارى ان نتي هذا الفرس هنا لئلا يدل علينا »

فأخذ الرجل الفرس وعاد الى الكوخ . وبعد قليل رجعت بئرته مملوءة ماء وبأرشفة وثي . من الجبن

## الفصل السابع والثمانون

### ﴿ الحربة ﴾

مضيا وقد حيم الظلام والرجل بمشي امامها يدلها على الطريق وهي تكاد تمز

بأذينا لها للهتها وسرعنها - وقضت مسافة الطريق لا تنكلم لانشغال خاطرها بما توقعت  
من التأثر عند لبا محمد

وقضيا ساعة سائرين واللبل داس لا يكادان يميزان الطريق لولم بكل جبل  
المنظم ظاهراً امامها في الافق - فجعلوا وجهتها لان محناً محمد بالقرب منه . وكانا  
بمران نارة بين غيام وأونة في اعشاش او أكواخ صفيحة حتى وصلنا الى جانب المنظم  
تقدم الرجل وسارت اسياه في اثره ومشى هو يلمس الطريق بين انقاض بعض الاخرية  
وهي شعبة وقلبا يحنن توقفاً للبقعة التي منصبتها عند المقابلة بعد طول العربة . وكان  
قلبا يرفص فرحاً لما تصوراها أنه بالماء والطعام

وبعد هنيهة اخفى الدليل في ظلمة مدلمبة هناك فنادته بصوت مخفئ فقال اتنا  
وصلنا . فدخلت في أثره الى بيت خرب لم يبق منه الا الجدران وبعض السقف ولم تنك  
تدخل حتى سمعت الرجل يقول « ابن انت يا مولاني » فلم يجبه احد . فقالت اساء .  
« العلة كان هنا وغاب »

قال « تركت في هذه العربة »

قالت فلتنش عنه في غيرها لعل الخرب تناهت عليك . وقتنا كل الخرب  
المجاورة فلم يبقنا له على اثر حتى تعبنا وبللاً التنين فقالت اساء « ما ظلك يدب نعبو »  
قال « لا ادري ولخشي ان يكون عمرو قد عرف بمكانه فبعث في النبض عليه  
وهو اعزل لا سلاح منه »

فما سمعت ذلك اقتشر بدنها وقالت « وكيف العمل الآن »

قال « اني رهين اشارتك في ما تأمرين »

قالت « عد بنا الى حيث كنا نلث هناك الى الصباح ثم تعير انت للبعث عنه »  
قال حسناً . وعانا حتى اتنا الكوخ وعرفاه من صوت الفرس فانه حالما انتم  
رائحة القادمين حتى سهل ورفس الارض بجائره  
وباتت اساء عند تلك المرأة وبكر الرجل في الصباح للبعث عن محمد ومكانه  
ولبت في هناك في انتظاره



## الفصل الثامن والثمانون

## ﴿ خبر الفاجعة ﴾

وابطاً الرجل في رجوعه فانشغل خاطر اساء وندمت لانها لم تسر في التفتيش معه . واضحت الشمس ولم يرجع فازداد قلقها ولم يعد بطيب لما مقام فمشت وراء تلك الاكواخ الى الجهة التي تتوقع ان يكون رسولها قادماً منها حتى بعدت مسافة . وفيما هي تتصالح في آخر الطريق رأت شهماً مسرعاً نحوها عرفت من قياضه انه رسولها فاخرج قلبها وشخصت اليه ببصرها لترى ما يبدو منه فاذا هو ما زال مسرعاً حتى وصل اليها وهو يلهث من شدة التعب وقد عاتبه اليبغنة واحمرت عيناه وكلال العرق جبينه فصاحت فيوماً وراهك .. قل .. ما خبرك ... هل وجدت محمداً .

قالت ذلك وقلبها يزداد في الخفتان

فقال وهو يلهث لهماً شديداً « آه يا مولاتي ... نعم وجدته ... ولكنه ... ولكنه في خطر القتل ... »

فصاحت « وكيف ذلك ومن يقته »

قال « انهم عاروا على مكانه في الخربة قبل وصولنا اليها بالامس ... آه ضاق صدري من التعب امهاني لانشق الحوا ... وقد دلم عليه بعض ابناء الحرام فحملوه وهو اعزل الى السطاط ... »

فقالت « وبعد ذلك .. ما ذا جرى »

قال — لما مضيت من عندك في هذا الصباح تصدت السطاط رأساً لاني اعلم انه لا يذهب الى مكان اذا لم يقضوا م عليه فوصلت الجماع وتظاهرت بالصلاة فرأيت هناك عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن ابي بكر اخا سيدي محمد وسمعت عبد الرحمن يقول لعمرو « انتقل اخي صبراً ابعت الى ابن حديج فابوه عنه » (١) فعلت ان معاوية بن حديج هو الذي قبض عليه ويريد قتله . فطار صوتي ووددت ان اعرف اين هو ابن حديج لاسير اليه فسمعت عمراً يقول لبعض رجاله « اذهبوا الى ابن

(١) ابن الاثير ج ٣

حديج ان يكف عن قتل محمد وبأ نبي و « فخرجت في ان ذلك الرسول حني وصلت الى مكان وسط بين الخربة والنمطاط رأيت نورا جمعاً متكاتفاً بينهم ابن حديج ومعهم رجاله احاطوا بهولاي محمد وقد رقى جسمه من انعطش والجوع ١٠٠٠ آه من اولاد الحرم ١٠٠٠ وتقدم رسول عمرو الى ابن حديج وابله امر عمرو فاجاب « فلنم كنانه ابن بشر واهلي انا محمد ا أكفاركم غير من اولكم مهابت مهابت » (١)

ولا نسل عن اسماء وثمة اصنافها لمنال الرجل وكيف كان وجهها يابون . فلما سمعت ذلك الكلام تطاولت بعنقها وحدثت بهصرها لترى ما تم بعد ذلك وهي تقول « جزاهم الله شراً على هذا التول . . لا لا لا اعطه بقوله بلا امر عمرو ولكنه اسماء الادم »

فقال الرجل ولو انصرت اسماءه على ذلك لكان غيراً ولكنه منع سيدي الماء فلما سمعته باذني طلب منهم ان يسقوه فقال له ابن حديج بوقاحة واستخفاف « لا ستاني الله ان سقيتك فطرح ابداً انكم تمنع عثمان شرب الماء والله لا تلتذك حني يمتك الله من الحميم والنساق » (٢)

فلما سمعت اسماء ذلك قالت « خسي النذل » واصاحت بسمعها . فقام الرجل كلاماً وقال — فاجابة سيدي محمد « يا ابن اليهودية الساجدة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسي اوليائه ويخلي اعداءه انت وامالك اما والله لو كان سني بيدي ما بلغتني هذا »

فلم تعد اسماء تستطيع صبراً على استماع الحديث وهي تود ان تعرف النتيجة عاجلاً فقالت « وماذا جرى اخيراً »

قال سمعت ابن حديج يقول له « اتدري ما اصنع بك ادخلك جوف حماريم احرقه عليك بالنار »

فصاحت اسماء والدفع بتساقط من عينها وهي تشدد وتجلد « خسي ابن اليهودية والله ان لا ييجر على ذلك »

فقال الرجل « فلما سمعت قول ابن حديج اسرعت لاخبرك لاني رأيت في اوجه النور المبادرة الى الشر »

فالتفتت اسماء وراها فرأت الكوخ بعيداً ولا سبيل لها الى الرجوع ولم تعد  
تمالك عن المبادرة الى محمد فقالت « وهل المكان بعيد من هنا »  
قال انه قريب

فقالت هلم بنا اليو . ومشت وهي لا تدري كيف تنقل قدميها لعجلتها ولعجلتها والرجل  
لا يستطيع اللحاق بها لانه كان لا يزال نعباً وليس في قلبه نار تستعجل خطواته كما  
تستعجل خطوات اسماء . فمشت نصف ساعة ولم تدرك المكان فندمت لخبثها ماشية  
وقد كانت تظن المسافة اقصر من ذلك

## الفصل التاسع والثمانون

### ﴿ قضي الأمر ﴾

ثم اشرفا على ساحة . فقال الرجل « كانوا في هذه الساحة والظاهر انهم ساروا  
الى النسطاط » فمشت حتى انت المكان الذي كانوا فيه فرأت آثار دم وكان  
شبيهاً جروحاً على الارض جراً . فارتعدت فرائصها وسجدت الدم في عروقها وصاحت  
« ويلاء ويلاء انهم قتلوه . . . قتلوه . . . آه يا محمد يا محمد . . . يا حبيبي »  
فقال لها الرجل « وكيف عرفت ذلك »

قالت « اما ترى الدم وانار جر المينة » قالت ذلك ولطمت وجهها وانحدرت  
الدمع على خديها ومشت تتبع آثار الحجر وعيناها لا تريان الطريق لما بغشاها من  
الدمع ولم تمس قليلاً حتى اشتمت رائحة شواء . فمضت عينيها وتطلعت فرأت دخاناً  
يتصاعد من خربة . فأيقنت انهم قتلوه واحرقوه في جوف الحمار كما قالوا .

فهرولت الى الخربة لا تلوي على شيء فرأت هناك جيفة حمار حولها النار موقدة  
وجوفها مشقوق ففتربت في ذلك الشق فرأت من خلال اللهب رأس محمد مغمض  
العينين كأنه في سبات عميق فصاحت « محمد يا محمد . . . لند صح قولم وفعلموا  
ما ارادوا انهم قتلوه قتلهم الله » وهمت ان تلتقي نفسها في النار فأمسكها الرجل بنوها  
واندم اليها ان لا تفعل . فاطلمت وجهها وحلت شعرها واخذت في التدب والمويل

وهي نسج عيونها كل لحافة وتنظر الى حبيها من خلال الذهب فتراه لا يزال قائماً فتنادي  
 فلا يجيب فتمهم بان تلقى نفسها فوقه والحادم يسكها  
 فصارت بها الحمل فجعلت تدور حوله وتندب بل تندب نفسها وتقول « آه  
 بالنعاسي وشقائي .. آه يا حبيبي يا محمد انك لم تصب حننك الا لنس طالمي ولو  
 لم احبك لم تمت .. وبلاء واسفاء ماذا اعدد من العوس المهدقة في ... لم يبق  
 عندي شك في اني ولدت شوماً على نفسي وعلى كل من هم حولي ... ولدت لا اعرف  
 والذي ولما دنا زمن معرفتي اياه ما نمت ابي ... آه يا والدي المحنونة ...  
 نزلت في دار عثان قتل ذلك الخليفة وكان ثوباً على الاسلام فقامت الفتنة  
 وقتل فيها جماعة من غيرة الصحابة . قتل فيها ثلثة والزهر والرف من المسلمين نوسوا  
 الثرى وجرت دماؤهم بجري الابر . وسعيت في ثلاثي الفتنة بطني وبدي ولد اني فلم انز  
 لان القنادير كانت تماكفي . يكتفيها فاسينة من مروان . ثم فتح لي باب اعرف بو  
 والذي الخفيفي ورجوت ان يكون احد كبار الصحابة فما زالت الاحوال توخرني  
 وتقدني حتى مات حامل السر قبل ان اراه . ولا ريب انه كان في شوق ان يطلعني  
 على ذلك السر اكثر من شوقي انا للاطلاع عليه ...

« نعم عاكسي الدهر ولكنه لم يصب مني مثلاً لان آماله كانت الفة بك يا حبيبي  
 يا محمد ... قلت بكل مصابي ائلاً بانفانك وقعت ان اعيش معك عيشة  
 الاخت او الخادمة او الامة ... ولكن آه .. آه .. لولا هذه الآمال لم تقتل انت لانك  
 انما قتلت لثام نعاسي فانا هو . بس القتل ... كيف تموت .. كيف يختلط بدنك  
 بالتراب بل كيف تموت هذه الموتة الشيمة وايق انا حبة ... كلاً ثم كلاً ... »  
 قالت ذلك والتت نفسها في اللهب قبل ان يبادر الحادم الي منها فالتهب شعرها  
 ولكن الرجل اسرع الى اطفاله بعد ان اشتعل معانها ولحق بعض وجهها وهي ما  
 زالت تحاول الفاء نفسها في اللهب عن غير هدمي وتقول « اتركوني دعوني انام  
 مع حبيبي محمد ... دعوني اعاقه »

فاستدعا الرجل وحملها الى جانب فأجلسها على الارض وقلبه يكاد ينظر على  
 حالها وخامها فلم تنزع . ثم افادت من غفلتها فنظرت الى اللهب وقالت بصوت  
 خافت « لقد مات عطشاً أنا فكيف اذرب الماء . بعده وقد مات جاعاً فكيف آكل

الطعام بعده . . . انت روح اساء فكيف تعيش اساء بلا روح . انك آمال اساء فكيف نحيا اساء . بلا آمال . . . آه ما احلى الموت وما الكه  
ثم وقفت بغنة والتفتت الى ما حولها كأنها استيقظت من رقاد وقالت ببلغة المجد  
والسكينة « وأفضل من الموت يجازيك ان آخذ بمارك . . . ولكن من . . . انهم  
اجمعوا على هذه المصيبة . . . أستنجد الامام علياً ولا اراني الا شوتماً عليه ولم يعمل  
عملاً منذ عرفني الا عاد بالنفس عليه . أأعيش لازيد نعاسة مولاي الامام علي رجل  
هذه الامة وخيرة من مشى على سطح الارض بعد الرسول (صائم) . . . انك امير  
المؤمنين بالرغم عنهم اجمعين . . . ولكنهم اجمعوا على خلافك طمعاً في الدنيا وانت لا  
مطلع لك الا في الآخرة . . . الآخرة . . . »

ثم سكنت هنيئة وهي مطرقة كأنها تفكر في امر ذي بال ثم قالت « الآخرة . . .  
نعم ان الآخرة خير من هذه الدنيا دنيا الشقاء . . . هل تلتقي هناك بعد الموت . . .  
أجل تلتقي . . . لا بد من عالم آخر تلتقي فيه لان الله عادل لا يرضى ان افضي شيابي  
سعيًا في تعزيز كلمته ونصر ابن عم نبيي بقلب مخلص ونية سليمة ولا ارى من نتيجة  
انعابي غير البلاء والشقاء . ثم ارى حبيبي ومنتهى املي مجرق امام عيني بجنة جيفة  
ميننة وهو ابن اول المختلنا وشقيق زوج الرسول الطاهرة . . . فلا بد من عالم  
آخر ينال فيه كل ذي حق حقه . هناك تلتقي . . . تلتقي هناك . . . إذن لماذا  
اعيش هنا . . . ألزادة الشقاء وما في بنائي حجة بعد محمد الا طول العتري  
عنه . . . بل كيف يموت محمد وابقى انا بعيدة عنه والموت احسن وسيلة تجمعني  
به . دعوني احترق بناره فيختلط رمادي برماده كما احرقني في حياته فاتحد فؤادي  
بنواده . . . الموت الموت »

قالت ذلك وهمت بان تلتقي نفسها في اللهب ثم احجمت ووقفت والتفتت الي  
يمينها ويسارها كأنها تنتش عن شيء . . . ثم نظرت الى السماء وصاحت « بل  
اموت فالتقي هناك والدي ايضاً فعساها ان تخبرني عن اسم والدي » ثم جست  
رأسها بيدها فرأته طارياً من الشعر وشعرت بما اصابها من الحرق فلم تنال بل  
تقدمت الى تلك الجيفة الملتهبة وكانت النار قد اكلت معظمها فنظرت الى وسطها لعلها  
تري رأس محمد ثانية فاذا هو قد اسود ولم يعد يهيز من سائر اجزاء الجيفة فصاحت

« محمد محمد .. محمد .. الوداع الوداع يا حبيبي يا أملي يا رجائي يا أخي يا شقيقي  
يا سيدي ... الوداع الوداع ... لا بل اللغاة اللغاة ... كيف اودعك وعن  
ذاهبان معاً ... اللغاة اللغاة باما أحلى اللغاة ولو في النار ... »  
قالت ذلك والفت بنفسها في اللهب كأنها تعانق محمداً ووجهها فوق  
وجهه .. فاسرع الرجل الى اشتغالها فانما في غمغمل اختلاج الموت وكان اللهب  
قد خفتها  
فبكي الخادم لذلك بكاءً مرّاً وصبر حتى خمدت النار فجمع رفات الحبيبين وضماها  
الى مدفن واحد وترحم عليها

### \* انتهت الرواية \*

هكذا انتهت حياة عذرائنا القرشية بعد ما فاسته من العناء في نصرته الحق فلم  
تلق غير الشفاء . ولا غرو اذنا بكاهها القارئ فقد تكبناها فله . وهي تمثل العاسة  
التي تحدى بعض اولى الافضل فلا بنالون جزاء لنظلم ويرم غير الشفاء . ولولا  
تأسيهم بدار الخلد لما نزل حزانى بانسين

وبعز علينا ان تكون نهاية هذه الرواية محزنة وهي اول رواية ختمناها على هذه  
الصورة ولكن حوادتها قضت علينا بذلك . وكيف يكون ختامها غير محزون وفنائها  
التي مدار حديثنا عليها علفت بمحمد بن ابي بكر الذي قضى التاريخ موتو على هذه  
الصورة . فقد قضى عليها بالعاسة منذ أحبته وذلك شان الخلق يسبرون في الحياة  
الدنيا لا يدرون مصيرهم ولا ما خبأته الاقدار لهم فقد يفرحون بكسب او يتهمون  
بمولود او يذنون بحبيب . والاقدار تتوعدهم وتهزأ بعواظهم حتى اذا جاءهم امر من  
رهبهم راوا غير ما يرجون وذاقوا غير ما يتوقعون . والله في خلقه حكمة لا ندركها العقول



# المملوك والشيا

✽ رواية تاريخية ادبية - الطبعة الثانية ✽

✽ تأليف منشيء الملل ✽

تضمن حوادث مصر وسوريا في الصف الاول من هذا القرن وفيها شرح وافٍ عن اوصاف الامير بشير الشهابي الكبير والمفتون له محمد علي باشا وذلك المرحوم ابراهيم باشا مع ذكر احوال بري مصر والشام واخلاق اهلها انما المشار اليها - ووصف الحروب التي جرت اذ ذاك في مصر والشام والمورة مع الاشارة الى الحملة الفرنسية واسماها  
والهجر الذي تدور عليه الحكاية المملوك الشارد وهو املاك الذي نجى من مذبحه المالك في القاعة - والرواية تنسوق الى القراء لتناسق حوادثها ولا يبدأ قارىء بطالعها الا اضطر الى انماها بالرغم عنه - عدد صفحاتها نحو ما ثني صفحة - ثنها ٨ غروش مصرية واجرة الوسطة غرش ووصف

# فناجينا

✽ رواية تاريخية غرامية - جزآن ✽

✽ تأليف منشيء الملل ✽

في الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام واسما بغني عن وصفها شرح فيها المؤلف ظهور الاسلام وانتشاره وما آلت اليه حال العرب بعد ذلك مع بسط حال جاهليتهم وما قاموا به وما كان لظهور الاسلام من التأثير في سائر احوالهم وعاداتهم واخلاقهم ما لا يمكن الوقوف عليه الا بطالعة المجلدات الفصحة ثم ما كان من الجهاد في نشر الاسلام وما تم على اثر ذلك من الفتح في جزيرة

العرب والشام والعراق . ومن ابطالها جيلة بن الايهم ملك غسان وابوهيدة  
ابن الجراح قائد جند المسلمين في الشام وخاند بن الوليد والنعمان بن المنذر  
وهرقل امبراطور الروم وفيه تفصيل لفتح مكة وبصرى ودمشق وبيت المقدس  
والمداين وواقعة اليرموك والقادسية ووصف الكعبة وكيف تكدرت اصنامها  
وغير ذلك . وقد نشر الجزء الاول منها في السنة الخامسة هـ للهِلال \* والجزء الثاني  
في السنة السادسة ثم نشر الجزآن على حدة . فمن كل منها عشرة غروش واجرة البوسطة  
غرش ونصف ومن الجزئين معاً بما فيه اجرة البوسطة ٢٢ غرشاً

## إِقْبَانُ الْبُصْرِيَّةِ

تتو رواية تاريخية غرامية . الطبعة الثانية ❦

تتو تأليف منسى هـ الهلال ❦

هي المحللة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وتتمثل على ام حوادث  
التاريخ الاسلامي واكثرها تعلقاً بالتطور المصري اعني ظهور الاسلام وفروجه  
وخصوصاً فتح مصر وبيان حادثة اسباب ذلك الفتح وما كان من حال القبط  
مع الروم وشرح احوالهم وعوائدهم واخلاقهم وملابهم منذ ثلاثة عشر قرناً او هي  
عبارة عن تاريخ فتح مصر في عهد الاسلام مع تمثيل حركات الجند وملابهم  
ومداولات التواد في عيادهم وتصورهم وما جال في خواطرم مكتوباً على اسلوب  
حكاية بقرأها المطالع ولا يمل بل يزداد اشتياقاً لاطالعتها وهو محبب نفسه بقرأ قصة  
تفكاهة فلا يأتي على آخرها الا وقد فهم تاريخ الفتح وحوادثه كأنه شهيد بنفسه . ومن  
ابطالها عمرو بن العاص والمقوقس حاكم مصر والاعرج قائد جند الروم  
فيها وغيرها . ثمنها ١٠ غروش مصرية واجرة البريد غرش ونصف

